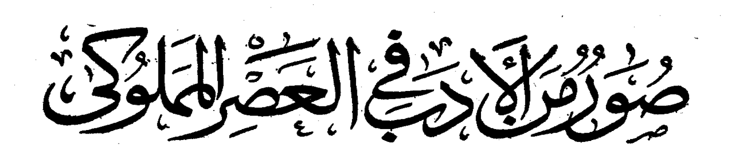
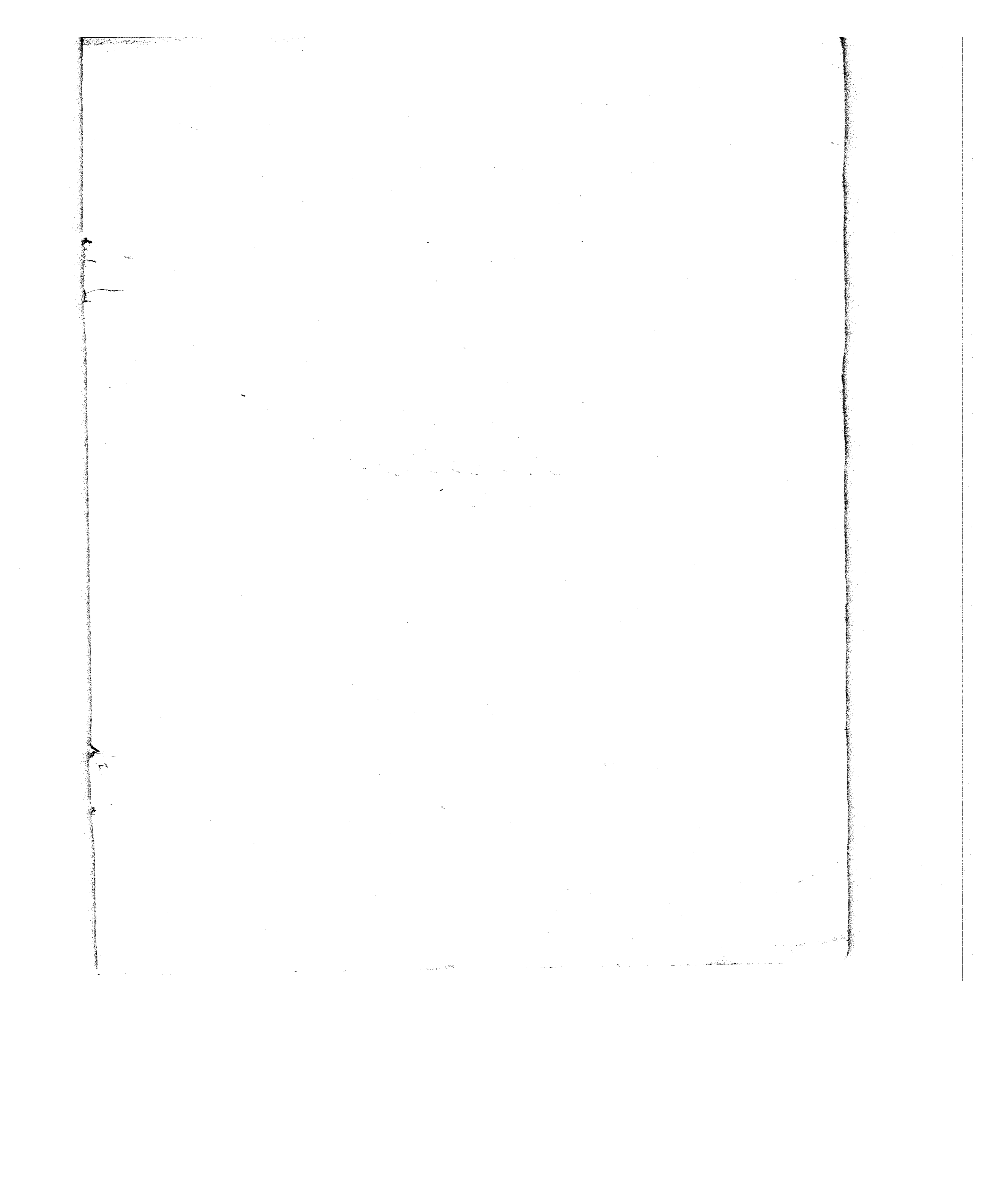


د. مهجة محمد كامل درويش

أستاذ الأدب والنقد المساعد
بكلية الدراسات الاسلامية والعربية
جامعة الأزهر

١٩٨٧ ـ ١٩٨٨

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ ش محمد فريد

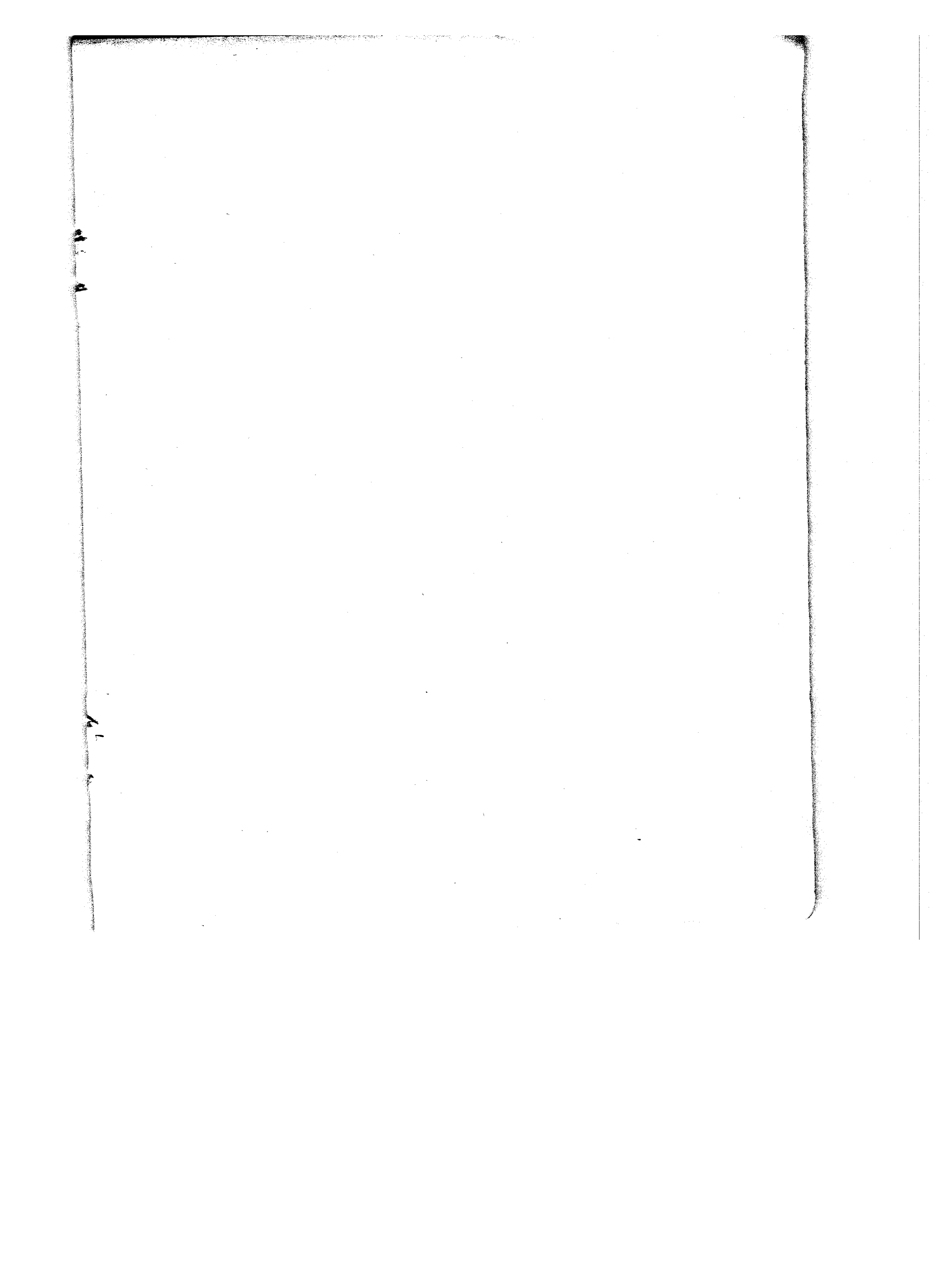


بسم الله الرحمن الرحيم

الاهـــــداء ...

الى كل من علمنى حـــرفا ...

مع وافر شكرى واعترافى بالجميل



مقـــدمة ٠٠٠

على مدى سنوات طوال من الدراسة لم أسمع عن الأدب فى العصر المملوكى الا سماعا لا يشفى الغليل وقرأت فى الكتب التى تتناول تاريخ آداب اللغة العربية بالدراسة فوجدت المؤرخين يقسمون حياة الأدب الى فترات أسموها عصورا أدبية تسهيلا للدراسة والدارسين وربطا بين النتاج الأدبى والظروف البيئية التى ساعدت على نشأته أو تطـــوره أو أثرت فى حالات جودته أو ردائته ووجدتهم فى هذا التقسيم يهملون هذا العصر الذى استغرق حكمه قرابه الثلاثمائة عام والذى كان له آثار واضحة فى حياة الفكر والأدب ظل أكثرها خالدا الى يومنا ينير السبيل أمام العلماء والمتعلمين فى مجالات شتى ٠

وتحيرت فى سبب هذا الاهمال زمنا الى أن عرفت أن للمستشرقين يدا فى تقسيم حياة الأدب الى عصور زمنية ٠

وهم وان كانوا قد أسدوا معروفا بمحاولتهم تلك فهم فى الغـــالب لم يكونوا أمناء فى تقسيمهم فأهملوا فترة طويلة وهامة كالعصر المملوكى واذا عرفنا أن هذا العصر يعد من أهم العصور الاسلامية التى انتصر فيها المسلمون على الصليبيين والفرنجة فهو صفحة مشرقة فى جبين الاســـلام والمسلمين وصفحة حالكة الظلمة فى جبين الشرك والمشركين ٠ اذا عرفنا ذلك تنبهنا الى السبب الرئيسى الذى جعل المستشرقين يسقطون هذه الفتـــرة من حسبانهم ٠

ثم جاء بعد ذلك من حاول أن يدرس أدب هذا العصر فوصفه بالظلام وعدم وضوح الرؤية أو حكم عليه حكما عاما موازنا بينه وبين الأدب فى العصور المتقدمة ولم تكن هذه الموازنة لصالحه ذلك أن الانسان يميـــل بفطرته الى الموروث لا سيما اذا كان هذا الموروث قويا ناضجا ومن هنا أوقعت هذه الموازنة بين الآداب المتقدمة والمتأخرة ظلما كبيرا على أدب

العصور المتأخرة أدى فى النهاية الى الحكم العام على أدب هذه الفتـرة بالضعف.

وأنا لا أدعى القوة والازدهار لهذا الأدب فى كل الجوانب كما لا أوافق من يسمه بالضعف والانحـــدار فلكل أدب جوانب مشرقه وأخرى مظلمة ولكى نكون منصفين علينا أن نضع الأدب فى بيئته وزمانه ونتعـــرف على ظروفه وملابساته حتى نتمكن فى النهاية من الحكم السليم ، وحينئذ سنرى أن الأدب فى هذا العصر لم يخمد وذلك لاستمرار بواعثه . وهناك علامات واضحة تؤيد هذا الرأى وتكشف عن العوامل التى صبغت الأدب فى هــذا العصر بصبغته المميزة منها :

ـــ كثرة عدد الشـــعراء والكتاب كثرة مفـــرطة بحيث أصبح احصاؤهم أمرا بعيد المنال فقد حشدت أســـماؤهم فى كتب التراجم وكتب التواريخ وكتب المختارات وغير ذلك .

ـ تنوع فنون الأدب شعرية ونثرية وتعدد موضوعاتها وأغراضـــها ووجود أغراض وموضوعات جديدة لم تعرف قبل هذا العصر أو ظهـرت بصورة غير كاملة أو غير واضحة واتسعت مناحيها لوجود بواعثها فى هذا العصر .

ـــ كان الأديب فى هذا العصر غير متفرغ لحرفة الأدب فهو محدث أو فقيه أو قاض أو كحال أو جزار وقد أدى احتراف هؤلاء لصناعة الأدب الى تعدد مذاهبه وتفاوته بين الرصانة والقوة والسهولة والركة والضعف والعمق والسطحية .

ـــ والشعر أصبح تعبيرا عن ذات النفس وقل نظمه من أجـــل العطاء والنفوس ليست كلها على مستوى واحد من الثقافة أو الذوق أو الموهبة .

ومع كثرة عدد الشعراء فلم يصبح للشعر نفس المكانة التى تمتع بهـا فى العصور المتقدمة ولم يكن له نفس المكانة فى بلاط الحكام والسبب يرجع الى المجتمع وجنسية الحكام عجمتهم وعدم فهمهم له أو تشجيعهم للرصين منه ثم عدم تقديرهم للشعراء وأدى هذا الى هجر الشعر لبلاط الملوك واتجـاهه الى الشعب وكان لهذا أثر فى سهولة اللغة وقربها وشيوع مدرسة المعانى ٠

— واذا عرفنا أن هذا العصر كان عصر عناية بالعمارة والفنون الجميلة فطنا الى احد الأسباب الهامة التى وجهت أدباء هذا العصر الى العناية بالزينة والمبالغة فى الترصيع ٠

— وعلى الرغم من كثرة عدد الشعراء فان النثر حل محل الشعر فى المكانة وأصبح الكاتب هو رجل العصر وقد لاحظنا أنه أتقن الصناعتين فى الغالب وان تفوق فى احداهن أكثر من نبوغه فى الأخرى ٠

— ولأن حرفته الأساسية كانت القضاء أو الفقه أو النحو ٠٠ الخ٠ فقـد ضـمن الأدباء شـعراء وكتاب مصطلحات العـلوم المختلفة فى انشائهم

كما أن تأخر العصر وكثرة كتب التراث التى حواها وما حدث فى العصور المتأخرة من حروبودمار وتخريب للكتبوالمكتبات وضياع للكثير من الآثار القيمة والرغبة فى حفظ البقية الباقية من كتب التراث ٠ أدى الى اتساع التاليف وتميزه بالشمول وغلبة النزعة الموسوعية عليه ٠

ولاتساع مجالات الأدب فى هذا العصر رأيت أن أقصر بحثى على دراسة بعض صور من أدبه علما بأنه لم يكن هناك حدود فاصلة بين الاقاليم المختلفة الا ما كان من فروق طبيعية بين البيئات والأجناس وانعكاس ذلك فى الأدب من مثل خفة ظل المصريين وشعبيتهم وميلهم الى سهولة الألفاظ وتفضيل أكثرهم

للمعنى على اللفظ وولوعهم بالتورية وقوة أساليب أهل الشام وميلهم الى الفصيح من القول وولوعهم بالجناس ٠٠ الخ ٠

وقد راعيت فى اختبارى لهذه الصور ارتباطها بشعور الشعب وذاتيتها وتعبيرها عن معاناته وعواطفه الصادقة وانتمائه الى وطنه وعشيرته وتمثيلها للخصائص الفنية والموضوعية والثقافية لأدب هذه الفترة ٠

وبالله التوفيـــق

المؤلفـة

الفصـــــل الأول

البيئة العامة للأدب فى العصر المملوكى

مدخـــــل :

الأدب لغة العواطف والأحاسيس فهو المعبر عما يعتمل فى النفوس من افراح وأتراح ٠ واذا كان الله سبحانه وتعالى جلت قدرته قد خلق النفوس الموهوبة وأوجدها فى كل العصور والأزمان فان هذه النفوس يحثها عـلى القول دواع ويستثيرها مثيرات ٠٠ وقديما قال ابن قتيبة (وللشعر دواع تحث البطىء وتبعث المتكلف) (١) ٠

والمجتمع بشتى جوانبه يعد عاملا أساسيا فى نمو الآداب وازدهارها ورقيها أو خلاف ذلك ٠ فالحياة السياسية بما فيها من حـــــروب وغزوات وفتوحات وفتن وانتصارات وهزائم وظلم وعدل تعد من مثيرات الأدب تنشطه وتجعله يسرع الى الشاعر الموهوب والكاتب المبدع والحياة الاجتماعية بما فيها من تفاوت طبقى وأجناس متعددة وديانات مختلفة ومعاناة وفقر وحضارة وترف وأعيـاد ونكبات وتدين وتحلل ورشوة وفساد ٠٠ الخ ٠ هى أيضا من مثيرات الأدب ٠ والحالة الفكرية والثقافية بما فيها من عناية بالتعليم وتشجيع للعلماء وظهور مذاهب واتجاهات وتيارات فكرية متنوعة لها أثر كبير فى نهوض الحركة الأدبية ٠

والفترة التى نريد دراسة أدبها كانت خصبة بالأحداث السياسية متميزة فى الحياة الاجتماعية معنية بالفكر والثقافة والأدب ، لذا كثر فيها النظـــم والكتابة والتأليف فى شتى مجالات الفكر والأدب ٠

وقد لاحظت فى أكثر البحوث الأدبية تقليدا كاد أن يكون رسميا لتكراره فى كل البحوث الخاصة بالأدب أو تاريخه ٠

---

(١) مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة ٠

فالباحث يقدم بين يدى بحثه بابا أو فصلا كاملا يدرس فيه جوانب المجتمع وهو يفيض ويطنب فى هذا الحديث وكأن العمل لا يصلح بدون هذه الافاضة وذلك التطويل · وهذا الباب يميل فى الغالب الى السرد التاريخى الموجود غالبا فى كتب التاريخ التى تناولت العصر أو الفترة بالوصف والدرس وهو غالبا ما يكون مكررا لا جديد فيه ولا ابتكار الا فى النادر ·

ومع ذلك فلا يمكن الاستغناء عنه نهائيا فهو يعرف بالعصر وملابساته وظروفه المختلفة ويعلل الظواهر والأذواق التى تناولها الأدباء فى كتاباتهم · ثم ان القيمة الجمالية للأدب لن تتضح الا فى اطار العصر الذى وجدت فيه··

ومن أجل هذا سأعنى بالوصف العام لصورة المجتمع فى هذا العصر وسأركز على الأحداث البارزة التى كان لها تأثير فى الحركة الأدبية وسأحاول قدر المستطاع الا أطيل أو أمل السامع بحديث مكرر عن تلك الجـــوانب كما أننى سأمزج بين تلك الأحداث وما قيل فيها من أدب ·

وأول ما نبدأ به هو **ميلاد الدولة المملوكية** موضوع البحث : قامت دولة المماليك على ذلك العنصر الذى أطلق عليه هذا الاسم وامتدت قرابة ثلاثمائة عام ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ · والمماليك فى اللغة (٢) العبيد والمفرد مملوك وهو العبد الذى ملك ولم يملك أبواه · والمملوك اما أن يكون من سبى فى الحرب وهو أن يغلب عليه فيستعبد وهو حر ، واما أن يكون عبدا قنا ويقال له القن المشترى ·

والمماليك فى هذه الدولة كانوا من الرقيق المشترى بالمال واعتمد عليهم حكام الشرق الاسلامى لا سيما فى مصر والشام فى صراعهم ضد بعضـــهم البعض فى خضم الفوضى السياسية التى نشبت مخالبها فى هذه الأنحــــاء عقب وفاة صلاح الدين الأيوبى ·

---

(٢) لسان العرب ٦ : ط دار المعارف ·

والواقع أن الدولة العباسية هى التى وضعت الأساس الأول للاستعانة بالعناصر الأجنبية فى ادارة الدولة • ذلك أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس أولا ثم استعانت منذ المعتصم والمتوكل بالترك ثانيا • وأما تاريخ الاستعانة بالمماليك فى الديار المصرية فيرجع الى الدولة الطولونية ٢٥٤ ـ ٢٩٢ ، حين اشترى أحمد بن طولون مماليكه من الديلم واستعان الفاطميون بالمغاربة والأتراك فى السودان (٣) •

وكان الحكام يشترون المماليك صغارا فى سن الطفولة وينشئونهم تنشئة عسكرية وسياسية خاصة ليكونوا عدتهم فى الصراع المرتقب (٤) •

ولما تزايد عددهم فى الجيوش تزايد معه دورهم فى الحياة السياسية فى مصر والشام فى أخريات القرن السادس الهجرى •

ويعد السلطان نجم الدين أيوب من أهم المسئولين عن ازدياد نفوذ المماليك على هذا النحو (٥) فقد اشترى عددا كبيرا من المماليك من عناصر مختلفة من الأتراك والمغول والصقالبة والأسبان والألمان والجراكسة ودربهم ليكونوا غالبية جيشه وفى ذلك قال بعض الشعراء :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من
ترك بدولته يا شر مجلوب
قد أخذ الله أيوبا بفعلته
فالناس كلهم فى ضر أيوب (٦)

---

(٣) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الايوبى والمملوكى ٤٠ ، ٤١ د• عبد اللطيف حمزة •

(٤) دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى (التمهيد)

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك ٣٦٦/١ المقريزى •

(٦) حسن المحاضرة ٤٥/٢ السيوطى •

وكان العدوان الصليبى على مصر بقيادة لويس التـــاسع ملك فرنسا فرصة لابراز أهمية فرسان المماليك فى الدفاع عن العالم الاسلامى ذلك أن الخطة التى وضعها بيبرس البندقدارى ونفذها فرسان المماليك فى شـوارع مصر أدت الى هزيمة جيش الصليبيين وأسر لويس التاسع (٧) ٠

وفى خضـــم الصراع ضد الصليبيين توفى السلطان الأيوبى نجم الدين أيوب وقامت زوجته شجرة الدر بشئون الحرب والحكم بمساعدة كبـــار أمراء المماليك لغياب توران شاه ابن السلطان المتوفى فلما جاء تولى الحكم واصطدم بشجرة الدر من ناحية وبقوة المماليك من ناحية أخرى ٠ وانتهى هذا الصراع بمقتله على أيدى المماليك ٠ ويذكر المقريزى أن توران شاه مات جريحا حريقا غريقا بعد موقعة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ (٨) ٠

وبعد ذلك تولت العرش شجرة الدر وهى آخر سلاطين الأيوبيين كمـــا عدها بعض المؤرخين أول سلاطين المماليك وأرجح الرأى الأول ٠ ذلك أنهـا وان كانت من المماليك فهى أيضا زوجة السلطان الأيوبى نجم الدين ولمـا تولت السلطنة خطب لها على المنابر فكان الخطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة (واحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين وعصمة الدنيا والدين أم خليل صاحبة السلطان الملك الصالح) (٩) ٠ وكانت تعلم المناشير وتكتب والدة الخليل ونقش اسمها على الدينار والدرهم ولم يل مصر فى الاسلام امرأة قبلهـا (١٠) ٠

وتمكنت أن تحكم فترة ليست بالطويلة حوالى ثلاثة أشهر قامت عليها المعارضة واشتدت من قبل الخلافة العباسية التى كانت فى أواخر أيامهـا

---

(٧) حملة لويس التاسع على مصر محمد مصطفى زيادة ١٤٥ - ٢٠١ بالتفصيل٠
(٨) السلوك ٣٣٩/١ ٠
(٩) حسن المحاضرة ٤٦/٢ ٠
(١٠) حسن المصدر السابق والصفحة ٠

ولم يتبق لها سوى النفوذ الأدبى والدينى واستنكرت تولى امرأة لعرش مصر ٠

وأرسل الخليفة المستعصم يعاتب أهل مصر فى ذلك ويقول :

ان كان ما بقى عندكم رجل تولونه فقولوا لنا نرسل اليكم رجلا (١١) وتزوجت شجرة الدر عز الدين أيبك التركمانى وتنازلت له عن السلطان وبذا انتقل الحكم من الأسرة الأيوبية الى المماليك ٠ وقد أبلى المماليك فى هذه الفترة بلاء حسنا وأظهروا بطولات فائقة فى المنصورة وفارسكور وعين جالوت ٠ ومع ذلك لم ينظر اليهم الا على كونهم عبيدا لا يحق لهم الجلوس على عرش البلاد ولذا حاول السلطان أيبك أن يعلن تبعيته للخلافة العباسية لتكون هذه التبعية سندا له فى صراعه ضد ملوك أيوب الذين لم يرضوا بالأمر الواقع ٠ ثم كان احياء الخلافة العباسية بالقاهرة بعد سقوط بغداد بمثابة الحل السعيد الذى وجده السلطان بيبرس رابع سلاطين المماليك٠ فبويع الأمير أحمد بن الخليفة الناصر لدين الله المستضىء بالله خليفة فى القاهرة ٠ وأصدر الخليفة تقليدا للسلطان بيبرس بحكم البلاد الاسلامية وما ينضاف اليها وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار (١٢) ٠ وذكر السيوطى أن بيبرس حصل على لقب قسيم أمير المؤمنين الذى لم يحصل عليه أحد قبله (١٣) ٠

ومن المعروف أن الخلفاء العباسيين فى القاهرة لم يكن لهم من الخلافة سوى اسمها (١٤) ٠ واستمر هذا العهد العباسى الجديد قائما حتى دخل السلطان سليم الأول العثمانى مصر سنة ٩٢٣ هـ واتسع ملك المماليك فشمل

---

(١١) ن٠ المصدر السابق والصفحة ٠

(١٢) السلوك ١/٤٥٣ - ٤٥٧ ، حسن المحاضرة ٢/٥٧ ، ٥٨ ٠

(١٣) حسن المحاضرة ٢/٧٧ ٠

(١٤) ن٠ السابق ٠

مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن وبلاد النوبة والسودان وقبرص وغير ذلك .

وتناول الحكم فى هذه الفترة دولتين الأولى كانت دولة المماليك البحرية ٦٤٨ — ٧٨٤ هـ) وكانوا من مماليك الصالح نجم الدين أيوب وسكنوا جزيرة الروضة فى النيل (١٥) . وكان أول حاكم منهم عز الدين أيبك التركمانى الصالحى ٦٤٨ هـ الذى لقب بالمعز وقتل بعد فترة وجيزة من حكمه ثم تولى ابنه المظفر ثم خلع لصغر سنة وجاء بعده قطز الذى استطاع تحطيم جيش التتار فى الشام والانتصار عليهم فى موقعة عين جالوت (١٦). ثم قتله بيبرس وتولى سلطنة مصر وتلقب بالملك الظاهر سنة ٦٥٨ هـ . وهو من أشهر سلاطين المماليك وأقواهم وأبعدهم أثرا فى الحياة والأدب . وظل حكمه سبعة عشر عاما قام فى أثنائها بكثير من الحروب والحملات ضد التتار والصليبيين فى الشام والعراق وأرمينيا وجنوب النوبة والسودان وكان من نتائجها كسر حدة الموجات التترية وتصفية الجيوش الصليبية وتأمين الحدود الجنوبية لمصر واستعادة النفوذ على النوبة من أيدى مملكة النوبة المسيحية وتقوية الجيش المصرى للنهوض بتلك المهام العظام ، كما أنه أبطل المكوث وجميع المنكرات وجهز الحج بعد انقطاعه اثنتى عشرة سنة بسبب فتنة التتار وقتل الخليفة وله فتوحات وعمارات مشهورة ومآثر حميدة منها رد الخلافة لبنى العباس (١٧) وعلى هذا يعد الملك الظاهر بيبرس خيار ملوك الترك على الاطلاق وقد قال القائل فى هذا المعنى :

تاريخـــه فى المـــلوك أضـــحى
يحيـــر العــــرب والأعــــاجم
فاكتبــــه بالتبـــر لا بحبــــر
وأعجب لأخبــــاره العظــــائم

(١٥) حسن المحاضرة ، فى معاملة سلاطين المماليك للخلفاء العباسيين بالقاهرة.
(١٦) عجائب الاثار فى التراجم والاخبار الجبرتى ١/١٥ .
(١٧) ن. السابق ١/١٧ .

اختـــــاره الله من امـــــام
لقمــــع اهــل الفســاد صـارم
قــد اظهــر العــدل فى الرعايا
وابطــل الجــور والمظـــالم
فالله يرحمــــه فى كـــل يـــوم
ما دام هــــذا الوجـود قائم (١٨) .

هذا وقد نشأ حوله أدب غزير شعر ونثر كما عنى الأدب الشعبى عناية كبيرة بالاشادة ببطولاته وانتصاراته الحربية ونسج الكثير من القصص والملاحم حول هذه البطولات ٠

وأعقب بيبرس أبناءه الصغار الذين لم يعمروا فى السلطنة طويلا ٠ وسرعان ما انتقلت هذه السلطنة من بيته الى المنصور قلاوون مؤسس الأسرة القلاوونية المشهورة فى دولة المماليك البحرية ٠ وكان لهذه الأسرة آثار خالدة فى التاريخ المصرى والاسلامي والعربى عامة ٠ ومنهم الأشرف خليل والناصر محمد والناصر حسن ٠

وتميزت الدولة الأولى بطول مدة حكم كثير من سلاطينها مما وفر لها الاستقرار النسبى وبأن الحكم فيها كان وراثيا فى غالب الأحوال وبلغ عـدد سلاطينها خمسة وعشرين حاكما ٠

أما الدولة الثانية فكانت من الجراكسة وأطلق عليها اسـم المماليك البرجية وسكنوا أبراج القلعة عند سفح جبل المقطم وكان ابتداء دولتهـم سنة ٧٨٤ هـ وسقوطها سنة ٩٢٣ هـ وعلى هذا كانت مدة حكمهم تسعة وثلاثين ومائة عاما انقضت بدخول سليم الأول العثمانى مصر ٠ وساروا على نفس سياسة الدولة الأولى من حيث الاعتماد على مبدأ القوة فلم يصل الى الحكم

---

(١٨) بدائع الزهور لابن اياس ١/٣٤٢ ٠

الا القوى الذى له شهرة حربية • ولم يكن الملك فيهم وراثيا قط كما كان فى بيت قلاوون بل كان استيلاء كل ملك من ملوكهم على الحكم متوقفا على شجاعته ومقدرته على استجلاب مودة زملائه من الأمــراء • وكان أول سلاطينهم هو السلطان برقوق وظل الملك فيهم الى طومان باى •

وهناك فرق واضح بين المجتمع فى العهد الأول المملوكى والعهد الثـانى فالدولة الأولى كانت متينة تربع على عرشها سلاطين أقوياء اســتطاعوا أن يحكموا قيدهم على أمرائهم ومماليكهم وأن يرسوا دعائم الأمن والاستقرار الى حد كبيــر • ولذا كانت هــذه الدولة قادرة فى الداخــل مهابة فى الخارج (١٩) •

وأما الدولة الثانية فأبرز مظاهرها هو كثرة الاضطرابات الداخليـة والخارجية والفتن والدسائس والانقلابات السياسية وحوادث القتل • وكذلك منافسة سلاطين العثمانيين لحكام مصر الذين ما لبثوا أن انتصروا عليهـم وقبضوا على آخر ملوكهم طومان باى وصلبوه على باب زويله سنة ٩٢٣ هـ وبذا تكون الدولة الأخيرة لم تتمتع بقوة الأولى وكان عدد سلاطينها ثلاثة وعشرين سلطانا لم يمكثوا فى الحكم سوى فترات وجيزة •

الســياسة :

والدارس لنظام السياسة والحكم يرى أن دولة المماليك قامت عـلى ركنين أساسيين أولهما القوة العسكرية للسلطان فلا مكان للحاكم الضعيف والقوة هى سر بقاء الحكام على عروشهم فاذا ظهر من يفوق الحاكم قـوة تغلب عليه وأخذ مكانه • وأما الركن الثانى الذى حرصوا عليه فهو الدين فعنوا به وبمقدساته وأظهروا التشدد فى تطبيق حدود الشرع وبالغــوا فى ذلك حتى خرجوا عما أمر الله به • ومن ذلك ما ذكر من أن السلطان بيبرس

---

(١٩) دراساتنا فى تاريخ مصر : ١٥ •

كان قد منع الحشيش والخمر وجعل الحد على ذلك السيف والمعروف فى الشرع هو الجلد وأنه أمسك الشاعر ابن الكازرونى وهو سكران فصلبه فى حلقة جره خمر فقال الحكيم شمس الدين بن دانيال :

لقــد كان حد السكر من قبل صلبه
خفيف الأذى اذ كان فى شرعنا جلدا
فلما بدا المصــلوب قلت لصاحبى
ألا تب فان الحد قد جاوز الحدا (٢٠)

وقال ناصر الدين بن النقيب :

منــع الظــاهر الحشيش مع الخمــ
ــر فولى ابليس من مصر يسعى
قــال مــالى وللمقــام بأرض
لم أمتع فيها بمــاء ومرعى (٢١)

ومن تشددهم فى الدين قتل المخالفين لأهل السنة والمجاهرين بالآراء المخالفة للجماعة أو التى يراها رجال الدين · ومنه أيضا رصد الأوقاف وبذل الأموال فى الخير والبر · وهذا يعد من حسنات العصر وذكر ابن اياس كثيرا من أعمال الخير التى قام بها السلطان قلاوون والذى يلاحظ من هذه الروايات أن عمل الخير كان دائما تكفيرا عن ذنب اقترفه السلطان ·

ومن ذلك ما ذكره ابن اياس فى سبب انشاء المستشفى المنصورى أن السلطان انصور قلاوون كان قد أطلق مماليكه فى العوام وأمر بقتلهم فظلوا يقتلون نحو ثلاثة أيام وذلك لتوهمه مخالفتهم ثم ندم وتاب وتقرب الى الله بانشاء هذا المستشفى ·

---

(٢٠) بدائع الزهور ٣٢٦/١ ط بولاق ·
(٢١) فوات الوفيات ٢ ·

ومن مظاهر تدينهم عنايتهم ببناء المساجد ومشاورتهم رجـال الدين فى أمور الرعية ٠ وسواء أكانوا متدينين حقا أم يتظاهرون بالدين فالحق أنهم أسدوا خدمات جليلة للاسلام على الرغم من عدم فهمهم له فهما صحيحا٠ وبسبب جهلهم احتقرهم رجال الدين ونفروا منهم يقول القاضى تقى الدين بن دقيق العيـد فيهم:

أهـل المناصب فى الدنيا ورفعتها
أهـل الفضـائل مزدولون بينهـم
قـد أنزلونا لأنا غيـر جنسـهم
منـازل الوحش فى الاهـمال عندهم
فمـا لهـم فى توقى ضدرنا نظر
وما لهـم من ترقى قـدرنا همـم
فليتنـا لو قـدرنا ان نعـرفهم
مقـدارهم عنـدنا أو دروه هـم
لهـم مريحان من جهل وفرط غنى
وعندنا المتعبان العلم والعـدم (٢٢)

واذا كان للمماليك محاسن بدت فى رد الهجـوم المغولى والتترى الذى تعرض له عالم الاسلام من سمرقند الى حلب فى موقعة عين جالوت علـى أرض فلسطين بقيادة قطز بعد سقوط بغداد بعامين ٠ وكانت هذه أول هزيمة تواجه القوات المغولية والتترية (٢٣) ٠ كما بدت فى انتصاراتهم فى الحروب الصليبية وفى محافظتهم على استقلال البلاد وأمنها ٠ فهناك مساوىء كثيرة لهم عانى منها الشعب ولذا كثرت الثورات والفتن الداخلية فى عهدهم وانتشر الظلم والتفرقة بين الطبقات والأجناس وأهل الديانات الى جانب الجشـع والاستيلاء على خيرات الشعب وتركه شقيا بائسا ٠ ومع كل هذا تحمـل

---

(٢٢) طبقات الشافعية ٢١٥/٩ ط عيسى الحلبى ، الطالع السعيد ٣٣٢ ٠
(٢٣) الاسلام وحركة التاريخ ، أنور الجندى ٢٦٤ ٠

الشعب هذا الظلم وتقبله فى أغلب الأحيان لأن المماليك كانوا يمثلون بالنسبة له القوة المخلصة من الصليبيين والتتار وكانوا بذا يعدون حماة الاسلام والعربية . وقد صور الأدب وجهة نظر الشعب حين تغنى بانتصارات المماليك فى المعارك الاسلامية الكبرى ووصف شجاعتهم وقوتهم ودفاعهم عن الاسلام وانتصاراتهم على المشركين . قال شهاب الدين محمود :

من الترك أما فى المغانى فانهم شموس
وأما فى الوغى فضراغم (٢٤)

وقال أبو شامة بعد انتصار لمسلمين فى عين جالوت مادحا قطز ومشيدا بجهاده وبطولته :

غلب التتار على البلاد فجاءهم
من مصر تركى يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم
ولكل شيء آفة من جنسه (٢٥)

وقال بعض شعراء دمشق بعد انتصار قطز على التتار !

هلك الكفر فى الشام جميعا
واستجد الاسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الملك الأر
وع سيف الاسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم
فاعتززنا بسمره وبيضه

---

(٢٤) النجوم الزاهرة ١٧٢/٧ .

(٢٥) ذيل الروضتين ص ٢٠٨ ، بدائع الزهور ٣/١/٧ .

أوجب الله شـــكر ذلك علينـــا
دائما مثـــل واجبات فروضـــه (٢٦)

ولما انتصر ركن الدين بيبرس على التتار عند شاطىء الفرات وأبدى شجاعة فائقة وأباد عددا كبيرا منهم وأسر زهاء مائتين كان جديرا باعجاب الشعب ومدائح الشعراء فممن أشاد ببطولته شهاب الدين محمود كـاتب الانشاء ، أنشد قصيدة طويلة منها :

سـر حيث شئت ، لك المهيمن جـــار
وأحـــكم ، فطـــوع مرادك الأقـدار
لم يبـــق للدين الـــذى أظهـــرته
يا ركنـــه عنــــد الأعادى ثـــار
لما تراقصت الرءوس وحـــــركت
من مطـــــربات قســـيك الأوتار
خضعت الفــرات بســابح أقصى منى
هوج الصـــبا من نعـــله آثـــار
حملتك أمـــواج الفـــرات ، ومن رأى
بحـــرا ســـواك تقـــله الأنهـار
وتقطعت مزقا ولـــم يك طـــودها
اذ ذاك الا جيشـــك الجــــرار
رشت دماؤهم الصـــعيد فلم يطـــر
منهـم على الجيش السـعيد غبـــار
شـــكرت مســـاعيك المعـاقل والورى
والتـــرب والآســـاد والأطيـــار
هـذى منعت وهـــؤلاء حميتهـــــم
وسقيت تلك ، وعـــم ذا الأيسار

(٢٦) المختصر فى تاريخ البشر ٢٠٦/٣ لابى الفدا ، حسن المحاضرة ٤٨/٢ .

فلأملأن الدهر فيك مدائحا
تبقى ، بقيت وتذهب الأعصار (٢٧)

وكذلك كثر مديح الشعراء للقادة والأبطال الأتراك فى معارك الحروب الصليبية فقد أرجعوا الحق المسلوب الى أهله وردوا على الدين كرامته وعزته من مثل قصيدة شهاب الدين محمود بعد فتح عكا فى مدح الملك الأشرف صلاح الدين خليل :

الحمد لله زالت دولة الصلب
وعز بالترك دين المصطفى العربى (٢٨)

ومنها :

هذا الذى كانت الآمال لو طلبت
رؤياه فى المنام لاستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها
فى البحر للشرك عند البر من أرب
عقيلة ذهبت أيدى الخطوب بها
دهرا وشدت عليها كف مغتصب
لم يبق من بعدها للكفر اذ خربت
فى البر والبحر ما ينجى سوى الهرب
كم رامها ورماها قبله ملك
جم الجيوش لم يظفر ولم يصب
لم ترض همته الا الذى قعدت
للعجز عنه ملوك العجم والعرب

---

(٢٧) النجوم الزاهرة ٧ : ١٥٩ ، ن
(٢٨) البداية والنهاية جـ ١٣ ، الادب العربى من الانحدار الى الازدهار ١٦٢/١٦٣.

ليث أبى أن يرد الوجـه عن فـرق
يدعـون رب الـورى سـبحانه بأب
لم يلهـه ملكـه بل فى أوائلـه
نال الذى لم ينله الناس فى الحقب (٢٩)

فالشعب نظر الى مساوىء المماليك ومزاياهم فرجحت كفة المزايا ومن هنا كثرت المدائح والاشادة ببطولاتهم والاعتراف بما أسدوه للاسلام ٠

وهكذا كانت الأحداث السياسية والحروب التى مرت بها البلاد سببا فى بعث أحاسيس ومواهب ذوى المواهب فأنشـأوا وأبدعوا وعبروا عن مشاركتهم وتجاوبهم مع الأحداث الدائرة فى عصرهم ٠

ولكثرة الأحداث وتنوعها واسهام الشعراء فيها عدت السياسة من أهم العوامل المؤثرة فى أدب هذا العصر ٠ وقد طبعت الأدب بطوابعها المميزة٠ فغلب عليه التغنى بالقوة والاشادة بالبطولات كما غلبت عليه الروح الدينية ٠

الحيـاة الاجتماعية :

ورثت مصر الزعامتين السياسية والدينية بعد سقوط بغداد وأصبحت قلب الاسلام النابض واليها هاجر أعداد كبيرة من البلدان الأخرى سواء فى ذلك بلدان الشرق أو المغرب الاسلامى ٠ وتعددت الأجنـاس والطبقات والديانات والعادات والتقاليد والأخلاق فى هذا المجتمع ٠ والمقريزى يقسم الناس فى هذا الزمان الى سبعة أقسام مبينا حال كل قسم وما يتصف بـه يقول (٣٠) (اعلم حرسك الله بعينه التى لا تنام وركنه الذى لا يرام أن الناس باقليم مصر فى الجملة على سبعة أقسام ٠ القسم الأول أهل الدولة والقسم

---

(٢٩) المصدر السابق ٠

(٣٠) المقريزى اغاثة الامة بكشف الغمة : ٧٣ ٠

الثانى أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويلحق بهم أصحاب المعايش وهـــم السوقة والقسم الرابع أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث من سكان القرى والريف والقسم الخامس الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ومن يلحق بهم من الشــــهود (٣١) والكثير من أجناد الحلقة (٣٢) ونحوهم والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون معهم ، كان المجتمع المملوكى اقطاعيا يقوم على الطبقات وكانت طبقة المماليك هى الطبقة المميزة وكانت تعيش بمعزل عن باقى الطبقات وكثرت الأموال بأيديهم وذاقوا نعيم الحياة فى قصور مزخرفة سقوفها وحيطانها بالذهب يلبسون أفخر الثياب ويأكلون أشهى الطعام كما تفننوا فى ألوان اللهو والمتعة وقتل الوقت · وكانوا محببين للمال نهمين فى جمعه بكل سبيل فزادوا الضرائب وقبلوا الرشاوى (٣٣) ونهبوا المحاصيل وتعاونوا مع اللصوص لسرقة أموال الناس (٣٤) · أما الأقسام الأخرى من الناس فكانوا مهددين فى أى لحظة بالاغارة عليهم وسلب ممتلكاتهم وكان الطابع العام لمعاملات المماليك مع الرعية هو القسوة ظهر ذلك فى شدة احتقارهم لهم وفى اشاعة السخرة فيهم فقد سخروهم بلا أجـر فى الأعمال الحكومية كما سخروهم فى أعمال البناء والعمارة وعمل الجسور والسدود وشق الترع وما اليها (٣٥) ، كما ظهرت قسوتهم فى معاملتهم لمنافسيهم ولكل خارج على حكمهم أو خارج عن الدين · وتفنن المماليك فى أساليب التآمر والقتل والتعذيب واستخدموا السم فى التخلص من المنافسين وعرف عندهم من أنواع التعذيب التسمير والعصر وفقىء الأعين بالأسـياخ

---

(٣١) الشهود جمع شاهد وهو فى مصطلح الدولة المملوكية الموظف — صبح الاعشى ٥/٤٦٦ ·

(٣٢) أظن أنهم الصوفية ·

(٣٣) الصواب هو الرشا وان غلبت الرشاوى وهى خطأ ·

(٣٤) النجوم الزاهرة ١١/٢٦٢ ، البداية والنهاية ١٤/٢٦٩ ·

(٣٥) عصر سلاطين المماليك جـ ١ القسم الثانى ٣٢٣ ، ٢٠٧ ·

الى غير ذلك من الأساليب غير الانسانية فى تعذيب البشر · ويصف البوصيرى بعض ألوان العقاب التى كان يتعرض لها الخارجون على المماليك فيقـــول فى مدحه لا يدمر الذى تولى ولاية القاهرة سنة ٦٧٨ هـ ونكل بالعـــربان فى احـــدى الوقائع : —

زجـــرتهم بعقـــوبات منـــــوعة
وفى العقوبات للطاغين مزدجـــــر
كأنهـــــم أقســـموا بالله أنهـــم
لا يتركـــون الأذى الا اذا قهـــروا
فمعشر ركبـــــوا الأوتاد فانقطعت
أمعاؤهم فتمنـــوا أنهـــم نحـــروا
ومعشر قطعت أوصـــالهم قطعـــا
فمـــا يلفقها خيـــط ولا ابـــر
ومعشـــر بالطبـــا طارت رؤوســـهم
عن الجســـوم فقلنـــا انهـــا أكر
ومعشر ســـمروا فوق الجيـاد وقـد
شـــدت جسومهم الألواح والدسـر
وآخـــرون فدوا بالمـــال أنفســـهم
وقالت النـــاس خير من عمى عور
موتات ســـوء تلقـــوها بما صنعوا
ومن وراء تلقيهـــم لهـــا شعر (٣٦)

وعاش فى مصر الى جانب المسلمين أقليات من الديانتين النصرانيـة واليهودية وتعددت طوائفهما وأما سياسة المماليك تجاههم فقد ظهرت فى أمرين **الأول** : تقرير التزامهم بالعدالة تجاههم عملا بتعاليم الاسلام · **والثانى:** أنهم مارسوا عليهم ضغوطا ارضاء لأهل العمامة · وكانت ثروات اليهـود

(٣٦) ديوان البوصيرى ٩١ تحقيق محمد سيد كيلانى ط الحلبى ١٩٥٥ ·

والنصارى تسيل لعاب السلاطين لا سيما فى أوقات الشدة فيبادرون الى مصادرتهم ٠ وكانت هذه المصادرة من سمات السياسة الداخلية المملوكية ولم تكن انطلاقا من عواطف دينية (٣٧) ٠ أما علاقات الأقليات مع المسلمين فكان يشوبها شائبة من الشك وكان للحروب الصليبية أثر فى وجود هذا الشك وقد زادت الحروب المتأخرة من هذه الشكوك (٣٨) ٠ وعكس لنا الأدب العربى فى هذه الفترة تلك الشكوك كما أبان عن كراهية الناس لتلك الأقليات وضيقهم من اتساع نفوذهم فى جهاز الدولة الادارى وتحكمهم فى مصائر الناس وللبوصيرى قصائد يشكو فيها من تلك الأقليات ومعاملتهم وسوء ضمائرهم وفساد ادارتهم ونهبهم لأموال الدولة وأموال الرعية وهو فى احدى قصائده يحث السلطان على جهادهم زاعما أن جهادهم خير من جهاد التتار والصليبيين يقول :

عزوا وأكرمهم قوم لحاجتهم
ما نالهم بعد ذاك العز من هون
وطاعنوا الناس بأقلام واستلبوا
منهم بها كل معلوم ومكنون
ومن مواش وأطيار وآنية
ومن زروع ومكيول وموزون
هم اللصوص من أقلامهم عتل
بها يسفون أموال السلاطين
سبوا الرعية لم يبقوا على أحد
ولا أمانة للقبط الملاعين
لا تأمنن على الأموال سارقها
ولا تقرب عدو الله والدين

---

(٣٧) أهل الذمة ٦٣ – ١٠١ د٠ قاسم عبده قاسم ٠

(٣٨) تاريخ مصر الاجتماعى : ٩٠ ٠

وخـل غزو هولاكو والفرنس معـا
وانهض بفرسـانك الغـر الميامين
واغزن عامل أسوان تنـال بـه
جنات عـدن باحسان وتمكين (٣٩)

والحقيقة ان أبناء الأقليات قد احتلوا حقا مكانة هامة فى جهاز الدولة وتكونت منهم فئة من الخبراء فى شئون المال ولا سيما الأقباط · ولم تستطع الدولة الاستغناء عنهم على الرغم من كل المحاولات التى بذلت فى هذا السبيل والحملات التى شنها الفقهاء والقضاة المسلمون (٤) · ومارس أبناء الأقليات جميع الحرف والمهن وتملكوا العقارات · وعلى الرغم من ضيق المسلمين بهم فقد كان بينهم وبين المسلمين فى معظم الأحيان علاقات ودية ومعاملات فى البيع والشراء كما تمتعوا بحرياتهم الاجتماعية وشاركوا المسلمين فى أحزانهم وأفراحهم ولأن سياسة المماليك قامت على التمييز بين الطبقات نراهم ميزوا بين الطوائف الدينية المختلفة فجعلوا للاشراف سمة أو اشارة خضراء فى العمائم تميزا لهم عن الناس ، كما جعلوا عمائم النصارى واليهـود من ألوان خاصة تميزا لها عن عمائم المسلمين البيضاء · وقرر السـلطان قلاوون سنة ٧٠٠ هـ لليهود أن يلبسوا عمائم صفراء وللنصارى أن يلبسوا عمائم زرقاء (٤١) وللسامرية أن يلبسوا عمائم حمراء وتميز نساء أهل كل ملة كذلك بعلامة تظهر (٤٢) · وقال الشـعراء فى ذلك سـاخرين من أسلوب المماليك من ذلك ما قاله الأديب شمس الدين بن محمد بن ابراهيم الدمشـقى :

---

(٣٩) ديوان البوصيرى ٢١٤ - ٢١٧ القصيدة كاملة ·
(٤٠) تاريخ مصر الاجتماعى : ٩٠ ·
(٤١) السلوك حـ ١ القسم الثالث ٩/١ ·
(٤٢) بدائع الزهور ١ - ١٤٣ ، ٢٠١ ·

أطـراف تيجان أتت من سـنـدس
خضر بأعـلام على الأشـراف
والأشرف السـلطان خصصهم بهـا
شرفا ليعـرفهم من الأطراف (٤٣)

وقال العلاء الوداعى سنة ٧٠٠ هـ

لقـد ألزموا الكفـار شاشات ذلة
تزيدهم من لعنـة الله تشـويشا
فقلت لهـم ما ألبسـوكم عمـائما
ولكنهم قد ألبسـوكم براطيشا (٤٤)

كما تحدد زى للقضاة والعلمـاء والوزراء والسـلطان ٠

وفى هذا العهد كثرت الاحتفالات والأعياد فكان مما يحتفل به عيد الفطر وعيد الأضحى كما احتفل بالمولد النبوى وأول السنة الهجرية والنصف من شعبان ، وكان الغرض من هذه الاحتفالات اشباع العاطفة الدينية وتغذيتها وحب الظهور بالنزعة الدينية كما احتفلوا بشهر رمضان ٠ وكان للسلاطين عادات خيرة فى هذا الشهر كاطلاق المسجونين ومساعدة الأغنياء للفقـراء والمحتاجين والعناية بقراءة القرآن وقرآة الحديث فى صحيح البخارى ٠ كما كانوا يستعينون على الأشعار بدخول وقت السحور بأن يؤذن المؤذن فى المسجد بالدق على الطبل والمناداة فى الطرقات (٤٥) ٠ والى جانب أعيـاد المسلمين احتفلوا بأعياد النصارى واليهود وأعياد المصريين القدماء ٠ وكان

---

(٤٣) حسن المحاضرة ٢/٢١١ ٠
(٤٤) ن ٠ م السابق ٢/٢١١ ، بدائع الزهور ١/٤٠٩ ٠
(٤٥) بدائع الزهور ٤/ حوادث رمضان (٩١١ ، ٩١٣ ، ٩٢٨ هـ) ٠

الاحتفال بوفاء النيل أو فيضانه كبيرا لأنه يمثل الخير والرخاء لأهل مصر وكان السلاطين فى بعض السنين يأمرون بقراءة القرآن فى ليلة الاحتفال بجوار المقياس فاذا تم الاحتفال مدت الموائد وخلعت الخلع وأجريت الألعاب المختلفة ٠ وفى يومه يخرج الناس فى سفن نيلية يرتادون بعض خلجان مصر أو يتجهون على جانبيها ويأخذون بأسباب اللهو والتمتع والعبث ٠ ومن العادات المتبعة حينئذ كتابة بشارات الى آفاق الدولة بوفاء النيل المبارك واستحقاق الخراج ويقوم بكتابتها موظفو ديوان الانشاء فيدبجونها بأسلوب أدبى رائع مطول كما ينظم الشعراء فى هذه المناسبة المقطوعات وكذلك الزجالون والعوام ينظمون ويغنون) (٤٦) ٠ ومما يذكر أن النيل اذا زاد ارتفاعه حتى خيف منه على البلاد صدر أمر السلطان الى الأمراء والأعوان للتعاون فى ملافاة ذلك فتقام السدود والحواجز وتقوى الجسور ٠ واذا لم يف النيل فى موعده يخاف الشر والجفاف والغلاء ويصدر السلطان أمره فيخرج القضاة والناس للاستسقاء أو لقراءة القرآن والدعاء وكما يستسقون طلبا للزيادة يستسقون طلبا للهبوط أحيانا اذا طغى النيل وزاد حتى خيف الضرر (٤٧)٠

وكثرت المتنزهات وأماكن اللهو كما شاع الغناء والرقص وعنى الشعراء بوصف المغنين والمغنيات والموسيقيين وأشادوا بالأصوات الجميلة كما ذموا وسخروا من الأصوات القبيحة (٤٨) ٠

وكثرت المدن وكانت كبيرة واسعة كثيفة السكان غاصة بالمنشآت الدينية والاجتماعية مثل المساجد والكنائس والخانات والأضرحة ٠ كما كثرت الأسواق واكتظت بأنواع البضائع وكان لكل مدينة أسواقها الخاصة والى جانب الأسواق غير المتخصصة عرفت الأسواق التخصصات فسوق اللحم

---

(٤٦) عصر سلاطين المماليك ٢٠٧/١ القسم الثانى ٠
(٤٧) نفسه والصفحة ٠
(٤٨) الدرر الكامنة ١٧٣/٤ ٠

وسوق للخضر وسوق للملابس وآخر للوازم السفر (٤٩) ٠ ومن الأسـواق التى عرفت فى ذلك الزمان سوق الكتبيين وقد أنشد المقريزى لبعضهم :

مجالســـة الســـوق مذمـــومة
ومنهـــا مجـــالس قـــد تحتست
فلا تقـــربن غير ســـوق الجيـاد
وســـوق الســـلاح وسوق الكتب
فهـــاتيك آلـة أهـــل الـوغى
وهاتيـك آلـة أهـــل الأدب (٥٠)

والى جانب ذلك عرفت مصر الباعة المتجـــولين ٠ وكثرت المفاسد الأخلاقية مثل شرب الخمر وتعاطى الطبقة الدنيا للحشيش وكان يطلق على هذه الطبقة اسم القلندرية (٥١) ٠ وهم جماعة أشبه بالشـــطار والفقراء وينتمون الى بعض الطرق الصوفية ٠ ويشير اليهم ابن جابر البغدادى فى هذا الزجل فيقول :

لا بـــد أن تظهـــر بين النـــاس
قلنـــدرى محـــلوق الـــرأس
تلبس عـــوض ذا الكتـــان
وحلتـــك من صـوف الخـــرفان
أو دلق أو تصبح عـريان

تغـــدو تدور مـــع أجنـــاس
محلقـــين الـــروس أكيـــاس

---

(٤٩) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ٢ : ٩٣ - ١٠٦ ٠
(٥٠) ن ٠ المصدر السابق ٢ : ١٠٢ ٠
(٥١) ن ٠ السابق ٢/١٢٦ - ١٢٨ ٠

ما يعـــــرفوا الا الخضـــــرة
مثقــــــالها بألفى جـــــــرة
وعنـــــــدهم منهـــا أكيـــــاس
دانق يقـــاوم ســـــبعين كـــاس
من قبـــــل ما تغــــدو مســــطول
تهتـــــم فى أمـــــر المــــأكول
وتطلع السوق بالكشكول (٥٢)

كما شاع فى هذا العصر الشذوذ وألوان العهـر والتنجيـم ·

وكان المماليك السلاطين يتخذون الغلمان الصــــباح للخدمة والمتعة ويجعلونهم سقاة وقد ظهر فى هذا العصر شعر ونثر ومقامات حـول هـــذا الشذوذ حتى أصبح من سمات العصر البارزة ومن أهم مميزات أدبه وحتى وجد رجال عرفوا بالتقى والورع يتحدثون فى مثل هذه الأمور من أمثـــال صلاح الدين الصفدى الذى قصر مصنفه الحسن الصريح فى وصف مائـة مليح على التغزل بالغلمان وكذلك لتقى الدين السبكى وابن الوردى وغيرهم شعر فى الغزل بالغلمان وكأن الأدب لن يروج الا اذا غلب عليه هذا الشذوذ· يقول ابن الوردى معتذرا عن نظمه فى هذا اللون :

استـــغفر الله من شـــعر تقدم لى
فى المرد قصدت به ترويج أشعارى (٥٣)

(٥٢) فوات الوفيات ٢/١١٢ ·
(٥٣) ديوان ابن الوردى ·

ويقول آخـر :

ما المـــرد أكبـــر همى	ولا نهـــــاية عـــلمى
ولســت من قــوم لــوط	حاشـــاى تقـــاى وحـلمى
وانمـــا خـــرج دهـــرى	كـــذا ففتقت شـــعرى (٥٤)

والنتيجة أن هذا التغزل شاع شيوعا كبيرا وافتتح به الشعراء قصائدهم كما أفردوا له المقطوعات وتباينت مناحى القول فيه (٥٥) ٠

ولم تقتصر ظاهرة الشذوذ على الرجال بل تعدى ذلك الى النساء ممـا أغضب أهل الورع والغيورين على الدين والأخلاق يقول سيف الدين المشد مصورا هذه الظاهرة ونتائجهـا ٠

بطـل التناســل فى الــورى	من غيــر شــك وامتــراء
فاذا الرجـــال مع الرجـال	كمـا النســاء مع النســاء
ممـا يـدل على الغناء بـه	وحســبك من غنـاء (٥٦)

وقد تصدى كثير من الكتاب لمحاربة هذا الشذوذ والداعين اليه ومن هؤلاء الكتاب ابن القيم وابن تيمية ٠

والى جانب هذه المفاسد انتشر التطفيف فى الموازين والغش فى البضائع

---

(٥٤) بدائع الزهور ٣/٣٣٤ ٠
(٥٥) المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى ٣٦٢ ٠
(٥٦) الديوان : ١٢ ٠

وارتفعت الأسعار وكثرت السرقات وحوادث تزييف النقود وهروب السجناء وحوادث القتل دون العثور على الجناة!

ومن عوامل الاضطراب فى المجتمع العربان الذين سببوا كثيرا من المتاعب أدت الى اضطراب الأحوال وانعدام الأمن بل أن البدو كانوا يهاجمون المدن أحيانا فى وضح النهار وينهبون الناس ويقتلون البعض أو يطلقــون المساجين ٠ وأدت هذه الحوادث الى كساد حركة الأسواق وتأخر الحــالة الاقتصادية والأمنية كما أن زيادة الضرائب وغلاء الأسعار (٥٧)، وكثــرة الحروب أضرت بالشعب وهذا لا ينفى أن بعض السلاطين اتخذ اجراءات لمواجهة هذه الأزمات ولكنها لم تكن حاسمة بحيث تقضى على سبب العــلة الأساسى (٥٨) وزادت هذه الظواهر فى عهد المماليك البرجية ٠ وعبر الشعب عن سخطه على هذه الحال بصورتين :

احداهما سلمية وتتمثل فى احتجاج رجال القلم ومعارضاتهم لأولى الأمر وكذلك فى احتجاجات العوام وخروجهم فى مظاهرات سلمية للتعبيـر عن شعورهم وربما تعرضوا للسلطان فى مواكبه بشوارع القاهرة ليسمعوه شكايتهم أو يجابهوه بسخطهم ٠

والأخرى بالاشتراك الفعلى فى الفتن القائمة بين المماليك لنهب ما تصل اليه أيديهم انتقاما ممن ظلموهم ٠ وكذلك فى القيام من جانبهم بثورات علنية صريحة لطرد الحكام أو النواب أو قتلهم (٥٩) ٠

---

(٥٧) صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى : ١٤ ٠

(٥٨) اغاثة الامة : ٣٤ ٠

(٥٩) اغاثة الامة بكشف الغمة : ٣١ ، ٤١ ـ ٤٥ ٠

ومن الأساليب التى كانت تستخدمها الصفوة المثقفة فى مقاومة الحاكم امتناعهم عن افتاء ولى الأمر بما يهوى كنوع من التعبير السلمى عن سخط الشعب ٠

ويزيد من أهمية احتجاج هذا الفريق اعتماد السلاطين عليهم فى جميع الأعمال تقريبا وكثرة استشارتهم لهم (٦٠) ٠

والى جانب هذه الأزمات التى أسخطت الشعب على حكامه والتى كان أكثرها ناتجا عن سوء سياسة الحكام واضطهادهم للشعب كثرت الكوارث الطبيعية ونائبات الزمان كقلة الأمطار ونقص مياه الفيضان عن منسوبها وحدوث المجاعات نتيجة لهبوط النيل عن منسوبه وكثرة الأوبئة والطواعين التى حصدت بمنجلها نسبة كبيرة من السكان ٠

ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة ٦٩٥ هـ فقد وقع الطاعون بمصر وأعمالها واشتد الأمر جدا حتى صار الناس يتساقطون موتى فى الطرقات نساء ورجال وأطفال حتى فنى من أهل مصر نحو الثلث ٠ قال الامام أبو شامة فى تاريخه ان الملك كتبغا كفن من ماله فى مدة يسيرة من مات من الغرباء فى الطرقات نحوا من مائتى وسبعين ألف انسان حتى حافت منهم الطرقات والحارات والأزقة ٠ وصار الرجل يكون ماشيا فيقع ميتا فى الحال عن دابته٠ وقد قال المعمار الشاعر :

يا طالبا للموت قم واغتنم
هذا أوان الموت ما فاتا

---

(٦٠) صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى : ١٤ ٠

قـــد رخص المـــوت على أهـله
ومـات من لا عمـــره ماتا (٦١)

والملاحظ أن هذه المصائب والكوارث الطبيعية عمت العالم الاســلامى ابان هذه الفترة وتنبه الشعراء الى ذلك وآلمت نفوسهم وقائع المصــائب والكوارث فكثر النظم في مثل هذه الموضوعات يقول الامام أبو شامة صاحب الروضتين فى غرق بغداد بالمياه وحريق الحجاز بالنار :

سبحـــان من أصـــبحت مشـــيئته
جـــارية فى الورى بمقـــــدار
أغـــرق بغـــداد بالميـــــاه كما
أحـرق أرض الحجاز بالنـار (٦٢)

وقال أبو شامة فى نار الحجاز سنة ٦٥٤ هـ .

نار أرض الحجاز مع حرق المسجد مع تحريق دار السلام
بعد ستة من المائين وخمسين لدى أربع جرى فى العام
ثم أخـذ التتـار بغـــداد فى أول عام بعد ذاك وعام

لم يعـن أهلهـــا وللكفـــر أعـوا
ن عليهـــم يا ضـــيعة الاسلام
وانقضت دولة الخــــلافة منهـا
صـــار معتصـــم بغير اعتصـــام

(٦١) بدائع الزهور ١/ ٢٨٩ . ٢٩٠ .
(٦٢) حسن المحاضرة ٢/٥٦ . بدائع الزهور ١/ القسم الاول ٢٩٩ .

فحنـــانا على الحجـــاز ومصر
وسلاما على بـلاد الشـــام (٦٣)

قال أبو شامة : ان اهل المدينة لما طال عليهم أمر هذه النار صار يودع بعضهم بعضا وتابوا من ذنوب كثيرة كانوا يعملونها وتصـــدقوا بأموالهم ولزموا الصوم والصلاة حتى كشف الله تعالى عنهم هذه النار وفى ذلك يقول القـــائل :

يا كاشف الضر صفحا عن جرائمنا
لقـــد أحاطت بنـــا يارب بأســـاء
نشكو اليـــك خطوبا لا نطيـــق لها
حمـــلا ونحـــن بهـــا حقا أحقـاء
زلازلا تخشـــع الصـــم الصلاب لها
وكيف يقوى على الزلزال شـــملاء
أقـــام سبعا يرج الأرض فانصدعت
عن منظر منـــه عين الشمس عوراء
بحـــر من النار تجرى فوقه سفن
من الهضماء لها فى الأرض ارساء
يرمى لهـــا شررا كالقصر طائشـــه
كأنمـــا ديمـــة تنصـــب هطـــلاء
يشق منهـــا قلوب الصخر اذا زفرت
رعبا وترعد مثل السعف أضواء (٦٤)

---

(٦٣) حسن المحاضرة ٥٦/٢ .
(٦٤) بدائع الزهور ٢٩٨/١ .

هذه الأمور وغيرها نشرت بين الناس شعورا عاما بالضعف والحزن ولم يملكوا ازاء هذه الكوارث سوى الاستسلام للقدر المحتوم وفى أوقات المحن لا يجد الانسان سوى الله ملجأ يأوى اليه ويدعوه أن يكشف عنه الضر فيكثر من التضرع والاستغاثة ٠

وكان الناس يفسرون هذه الكوارث فى الغالب تفسيرا دينيا وأخلاقيا خالصا فيرجعون أسبابها الى غضب الله من جراء فساد الأخلاق وانتشار الفسق والفجور وكانوا يرون أن هذه المحن انذار للناس والظلم ليرتدع ٠ أما النتيجة الحتمية لهذا التصور فهى الابتعاد عن الحياة والزهد فى ملاذها وقوة النزعة الدينية وغلبة التيار الروحى ٠

يقول د٠ عبد اللطيف حمزة (ونقرأ تاريخ مصر السياسى والاقتصادى من القرن السادس الى القرن العاشر فاذا مصر مجهدة من الحروب الصليبية التى افقدتها كثيرا من المال والرجال وردتها الى لون من الحياة فيه شعور بالفقر وان كان فيه شعور بالكرامة والفخر ٠ ولقد ضاعف شعور المصريين بالفاقة يومئذ ما منيت به بلادهم من المجاعات الشديدة ؛ ومن شأن هـــذه الحالة الاقتصادية وأمثالها أن تخلق فى الناس خشوعا فى حياتهم واستعدادا للخضوع لدينهم وأملا فى نعيم الآخرة بدلا من نعيم الآجلة (٦٥) ٠

وقد أدى هذا الى كثرة الزهاد والهاربين من مشكلات الحياة بالحنين الى الماضى والتشوق الى أيام الاسلام الأولى وكثرت الهجرات الى مكة والمدينة لمجاورة أحد الحرمين ٠

(وفى هذه الأجواء قوى ميل المصريين الى التصوف وشجعهم الولاة والحكام على هذا الميل ووجدوا فى تشجيعهم عليه تقربا الى الله تعـــالى

---

(٦٥) أدب المصرى من قيام الدولة الايوبية الى مجىء الحملة الفرنسية ٤٦، ٤٧٠

من جهة وتقوية للروح المعنوى الذى لابد منه فى محاربة المسلمين لأعدائهم الصليبيين والمغول من جهة أخرى ٠

ولقد قيل فى التصوف أنه محاولة الوصول الى الذات الالهية بطريق القلب لا العقل ٠ والمتصوفة يطلقون على هذا الطريق اسم (سفر) وعلى المسافر اسم (سالك) وعلى المراحل التى يمر بها (مقاومات) وهى عندهم سبع مراحل تلى بعضها بعضا منها التوبة فالورع فالزهد فالفقر بحيث لاتملك شيئا ولا يملكك شيء ٠

ومصدر التصوف عند الباحثين هو ثورة الضمير لما يصيب النــاس من مظالم لا تقتصر غالبا على ما يصدر عن الآخرين ٠ وانما تنصب أولا على ظلم الانسان نفسه وتقترن هذه الثورة برغبة فى الوصول الى الله عن طريق تصفية القلب من كل شاغل مادى فى هذه الحياة الدنيا) (٦٦) ٠

واشتهرت دولة المماليك ببناء أماكن للعبادة للمتصوفة يقضون فيها كل أوقاتهم وكانوا يطلقون عليها اسم الخوانق جمع خانقاه ٠

ويعد صلاح الدين الأيوبى أول من أحدث الخوانق بمصر (٦٧) ٠ ومن أشهرها فى عهد المماليك الخانقاه البيبرسية وهى أجمل خانقاه بالقاهرة بنيانا وأوسعها مقدارا وأتقنها صنعة ، بناها الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكر سنة ٧٠٩ هـ (٦٨) ٠

وخانقاه سرياقوس بناها الملك الناصر محمد بن قلاوون وكانت فى

---

(٦٦) ن ٠ المصدر السابق : ٤٧ ٠
(٦٧) ن٠ السابق ٤٩ ٠
(٦٨) حسن المحاضرة ١٤٣/٢ ٠

أيامه من أجمل ضواحى القاهرة وقيل فى سبب انشائها ان الناصر ركب كعادته للصيد وبينما هو فى الطريق اذ انتابه ألم شديد كاد يقضى عليه ثم نزل عن فرسه ولكن الألم تزايد عليه فنذر ان عافاه الله أن يبنى فى هـــذا الموضع مكانا يتعبد فيه النـــاس لله تعالى (٦٩) ومنهـــا أيضا خانقـــاه قوصون وخانقاه شيخو (٧٠) ٠

وكان للصوفية تأثير كبير فى أدب هذا العصر شعره ونثره فكثـــر النظم فى ميادئها ورموزها كما كثرت المؤلفات التى تحدثت عن هذا التيـــار تأييداً أو انكارا ٠ وممن كتب فى هذا الامام السيوطى ومن مؤلفاته (تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية) تشييد الأركار فى ليس فى الامكان أبدع مما كان) ، (درج المعالى فى نصرة الغزالى) ، (الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال) ، المعانى الدقيقة فى ادراك الحقيقة (٧١) ٠

كما عقد فى كتابه حسن المحاضرة فصلا ترجم فيه لعدد من الصوفية ونتيجة لاحترام المجتمع فى هذا العصر للصوفية والمميزات التى نالوها كثر ادعاء التصوف ، وارتكب مدعو التصوف كثيرا مع الأعمال الاباحية الخارجية عن الدين وعارض علماء السنة والحنابلة الصوفية وخاصة المتطرفة (٧٢) ٠

كما أسهم الشعراء فى هذا المجال ومما يمثل ذلك قصيدة السنجارى التى نظمها على وزن تائية ابن الفارض وعارض بها عقائد الصوفية بقـــول منهـــا :

---

(٦٩) الخطط ٢/٤٢٢ ، حسن المحاضرة ٢/٤٣ ٠

(٧٠) ن ٠ السابق ، حسن المحاضرة ٢/٤٣ ٠

(٧١) ن٠ الســابق ٠

(٧٢) عصر سلاطين المماليك المجلد الثالث ٠

ولست كمن أمسى على الحب كـــاذبا
مضـــلا لأرباب العقـــول السخيفة
بمن على الجهـال من عصبة الهوى
بنسـبته فى الحب من غير نســبة
فيــزعم طورا أنه عين عينهـــا
ويزعـــم طورا أنهـــا فيه حـلت
ويجمـــع ما بين النقيضـــين قــوله
وذاك محال فى العقول السليمة (٧٣)

والى جانب التيار الصوفى وجد الشيعة وكانت أصواتهم خافتة فى هذا المجتمع حيث أن العقيدة الرسمية للدولة كانت السنية وتركز الشيعة فى صعيد مصر فى أسوان وادفو واسنا وكان لهم أدب يعبر عن معتقـداتهم ٠ ومن شعرائهم صفى الدين الحلى وكان معتدل التشيع يمدح آل البيب ولا يسب الشيخين يقــول :

ولائى لآل البيت عقـــد مذهبى
وقلبى من حب الصـــحابة مفعـم
وما أنا ممن يســـتجيز بحبهـــم
مســـبة اقــوام عليهم تقـــدموا (٧٤)

هذا وقد امتزج التصوف بالتشيع فى هذا المجتمع ومالت الصوفية الى الشيعة ويتضح ذلك فى همزية البوصيرى حيث يقول :

وعلى صنو النبى ومن دين فؤادى وداده والولاء

---

(٧٣) فوات الوفيات ٢/٤٤٥ ، الادب فى العصر المملوكى ١/٢٠٦ ٠
(٧٤) الديوان : ٩١ ٠

ووزير ابن عمـــه فى المعـــالى
ومن الأهـــل تســعد الـــوزراء
لم يزده كشـف الغطـــاء يقينـــا
بل هو الشمس ما عليه غطاء (٧٥)

فهو يصف عليا بأنه وزير النبى صلى الله عليه وسلم وبأنه كشف عنه الغطاء أى أطلع على الأسرار والخفايا مما لم يعرفه غيره وهـذا ما يعتقده الشيعة وهو يركز على وزارته لرسول الله صلى الله عليه وسـلم فيقول ان منزلته كمنزلة هارون من موسى :

ومن كان من خيـــر الأنام بفضـــله
كهـارون من موسى وذلكم الجد (٧٦)

ولكن ما نصيب المرأة فى حيـــاة هذا المجتمع ؟

تمتعت المرأة فى هـذا المجتمع بمكانة عالية . وكان المماليك ينظرون الى نسائهم نظرة ملؤها الاحترام فأضفوا عليهن الألقاب ولم يضنوا عليهـن بالأموال الطائلة . واحترم المصريون نساءهم وحافظوا على كرامتهن فأضفوا عليهن الألقـــاب من باب التشريف فقالوا ست الخلق وست الحكام وست الناس وست الكل وست العرب وست العجم وست العبيد وست الفقهـــاء وست البنين وست العلمـــاء وست الأهل وست القضاة وست الوزراء (٧٧) واذا خرجت احداهن الى السوق وكان زوجها مقتدرا فانه يحضر لهـــا حمارا يقوده مكار ويتبعها خـادم . ومع كل ما قيـل فى مكانة المرأة فقد كره

(٧٥) الديوان : ٢٣ ، ٢٤ .
(٧٦) الديوان : ٦٨ .
(٧٧) الدرر الكامنة ٢/١٢٥ ـ ١٣٠ .

البعض البنات كأى عصر من العصور ووجدنا من يكره انجابهن يقــول الوراق :

رزقت بنتــا ليتهــا لــم تكــن
فى ليلــة كالدهــر قضــيتها
فقيــل ما ســميتها قلت لــو
تمكنت منهــا كنت ســميتها

والشاعر يتلاعب بكلمة سميتها فى البيت الثانى ويريد بها سممتها(٧٨)
ويتهكم القيراطى بامرأة تعمل بالوعظ ساخرا منها فيقول :

وعــالمة تغنى بقتــل محبهــا
وتجهــر أنى فى هــواها أعــذب
وتغضب ان جــاءت على بصــدها
كمــا انهــا تجنى على واغضب
اذا وعظت قامت مــلاحة وجههــا
على منبر الأعطاف تدعو وتخطب
ايخفى عليهــا قصــتى اذ رفعتها
بخــط دموعى وهى تقــر وتكتب
ايا جنــة مارق رضــوانها لنــا
وقلبى بهــا فى نــاره يتقـلب
ســاطلب باب النصر منها وكيف لا
أرى ذاك فى قربى لها وهى زينب (٧٩)

---

(٧٨) فض الختام عن التورية والاستخدام : ٣١ عن كتاب المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى د. فوزى محمد أمين ص ٢٩٨ دار المعارف .
(٧٩) الديوان : ٨٨ م والسابق ص ٢٩٩ .

وكان للمرأة نصيب كبير فى الحياة العامة ونسمع عن نساء قدر لهن أن يلعبن دورا خطيرا فى سياسة الدولة العامة فى ذلك العصر وكثيرا ما نقرأ عن زوجة سلطان توسطت بين أمراء المماليك لتحل اشكالا أو توسطت لدى زوجها السلطان لرفع بعض المظالم عن التجار وغيرهم من الطبقات المظلومة . كما شاركت المرأة فى النشاط العلمى والدينى ويحفظ لنا التاريخ أسماء كثيرات اشتغلن فى هذا العصر بالنحو والفقه والحديث وقرض الشعر (٨٠) .

وقد تنقلت الكثيرات بين مصر والشام شأن فقهاء العصر للسماع من كبار المحدثين والعلماء واعترف بعض كبار الفقهاء فى هذا العصر بأنهم درسوا على بعض الشهيرات وسمعوا منهن .

وظهر فى هذا العصر اقبال من النساء على مجالس العلم والدين فحرصت الكثيرات على الذهاب الى المساجد حيث يجلسن فى مكان منفرد لسماع الدروس الدينية . وسلكت بعض النساء طريق التصوف فلبست الخرق المرقعة وأطلق عليهن اسم الشيخات (٨١) .

وقد جاء ذكر كثير منهن فى كتاب الضوء اللامع للسخاوى وفى شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى وفى الدرر الكامنة فى أخبار المائة الثامنة للعسقلانى . وخصص صاحب الضوء اللامع جزءا خاصا فى أبناء عصره وهو القرن التاسع .

وبعد فان الحياة الاجتماعية فى هذا العصر مثل ما هى فى كل عصر كانت من أهم الأسباب التى حثت ذوى المواهب على القول والابداع ووضعت

---

(٨٠) صفحات من تاريخ مصر : ٣٣ .

(٨١) مصر فى عصر دولة السلاطين المماليك ، سعيد عبد الفتاح ١٧٦ ـ ١٧٨ .

بصماتها على أدب تلك الفترة فطبعته بطوابعها المميزة فظهر فيه قوة النزعة الدينية متمثلة فى أدب الزهاد والصوفية وظهر فيه الاتجاه المضاد الذى يمثل اللهو والمجون والشذوذ وألوان الموبقات كما زخر بالوصف لمظاهر العمران والفنون التى عنى بها المماليك كما وصفوا أماكن اللهو والمتنزهات ووفاء النيل ونقصانه والكوارث والمصائب والأعياد والاحتفالات ... الخ من أصاغر الأشياء وأعاظمها كما ظهر التشاؤم والحـــزن والشكوى والعلاقات بين الطوائف المختلفة ، كما مثل النفسية المصرية بخفـــة ظلها التى تميل الى الضحك الذى يشبه البكاء والسخرية المريرة حتى فى أشد المواقف وأحلكها وصور العادات والتقاليد والأخلاق . كما صور لغة الشعب واصطلاحاته المستعملة فى الحياة العامة والخاصة . وبايجاز شديد تعرض لكل ما فى المجتمع ومن فيه وكل هذه الموضوعات والأساليب كانت تعبر عن الطوابع الأصيلة للشعب المصرى والتى تميزه عن غيره من الأمم والشـعوب .

الحياة الفكرية والثقافية

أصبحت مصر قلب العالم الاسلامى بعد سقوط بغداد فتولت الزعامة الفكرية والثقافية الى جانب توليها للزعامتين الســياسية والدينية بعــد انتصاراتها الباهرة على الصليبيين والتتار ومحافظتها على استقلالها وتجديد الخلافة العباسية بها ووفد اليها طلاب العلم والعلماء من شتى الأرجاء وعنى سلاطينها عناية كبيرة بانشاء المدارس فى جميع أنحاء القطر المصرى .

وكانت أهم بيئات العلم فى هذا العصر ثلاث :

أولا بيئة الاسكندرية : وقد كثر بها الفضلاء والفقهاء وأهل العــلم والزهاد ، وقد شهدها ابن جبير ووصفها فى رحلته التى قام بها فى القرن السادس ومدحها بحسن موقعها واتساع مبانيها واحتفال أسواقها وعجيب منازلها ثم قال : ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة الى سلطانه المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من

الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه ، واجراء يقوم به فى جميع أحواله ، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ٠٠ الخ) (٨٢) ووصف ابن جبير أهل هذه المدينة فقال انهم فى نهاية الترفه واتساع الأحوال ٠ وقال : وهى أكثر بلاد الله مساجد حتى أن تقدير الناس لها يطفف فمنهم المكثر والمقل فالمكثر ينتهى فى تقديره الى اثنى عشرة مسجد والمقل دون ذلك ٠

وثانيا بيئة القاهرة : وقد كثرت فيها المدارس منذ عهد صلاح الدين الأيوبى ومن أهم المدارس التى بناها المماليك المدرسة الظاهرية القديمة وقد أطلق عليها ذلك تمييزا لها عن المدرسة الظاهرية الجديدة والأولى منسوبة الى الملك الظاهر بيبرس البندقدارى بناها سنة ٦٦١ هـ ٠

والمدرسة المنصورية : نسبة الى الملك المنصور قلاوون بنها ٦٧٩ هـ ورتب فيها دروسا على المذاهب الأربعة والحديث والتفسير ودروسا كذلك للطب ٠

والمدرسة الناصرية : نسبة الى الناصر محمد بن قلاوون فرغ من بنائها عام ٧٠٣ هـ ٠ وقال المقريزى انه ادرك هذه المدرسة وأنها محترمة للغاية وأن السلطان عين بها المدرسين للمذاهب الأربعة والحق بها مكتبة حافلة وتحمس لبنائها وبناء المارستان المنصورى الكبير بعد أن عاد الى عرشه للمرة الثانية (٨٣) ٠

ومدرسة السلطان حسن : نسبة الى السلطان الناصر حسن بن الناصر

---

(٨٢) رحلة ابن جبير ص ١٠ ٠
(٨٣) خطط المقريزى ٢ : ٤٠٦ ٠

محمد بن قلاوون ، قال السيوطى (٨٤) نقلا عن المقريزى : شرع فى بنائها عام ٧٥٨ هـ ، وقال : ولا يعرف ببلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة فى كبر قالبها وحسن هندامها وضخامة شكلها ودامت العمارة فيها ثلاث سنين لا تبطل يوما واحدا ٠ .وأرصد لمصرفها فى كل يوم عشرين ألف درهم منها نحو ألف مثقال ذهبا حتى قال السلطان : لولا أن يقال ملك مصر عجز عن اتمام ما بناه ، لتركت بناءها من كثرة ما صرف عليها ٠ وذراع ايوانها الكبير خمسة وستون ذراعا فى مثلها ويقال انه أكبر من ايوان كسرى بخمسة أذرع وبها أربع مدارس للمذاهب الأربعة ٠

والمدرسة الظاهرية الجديدة فرغ من بنائها عام ٧٨٨ هـ فاقبل الشعراء على السلطان الملك الظاهر يهنئونه بها ٠ وكان من ذلك قول أحدهم :

الظـــاهر الملك الســـلطان همتـــه
كـادت لرفعته تســـمو على زحل
وبعض خـــدامه طـــوعا لخـدمته
يدعو الجبـــال فتاتيه على عجـــل

وعين السلطان فيها مدرسين للفقه على المذاهب الأربعة وللحـــديث وللقراءات فلم يكن منهم من هو فائق فى فنه على الآخرين فى فنونهم (٨٥)٠

وقد اختلفت آراء الرحالة فى بيئة القاهرة فمنهم من أبدى اعجـــابه بها ومنهم من فضل عليها مدينة الفسطاط ٠ يقوم ابن سعيد المغربى عـــن القاهرة (وهذه المدينة اسمها أعظم منها وكان ينبغى أن تكون فى ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته ، لأنها مدينة بناها المعز ، وكان ســـلطانه

---

(٨٤) حسن المحاضرة ٢ : ١٤٤ ٠
(٨٥) ن٠ السابق ٢ : ١٤٦ ٠

قد عم .. وقد عاين مبانى أبيه المنصور فى مدينة المنصورية وعاين المهية .. الخ (٨٦) .

وابن جبير وصف من القاهرة مساجدها ومزاراتها ومشاهدها (٨٧) .

وأما البيئة العلمية الثالثة فهى بيئة قوص أو الصعيد : وعنى بوصفها كمال الدين الأدفوى صاحب كتاب الطالع السعيد لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد) ويقول د. عبد اللطيف حمزة فى ذلك (غير انه من العسير علينا أن نطمئن كثيرا الى كل ما ورد بهذا الكتاب لأن صاحبه كان مدفوعا اليه بدافع من تعصبه لهذا الاقليم ومع هذا فكتابته لا يمكن أن تخلو من بعض الحقائق الهامة) (٨٨) .

وقد اشتهرت فى هذه البيئة مدن كثيرة من اهمها :

ادفو وشهرتها مدينة الفقه والعلم ، واسنا وهى مدينة الترف والشعر وقنا وهى مدينة الزهد والتصوف .

وقد ذكر الأدفوى أن التشيع كان منتشرا فى هذه البيئة ، قال فى معرض كلامه عن اسنا (وكان التشيع بها فاشيا والرفض ماشيا فخف حتى جف ونزل بها الشيخ بهاء الدين بن هبة الله القفطى فزال بسببه كثير من ذلك) .

وأحصى الأدفوى مدارس قوص فى القرن الثامن الهجرى فاذا هى ستة عشر مكانا للتدريس) .

---

(٨٦) الخطط ٢ : ١٨٧ ، ١٨٨ .
(٨٧) رحلة ابن جبير ١٣ ـ ٢٨ .
(٨٨) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الايوبى والمملوكى الاول : ١٦٧ .

عنى اذن سلاطين المماليك بانشاء المدارس فى أنحاء مصر كما عنى أهل الشام بذلك وذكر ابن بطوطة فى رحلته كثرة عدد المدارس بمصر وانه لا يحيط أحد بحصرها (٨٩) ٠

وكان جـــل اهتمام المدارس موجها الى الدراســـات الاسلامية ثم العلوم اللغوية وتليها العلوم الأخرى كالطب والمنطق والكيمياء والهندسة ٠٠ الخ (٩٠) ٠

ولـم تكن المدارس وحدها ساحات العلم ولكن اشركتها الجـــوامع والمساجد فى هدفها ٠ وكان سلاطين المماليك ينشئونها تقربا الى الله ويوقفون عليها الأوقاف الكثيرة وخصصوا فى كثير من الأحيان معاونات للطلاب المقيمين بها المنقطعين لطلب العلم وعنوا باختيار الشيوخ الذين يتـــولون التدريس بهــا ٠

وكان الجامع الأزهر (٩١) هو اشهر هذه الجوامع يقصده الطـــلاب من شتى انحاء العالم الاسلامى يتزودون بالعلوم الاسلامية وآداب اللغـة العربية خير زاد ٠ وقد رصدت له أموال كثيرة وقام بدوره على خير ما يرام حتى فى أقسى الظروف وأحلكها واستمر قائما بدوره الى اليوم ٠

وكان يلحق بكل جامع او مدرسة دار للكتب وحفلت تلك الدور بالكتب الثمينة فى شتى المعارف والعلوم وعنى الناس باقتنائها والاطلاع عليهـــا كوسيلة من وسائل التعليم والثقافة وقرأ طلاب العلم كل ما وقع تحت أيديهم من الكتب الدينية وغير الدينية ٠ وكان الغالب على العصر التعليم السنى

---

(٨٩) رحلة ابن بطوطة ٠

(٩٠) عصر سلاطين المماليك ٦/٣١٦ ٠

(٩١) المواعظ والاعتبار فى الخطط والاثار ٢ ٠

وتصدرت علوم القرآن والتفسير والحديث ثم الفقه والأصول وما يتصل بأمور الدين وكثرت الكتب التى ألفت لخدمة هذا الاتجاه ٠

والدارس للعصر المملوكى يلاحظ تقدما وازدهارا للغة العربية وعلومها ٠ ويرجع السبب فى ذلك الى المماليك أنفسهم حيث كانوا يتعلمونها ويعلمونها لأبنائهم ومماليكهم ويشجعون على اتقانها والبراعة فيها وفى آدابها ، فلا يتولى ديوان الانشاء الا من يبرع فيها ولا يصل الى منصب هام فى دواوين الدولة الا من يجيدها ويتقنها خير اتقان ٠ وقد اتخذها المماليك اللغة الرسمية للدولة الى جانب كونها لغة الدين ولغة العلم (٩٢) واتسع التعصب للعربية نتيجة لليقظة الدينية التى عمت البلاد من جراء الحروب الصليبية فاللغة العربية لغة الدين الاسلامى وحفظها حفظ له ولكتابه ٠ وكانت حوادث قتل العلماء بعد سقوط بغداد واتلاف الكتب العلمية مما جعل العلماء بعد استقرارهم بمصر يعملون على اعادة الصرح المنهار واحياء علوم اللغة والدين (٩٣) ٠

ويطلق الأستاذ أنور الجندى على هذه المرحلة اسم مرحلة الغزو الخارجى ويرى أنها على ما فيها من حروب صليبية وغزوات تترية وغزوات للفرنجة على أطراف الأندلس والمغرب لم تحل دون استمرار حركة الفكر والثقافة والأدب وطعمتها بتحد جديد وأضفت عليها لونا من المقاومة والمحافظة على التراث وظلت الجامعات الكبرى الأزهر فى مصر والقرويين فى فاس والزيتونة فى تونس والأعظم بالقيروان والأموى بدمشق ظلت قادرة على أن تحتضن هذه الثقافة وتحميها (٩٤) وهو يرى أن الثقافة العربية حلت فى هذا العصر محل الأدب العربى فى العصور السابقة ٠ وقد وصف ابن خلدون ت ٨٠٨ الحركة العلمية فى مصر ابان هذه الفترة ومبلغ تقدم

---

(٩٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٣/١١١ جورجى زيدان ٠
(٩٣) نصر سلاطين المماليك ٢/١ : ١٧ ٠
(٩٤) الاسلام وحركة التاريخ : ٢٨٣ ٠

العلوم والفنون والعناية بهما فى البلاد المصرية فقال (ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبجر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور منذ مائتين من السنين فى دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا ، وذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفون من ذريتهم لما له من الرق أو الولاء ولما يخشى من عواطب الملك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط (٩٥) ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركا اولدهم ينظر عليها أو يصيب منها ، مع ما فيهم من الخير والصلاح والتماس الأجور فى المقاصد والأفعال فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالبى العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها وارتحل اليها الناس فى طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء) (٩٦) ٠

ونتيجة لانتشار العلم وكثرة العلماء كثر التاليف فى هذا العصر بشكل لم يحدث من قبل وبلغت عدد المؤلفات فى هذا العصر وحده وهو أقل من ثلاثمائه عام عشرات الآلاف ٠ وبعض العلماء ألف وحـــده مئات الكتب كالسيوطى الذى قيل ان مؤلفاته أربت على ستمائة ، وصلاح الصفدى الذى ذكر ابن حجر أنه وجد بخطه ما نصه (كتبت بيدى ما يقارب من خمسمائة مجلد ، ولعل الذى كتبه فى ديوان الانشاء ضعف ذلك) (٩٧) وذكر السبكى أن الصلاح قال انه كتب أكثر من ستمائة مجلد تصنيفا (٩٨) ٠

---

(٩٥) الربط جمع رباط وهو الحصن أو المكان الذى يربط فيه الجيش والانسب الرباطات وهى المعاهد المبنية والموقوفة للفقراء ٠

(٩٦) المقدمة الفصل الثالث ٧٧٨ ط بيروت ٠

(٩٧) الدرر الكامنة ترجمة الصلاح الصفدى ٠

(٩٨) طبقات الشافعية ٠

ومن أجل كتبه وأجداها فى الشعر والأدب كتابه (التذكرة الصفدية) جمع فيه الكثير من نوادر الأشعار ولطائف الأدب نثرا ونظما وأثنى فيه على تاريخ الآداب العربية وفنونها من أيام نشاته الى عصره . وقد أربى هذا الكتاب وحده على خمسين مجلد الموجود منها بدار الكتب خمسة أجزاء فى خمسة مجلدات وهى الجزء الثانى والثالث عشر والرابع عشر والثامن والعشرون وأغلب الظن أن الصفدى أفرد من كتابه التذكرة أشعار القاضى الفاضل وأبى الحسين الجزار والوراق والعزازى وأخيرا أشعار مختارة للشيخ تقى الديه محمد بن على وهب وابن دقيق العيد (٩٩) .

وكانت هذه الكتب مختلفة متنوعة شاملة لكافة التخصصات فمنها الكتب الدينية ومنها الكتب التاريخية ومنها كتب السير وكتب النحو والبلاغة وكتب النقد وكتب الطب والكيمياء والنجوم والمنطق والهندسة والرياضيات وغير ذلك من كتب العلوم والمعارف .

وكان الاتجاه الموسوعى فى التاليف هو خاصة هذا العصر وسمته البارزة والنزعة الموسوعية تعنى الميل الى جمع المعلومات المختلفة والحقائق المشتتة والنصوص المبعثرة التى تجمعها جامعة وتربط بينها فكرة موحدة فينقب عليها المؤلف ويفتش عنها فى جنايا مظانها وينزعها من مكانها الذى ربما تكون غريبة فى اقامتها لديه ثم تحشد هذه المعلومات او النصوص تحت راية فكرتها المشتركة ويعمل المؤلف جهده فى التاليف بينها وربط بعضها بالبعض الآخر واحكام الصلة بينها حتى تتوثق عراها وتبدو مجموعة ضخمة متراصة المفردات متماسكة الحلقات مسبوكة فى قالب تاليفى منظم متناسق فيه ربط وتقسيم وتقديم وتاخير حسب أهمية النص مثلا . وبذلك تلبس هذه المعلومات حلة قشيبة وتبدو زاهية مزدانة منطلقة لاجتماع الالف مع الفه والترب على

(٩٩) ابن دقيق العيد حياته وديوانه ١٣٢ ، ١٣٣ .

ترية وهنا يجد القارىء متعة ولذة ونفعا عظيما لا مثيل له (١٠٠) ٠

وكانت بداية هذا الاتجاه فى العصر العباسى عند الجاحظ فى البيان والتبيين وكتاب الحيوان ، واحتذى طريقته المؤلفون بعده من أمثال المبرد فى الكامل وابن قتيبة فى عيون الأخبار وابن عبد ربه فى العقد الفريد وأبى الفرج الأصفهانى فى الأغانى وكانوا يقصدون فى هذه الكتب الى جمع الأدب وتكويمه بعضه فوق بعض فاهمين الأدب بمعناه الذى هو الأخذ من كل شىء بطرف فحكمه بجانبها بيت فى الغزل ونادرة لطيفة بجانبها خطبة بليغة وقصة عن البخلاء بجانبها أخبار عن الخوارج وهكذا (١٠١) ٠

فحركة التأليف الموسوعى فى العصر العباسى تعد تمهيدا لما حدث فى العصر المملوكى ولكن هناك فرقا بين التأليف الموسوعى فى العصرين ، فهذا الأسلوب كان فرديا فى العصر العباسى أما ماوجد فى العصر المملوكى فغلب على أكثر مؤلفى ومؤلفات العصر هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان هناك فرق فى طريقة التأليف (فالأولى بنيت على الفوضى وجمع المعلومات من هنا وهناك والاستطراد فى ذكر المعلومات أو الانتقال من بعضها الى بعض لأدنى مناسبة ٠ والثانية وهى الموسوعات (المملوكية) لم يكن أساسها الفوضى والاستطراد لأتفه الأسباب ولكنها بنيت على التنظيم الدقيق والتقسيم الأدق بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى كما بنيت على التقيد بموضوع الموسوعة قدر المستطاع ٠ فالموسوعة الجغرافية تحاول ما استطاعت أن تحصر نفسها فى المعلومات الجغرافية والموسوعة اللغوية تحاول أن تفعل مثل ذلك ٠ وقد عرفت هذه الطريقة بالطريقة المصرية فى التأليف وتتضح فى العناية بتقسيم الموضوع الواحد الى أبواب والأبواب الى فصول والفصول الى أطراف والأطراف الى مذاهب والمذاهب الى وجوه ٠٠ وهكذا ٠

---

(١٠٠) عصر سلاطين المماليك ٦/٤٣٢ ٠
(١٠١) ضحى الاسلام ١/١٧٠ ـ ١٧١ ٠

ويتضح لنا من دراستنا لحركة التأليف فى العصر المملوكى أن كتب الموسوعات فى هذا العصر كانت على نوعين :

الأول : ما يتناول علوما مختلفة وفنونا متعددة كالتقويم والتاريخ والأدب والقصص والشعر والنثر ومن أمثلته كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى ، ومسالك الابصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى ، وصبح الأعشى للقلقشندى وان بنى كل منها على مادة معينة .

والثانى : ما لم يتناول الا علما واحدا ثم اتسع فيه مثل كتب التاريخ أو كتب الأدب أو كتب الحديث أو كتب التفسير أو كتب النحو أو كتب اللغة ... الخ .

وقد وجهت فى هذا العصر عناية كبيرة الى كتب التاريخ وتعددت أغراضها وأنواعها فمن كتب تراجم خاصة بالاعلام مثل وفيات الأعيان لابن خلكان وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة بينها عشرات التراجم لاهل القرن السابع. وكتاب فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى وقد ضمنه عشرات التراجم لبعض أهل القرن الثامن واقتدى بهما صلاح الصفدى فصنع كتابه الوافى بالوفيات الذى ضمنه مئات من تراجم أهل القرنين السابع والثامن كما عنى المؤلفون بتأليف كتب لتراجم الاعلام لكل قرن مثل البدر السافر وتحفة المسافر للادفوى ت ٧٨٤ هـ ترجم فيه لمشاهير القرة السابع ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ . وكتب الطبقات التى عنيت بالترجمة لفئات خاصة من العلماء مثل طبقات الشافعية وطبقات المفسرين وطبقات النحويين وطبقات الحفاظ وهكذا .

كذلك ألفت الكثير من كتب السير كما ألفت الكتب فى تاريخ مصر والقاهرة من ذلك كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردة ، وحسن المحاضرة للسيوطى

وبدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن أياس ، وكتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ... الخ .

ومن الموسوعات الأدبية المستطرف للابشيهى والغيث المسجم فى شرح لامية العجم للصفدى وثمرات الاوراق للحموى وألحان السواجع من المبادىء والمهاجع والتذكرة الصفدية للصفدى وأعيان العصر وأعوان النصر والكنز المدفون للسيوطى وحياة الحيوان للدميرى ت ٨٠٨ وهو كتاب مشهور فى هذا الفن جامع بين الغث والسمين لأن المؤلف فقيه فاضل محقق فى العلوم الدينية وهو يختلف عن كتاب الجاحظ ، لأن مقصده تصحيح الألفاظ وتفسير الأسماء المبهمة .

ومن كتب النحو الموسوعية مغنى اللبيب لابن هشام والأشباه والنظائر للسيوطى ومن كتب اللغة لسان العرب لابن منظور .

ولا نستطيع أن نحصى كل ما ألف فى هذا العصر لكثرته من جهة ولأنه قد ضاع منه الكثير وهلك أو نقل للاستانة أو غير ذلك من مكتبات العالم بعد دخول سليم الأول مصر سنة ٩٢٣ هـ فى بداية العهد العثمانى .

أما أهداف هذه الموسوعات فمنها أنها تقدم المعرفة بصورة شاملة وسريعة أحيانا واتفق معها فى هدف السرعة كتب المختصرات التى شاعت

فى هذا العصر . وكان العلماء قد اختصروا كتب التراث القديمة من ذلك ما فعله ابن منظور ت ٧١١ صاحب لسان العرب فقد اختصر كثيرا من كتب اللغة والأدب ومنها مختار الأغانى الذى اختصر فيه الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى وجرده من الأسانيد ورتب التراجم على حروف المعجم ومختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى فى عشر مجلدات ومختصر مفردات ابن البيطار ومختصر العقد الفريد لابن عبد ربه ومختصر الحيوان للجاحظ ومختصر يتيمة الدهر للثعالبى ومختصر نشوار المحاضرة للتنوخى وغير ذلك من

الملخصات . واظهر بعض العلماء ضجرهم من التلخيصات التى شغف بها أدباء العصر ومؤلفوه وأوضحوا ضررها على المتعلمين يقول ابن خلدون فى مقدمته (ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والأنحاء من العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا فى كل علم يشتمل على حصر مسائله وادلتها باختصار فى الألفاظ وحشو القليل منها بالمعانى الكثيرة من ذلك الفن فصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسيرا على الفهم وربما عمدوا الى الكتب الأمهات المطولة فى الفنون للتفسير والبيان تقريبا للحفظ كما فعله ابن الحاجب فى الفقه وأصول الفقه وابن مالك فى العربية والخونجى فى المنطق وامثالهم وهو فساد فى التعليم وفيه اخلال بالتحصيل وذلك لأن فيه تخليصا على المبتدىء بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع الفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعانى عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لأن الفاظ المختصرات نجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فيتقطع فهمها حظ صالح من الوقت ثم بعد ذلك كله فالملكة الحاصلة من التعليم فى تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهى ملكة قاصرة عن الملكات التى تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة) (١٠٢) .

وكما استاء ابن خلدون من طرق التعليم بمصر استاء الأدفوى من تعليم العلوم غير الدينية وغير النافعة وفى رأيه أن هذا أدى الى الانحراف عن جادة القول ودخول متاهات خرجت بالراغب بالعلم عن سبيله يقول :

ان الدروس بمصـرنا فى عصـرنا
طبعت على لغـط وفرط عيـاط

---

(١٠٢) المقدمة : ١٠٢٩ تحت عنوان كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم .

ومباحث لا تنتهى لنهاية
جدلا ونقل ظاهر الأغلاط
ومدرس يبدى مباحث كلها
نشأت عن التخليط والأخلاط
ومحدث قد صار غاية علمه
أجزاء يرويها عن الدمياطى
وفلانة تروى حديثا عاليا
وفلان يروى ذاك عن أسباط
والفرق بين غزيرهم وغريرهم
والنصح عن الخياط والحناط
والقاضى النحرير فيهم دأبه
قول لرسطاليس أو بقراط
وعلوم دين الله نادت جهرة
هذا زمان فيه طى بساطى (١٠٣)

ونلاحظ على مثقفى هذا العصر كما لاحظنا على المؤلفات ظاهرة الموسوعية فالشاعر كاتب وهو قاض ونحوى وناقد وربما كانت صنعته الأولى الحياكة أو الجزارة أو الحدادة أو التجارة وربما يرجع انتشار هذه الظاهرة الى أن السلاطين لم يقربوا اليهم الشعراء التقريب الكافى ولم يسبغوا عليهم العطايا فعل السابقين وذلك لعجمتهم وعدم فهم الشعر فهما جيدا وعدم رغبتهم فيه الا ما كان منه فى الاشادة ببطولاتهم وبذا أصبحت حرفة الشعر غير مجدية ماديا ٠ فالشاعر لا يستطيع أن يكسب ما يكفيه هو وعياله من قول الشعر فلجأ الى غير ذلك من الحرف والصنائع ولذا وجدنا من الشعراء الجزار والخشاب والحداد والخياط ٠٠ الخ

---

(١٠٣) الدرر الكامنة ٥٣٦/١ ٠

يقول الغزى فى كساد سـوق الشعر :

قالوا هجرت الشعر قلت لهم نعـم
باب الـدواعى والبـواعث مغلق
خلت الديار فـلا كـريم يرتجى
منـه النـوال ولا مليح يعشق
ومن العجـائب أنه لا يشـترى
ويخان فيه مع الكساد ويسرق (١٠٤)

ويقول السراج الوراق :

مالى ونظـم الشعر بانت صـبوتى
والنـاس قد رغبـوا عن الآداب
أأقـوله عبثـا بلا سـبب لـه
والشـعر مبنى على الأسـباب (١٠٥)

ومع ذلك فالاستغناء عن الشعر غير ممكن وذلك أن الكاتب وهو رجل العصر لا يستغنى عن الشعر فهو ثقافة ضرورية يجب عليه أن يكون عـلى علم واسع بها . وقد اتقنى كثير من أدباء العصر الشعر والكتابة معا وكان فى الغالب يتفوق فى أحدهما على الآخر ومن أمثلة ذلك الصلاح الصفدى وصفى الدين الحلى وابن نباته .

وقد أقبل العلماء والفقهاء فى هذا العصر على الأدب فكثر منهم الشعراء أمثال ابن دقيق العيد وابن سيد الناس وابن عربى وأبى حيان أثير الدين

---

(١٠٤) الغيث المسجم فى شرح لابن المعجم ٥٩/١ .
(١٠٥) نفسه ٥٨/١ .

وتقى الدين السبكي وتاج الدين السبكى . ولم يصل شعر كثير من العلمـــاء الى مستوى الشعر الجيد (١٠٦) .

وبعد هذه الالمامة الموجزة بالتعليم والثقافة فى هذا العصر . نرى أن الحياة الفكرية والثقافية كانت مزدهرة ازدهارا كبيرا بعناية الله سبحانه وتعالى ثم بتشجيع سلاطين المماليك للعلم والعلماء . وهذه الحياة عملت على الابقاء على حياة اللغة العربية فعنيت بالتراث العربى القديم وحفظته فى مؤلفات عامة وخاصة كانت هى الميراث الفكرى الذى ورثه العصر الحديث وباطلاعه عليه علم وفقـه ثم خــرج بكل جــديد ومفيد .

والى جانب هذا نجدها أضافت الى هذا التراث بعض المعانى التفصيلية والصـــور الجزئية وذلك تبعا لمرئيات المشاهدات وتطور المذاهب والمعتقدات نتيجة لاختلاف العصور والبيئات وما يتميز به كل عصر عن سواه .

ومن الاضافات الثقافية الى هذا العصر العنـــاية بالفنون الجميلة والزخرفة وهذه وان ظهرت بوادرها منذ العصر العباسى فانها ارتقت رقيا عظيما فى هذا العصر حتى ليعد العصر المملوكى صفحة زاهرة فى تاريخ الفن العربى (١٠٧) . كما أنه يعتبر العصر الذهبى للصناعات المعـــدنية اذ وصلت الى قمة نضجها الصناعى والفنى وساعد على ذلك رعاية سلاطين المماليك للفن والفنانين فى عصرهم مما كان له أكبر الأثر فى كثرة ما أنتجته القاهرة من الصناعات المعدنية التى اتسمت بدقة صنعها وغنى زخـــارفها بالكثير من العناصر النباتية والهندسية ورغسوم الكائنـــات الحية الآدمية والحيوانية ورسوم الطير المحلق فى الهواء مما كان يضفى على الزخارف حياة وحركة (١٠٨) .

---

(١٠٦) الادب فى العصر المملوكى ١٠٩/٢ .
(١٠٧) صبح الاعشى ٣٦٣/٣ .
(١٠٨) النقد الادبى فى العصر المملوكى : ٣٣ .

والعصر المملوكى أزهى العصور بالنسبة للكتابة العربية بصـــورها المختلفة والسبب فى ذلك يرجع الى عناية السلاطين بتعليم الخط العـــربى وتحسينه ٠ وقد أنشئت مدارس خاصة لهذا الغرض (١٠٩) ٠

ونلاحظ أن معنى الأدب فى هذا العصر اتسع مدلوله اتساعا كبيرا فشمل كل المعارف والثقافات وأن الغالبية العظمى من الكتب المؤلفة فى هذا العصر كانت كتابتها بأسلوب أدبى منمق ومزج مؤلفوها بين الشعر والنثر الفنى والحقائق التاريخية والعلمية ٠
وكان لكل ما سبق أثره فى ازدياد العناية بالأدب بمعناه الواسع ٠

صور العناية بدراسة الأدب :

ومن الصور التى تدل على العناية بالأدب فى هذا العصر توجيه رعاية عظيمة لجمع التراث الأدبى فجمعت النصوص الأدبية الشعرية منها والنثرية وشرحت ٠ وتعددت اتجاهات الأدباء بالنسبة لهذا المجال ٠ فالبعض اتجـه الى لون من ألوان الأدب يتصل بمكارم الأخلاق والحث على تهذيبها ٠ وكانت هذه هى الوظيفة الأولى للادب وهدفت هذه الكتب الى النصيحة ورصعت بالنصائح والحكم والأمثال ومن هذه الكتب محاضرة الابرار ومسامرة الأخيار فى الأدبيات والنوادر والأخبار لابن عربى ، وكتاب أسرار الحكماء لياقوت الحموى ٠ والكتابان يقصدان الى تهذيب الأخلاق وتقويم النفوس ويحببان التصوف وقد جمعا كثيرا من كلام الصحابة والملوك والأمراء والبلغاء واشتملا على كثير من الحكمة والمثل (١١٠) ٠

كما جمعت كتب فى مختارات من النصوص الأدبية الشعرية او النثرية

---

(١٠٩) نفسه باختصار : ٣٣ ، ٣٤ ٠

(١١٠) الحياة الادبية فى عصر الحروب الصليبية : ٣١٧ ٠

القديمة وكان جل الاهتمام موجها الى نصوص الشعر واقتدى جامعو التراث الشعرى فى ذلك العصر بمن سبقهم من الجامعين منذ القرن الثانى الهجرى. وكان هناك اتجاهان فى الاختيار أحدهما يبوب معانى الاختيار كما فعل أبو تمام فى حماستية الكبرى والصغرى والثانى لا يعنى بتبويب معانى ما يختاره من الشعر كالمفضل الضبى فى مفضلياته والأصمعى فى أصمعياته. كما رأى البعض جمع ما تفرق من شعر الشاعر فى ديوانه ومن أمثلة هذه الكتب كتاب التذكرة الفخرية للصاحب بهاء الدين المنشىء الأربلى ت ٦٩٢ هـ الذى جمع مجاميع شعرية كبيرة لشعراء لم تعرف دواوينهم أو لأشخاص لم تقف التراجم على أخبارهم والمؤلف فى هذا الكتاب يستدرك على أكثر من ثلاثة وثلاثين ديوانا للشعراء الآتية أسماؤهم : الأرجانى - البحترى - البهاء زهير - ابن التعاويذى - التلعفرى - الحاجرى - ابن الحلاوى - حيص بيص - ابن الرومى - ابن الساعاتى - السرى الرفاء - سعيد بن حميد السلامى - ابن سناء الملك - شبيب بن البرصاء - الشريف الرضى - صردر - ابن طباطبا العديل بن الفرخ - العكوك - أبو العلاء المعرى - عمر بن أبى ربيعة - ابن قلاقس كثير عزة - مروان بن أبى حفصة - مسلم بن الوليد - ابن مطروح - ابن المعتز - النامى - أبو نواس - ابن هرمة - أبو هلال - الوليد بن يزيد (١١١).

وكانت كتب المختارات بعضها يتخصص فى الشعر والشعراء القدماء وبعضها عنى بجمع دواوين الشعراء المعاصرين ورسائلهم.

وكتب المختارات لها أكثر من فائدة فهى أولا تحفظ التراث الشعرى من الضياع وتعرض لأجود ما قيل من الشعر فى كل معنى أو باب من الأبواب ثم هى تكشف عن الاتجاهات الفكرية والأدبية التى سادت هذه الفترة كما تكشف عن غزارة الانتاج وتوضح ذوق العصر فى اختيارات المؤلف.

---

(١١١) التذكرة الفخرية مقدمة المحقق ١٦ ، ١٧ ط المجمع العراقى.

وأهم ما حظى بعناية الشراح من المؤلفات النثرية هـــو فن المقامات وخاصة مقامات الحريرى ولا غرابة فى ذلك فهى خير ممثل لذوق العصر والمثال الذى ولع به الكتاب فى انشائهم ٠

ومن العناية بدراسة الأدب كانت العناية بمنشىء الأدب وقد وجدنا الكثير من المؤلفين يعنون بالتراجم للشعراء والكتاب وفى القرن السابع كان ياقوت يؤلف كتابه معجم الأدباء ويعنى فيه بالتراجم لمن غلبت عليه حرفة الأدب ٠ وهذا الكتاب يعد من أهم المراجع الأدبية التاريخية الى عصرنا وترجم فيـه للادباء من الجاهلية والى عصره ورتب تراجمه على حسب حسب الحـروف الأبجدية ومضى يتحدث عن كل أديب وآثاره ونماذج من شعره ونثره ٠ ومن أمثلة هذه الكتب كتاب الدرر الكامنة فى أهل المائة الثامنة وهو يترجم لرجال ونساء عرفوا بالكتابة أو الشعر ويضيف اليهم آخرين لم يعرفوا بالأدب ومن أمثلة ذلك أيضا وفيات الأعيان والوافى بالوفيات وفوات الوفيات وهـــو يترجم للادباء وغيرهم من المشهورين ٠ والى جانب هذه الترجمات الأدبيـــة لمجموعة من الأدباء وجدت بعض الكتب التى تعنى بالترجمة لشخصية واحدة مثل ياقوت فى كتابه عن أخبار المتنبى) ابن منظور فى كتابه عن أبى نواس ومن مظاهر العناية بالأدب فى هذا العصر كثرة المعارضات (١١٢) ٠

ومن القصائد التى عورضت ميمية ابن الفارض التى مطلعها :

هل نار ليلى بدت ليـــلا بـــذى سـلم
أم بارق لاح فى الزوراء فالعـــلم

---

(١١٢) المعارضة فى الشعر أن يقول شاعر قصيدة فى موضوع ما من أى بحر وقافية فيأتى شاعر آخر فيعجب بهذه القصيدة لجانبها الفنى وصياغتها الممتازة فيقـول قصيدة من بحر الأولى وقافيتها وفى موضوعها أو مع انحراف يسير أو كثير حريصا على أن يتعلق بالاول فى درجته الفنية او يفوقه (لسان العرب مادة عرض النقائض فى الشعر العربى : ٧) .

أرواح نعمان هلا نسمة سحرا
وماء وجرة هلا نهلة بفم

وعارضها البوصيرى ببردته التى بلغت اثنين وثمانين ومائة بيتا والتى بدأها بقوله :

أمن تذكر جيران بذى سلم
مزجت دما جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق فى الظلماء من اضم

وكان لبردة البوصيرى شهرة واسعة فقد بلغ من شهرتها أن ضمت اثنين وتسعين تخميسا وشرحت احدى وعشرين شرحا كلهم باسم الكوكب الدرية فى مدح خير البرية (١١٣) كما شطرت وتسعت . وقد وقع الاجماع على أنها أفضل مدائح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بانت سعاد ونحوها من مدائح الصحابة (١١٤) .

والبردة أقسام منها عشرة فى النسيب الروحى الرمزى الذى ظاهره الغزل الانسانى العادى وستة عشر فى النفس وهواها وثلاثون فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم وتسعة عشر فى مولده وعشرة فى دعائه علية السلام وعشرة فى مدح القرآن وثلاثة فى المعراج واثنان وعشرون فى جهاده وأربعة عشر فى الاستغفار وباقى القصيدة فى المناجاة . وقيل انه فلج فنظمها أثناء مرضه وتوسل بها الى الله ليشفيه ويقال انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه فأمر يده وخلع عليه بردته فأفاق البوصيرى وقد شفى من مرضه ولهذا سميت بالبردة كما أطلق عليها البرأة .

---

(١١٣) تاريخ الادب العربى كارل بروكلمان ٥/٨٠ - ١٠٤ .
(١١٤) الادب العربى من الانحدار الى الازهار ١٨١ .

وأما اللامية أو ذخر الميعاد فقد عارض بها كعب بن زهير فى قصيدته التى أولها :

بانت سـعاد فقلبى اليوم متبول
متيم اثرها لم يفد مكبول

وقد بلغت قصيدة البوصيرى ٢٠٦ بيت فكانت أطول من قصيدة كعب ومنها :

الى متى أنت باللذات مشغول
وأنت عن كل ما قدمت مسئول
فى كل يوم ترجى أن تتوب غدا
وعقد عزمك بالتسويف محلول
أما يرى لك فيما سن من عمل
يوما نشاط وعما ساء تنكيل
فجرد العزم ان الموت صارمه
مجرد بيد الآجال مسلول
واقطع حبال الأمانى التى اتصلت
فانها حبلها بالزور موصول
انفقت عمرك فى مال تحصله
وما على غير اثم منه محصول
درجت تعمر دارا لابقاء لها
وأنت عليها وان عمرت منقول
تبين الربح والخسران فى أمم
تخالفت بينها الأقاويل (١١٥)

كما عارض هذه القصيدة العزازى بقصيدته :

---

(١١٥) ديوان البوصيرى .

دمى باطــلال ذات الخـال مطـلول

وجيش صبرى مهـــزوم ومغلول (١١٦)

وعارضها ابن نباتة بقصيدة يقول فيها :

ما الطرف بعدكم بالنــوم مكحول

هذا وكم بيننا من ربعكم ميل (١١٧)

وشغلت قصيدة أبى تمام في فتح عمورية كثيرا من المتأدبين اذ عدوها مثلا أعلى فيما ينظم من أشعار الحماســة والحرب وربما زاد من شغل الناس بهذه القصيدة أن العصر كان عصر حروب وغزوات وأنهم كانوا فى تشـــوق الى انتصار باهر كذلك الذى تصوره بائية أبى تمام (١١٨) . وعـــارض هذه القصيدة شهاب الدين محمود بقصيدته التى يصف فيها فتح عكا :

الحمـد لله زالت دولة الصــلب

وعز بالترك دين المصطفى العربى(١١٩)

وأما المتنبى فكان لشعره القدح المعلى فى هذا المجال يدل على ذلك ما نراه من كثرة معارضات الشعراء لقصائده . يقول العزازى يعـــارض ميمتــه :

واحـــر قلباه ممن قلبـــه شـــيم

ومن بجسمى وحالى عنده ســـقم

---

(١١٦) فوات الوفيات ١/ ٩٥ .

(١١٧) الديوان : ٣٧٢ .

(١١٨) المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى : ٣٨٠ .

(١١٩) تاريخ ابن الفـرات ٨/ ١١٥ .

بقصيدة يمدح بها قلاوون يقــول فيها :

أمضيت ما خطه من نصــرك القــلم
فيـــالها من دونها النغم (١٢٠)

وعارض شهاب الدين محمود ميميته :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم
وتأتى على قــدر الكرام المكـــارم

بقصيدة يمـــدح بيبرس يقــول فيها :

كذا فلتكن فى الله تمضى العـــزائم
والا فلا تجفـــو الجفــون الصوارم

وعارض ابن نباته قصـــيدته :

أرق عــلى أرق ومثـــلى يـــأرق
وجـــوى يزيد وعبـــرة تتـــرقرق

بقصيدة يقول فيها :

ما بت فيـــك بدمع عين اشرق
، الا وأنت من الغـــزالة اشرق (١٢١)

---

(١٢٠) الديوان :٧٠٠ – النجوم الزاهرة ١٧٠/٧ .
(١٢١) الديوان : ٣٣٨ .

وكان الشعراء يرون فى هذه المعارضات امتحانا لمقدرتهم واثبـــاتا لبراعتهـــم ٠

وشبيه بهذه الظاهرة ظاهرة التضمين او الايداع وتتمثل فى أن يودع الشاعر شعره بعض شعر غيره ، وقد عد نقاد العصر ذلك الصنيع من مظاهر الجمال وصنفوه ضمن ألوان البديع وكان الشعراء يفخرون بهـذا يقــول أحدهم :

اطـــالع كـــل ديـــوان اراه
ولم ازجـر عن التضمين طيــرى
أضـــمن كـل بيت فيـــه معنى
فشعرى نصفه من شعر غيرى (١٢٢)

وقد حاكى بعض الشعراء فى العصر المملوكى القدماء فى فخامة الشعر واصطناع الجزالة ومن ذلك قول عمر بن عيسى مجير الدين اللمطى :

وما الشـــعر ممـــا ارتضى كنيتى به
لعمرى ولا وصفى به فى المحـافل
ولا قلتـــه كى ابتغى بمقـــــاله
هنـــالك أن اجـــزى عليه بنـــائل
ولكن دعتنى شـــيمة مضـــرية
الى قولة معروفة فى القبائل (١٢٣)

كذلك ضمنوا أشعارهم الأمثال العربية القديمة ٠

---

(١٢٢) خزانة الادب : ٤٧٢ ٠
(١٢٣) الطالع السعيد : ٤٤٩ ٠

ومن الآثار الأدبية التى وجهت اليها عناية كبيرة رسالة ابن زيدون التى شرحها ابن نباته فى (سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون) بدأ الرسالة فترجم لمنشئها وبين سبب انشائها وتناولها فشرحها فقرة فقرة . وقد أحدث تأليفها ضجة كبرى فى الأوساط الأدبية فتناولها كثير من الأدباء بالتعليق والشرح منهم الصفدى الذى شرحها وسماها (تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون) .

ومن القصائد التى وجهت اليها عناية كبيرة لاميتى العرب والعجم والأولى تتبوأ فى تاريخ الشعر العربى منزلة تزاحم منزلة المعلقات من حيث الشهرة وعناية العلماء بها وهى منسوبة للشنفرى أحد الشعراء الصعاليك فى الجاهلية . وترتفع هذت القصيدة الى ما ارتفعت اليه قصيدة كعب بن زهير بانت سعاد (غير أنها لم تعتمد فى شهرتها مرتكزا دينيا كقصيدة كعب بل بلغت ما بلغته بفضل ما فيها من جودة الشاعرية وطرافة المشاهد المصورة ووفرة المادة اللغوية التى أغرت العلماء بشرحها واعرابها) (١٢٤) .

وأما لامية العجم فقد عارض بها الطغرائى لامية العرب وسماها لامية العجم لتمييزها عن الأولى ولامية العرب للشنفرى مطلعها :

أقيمو ابنى أمى صدور مطيكم
فانى الى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر
وشدت بطيات مطايا وارحل
وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متعزل

---

(١٢٤) شرح لامية العرب لابى البقاء عبد الله بن الحسين العكبرى ت ٦١٦ هـ ، مقدمة المحقق د. محمد خير الحلوانى نشر دار الافاق ـ بيروت .

لعمرك ما بالأرض ضيق على امرىء
سرى راغبا أو راهبا وهو يعقـل (١٢٥)

ولامية العجم مطلعها :

أصـــالة الرأى صـــانتنى عن الخطـل
وحليـــة الفضـل زانتنى لدى العطل
مجدى أخيرا ومجدى أولا شـــرع
والشمس راد الضحى كالشمس فى الطفل
فيم الاقـــامة بالزوراء لا ســـكنى
بها ولا ناقتى فيهـا ولا جملى (١٢٦)

وكثر فى العصر المملوكى معارضة لامية العجم كما خمست أكثر من تخميس وصدر حولها أعمال منها التصدير والاعجاز (قلب الأبيات) (١٢٧)٠

كما شرحت أكثر من شرح أشهرها ما قام به الصلاح الصفدى عام ٧٦٤ هـ باسم الغيث المسجم فى شرح لامية العجم وجعله فى جزئين ٠ كما شرحها محمد بن أبى بكر الدمامينى سنة ٨٢٧ هـ وهو نقد لشرح الصفدى بعنـوان نزول الغيث ٠ ونقد هذا الشرح على بن محمد الأقبرسى ت ٨٦٢ هـ ٠ كما اختصر شرح الصفدى أكثر من مؤلف فى هذا العصر منهم محمد بن موسى الدميرى ت ٨٠٨ هـ ٠ وهناك مختصر من مختصر الدميرى لمحمد بن خليـل الكازرونى وغير ذلك كثير ٠

---

(١٢٥) نفسه ١٦ ، ١٧ ٠

أقيموا صدور مطيكم أى انتهوا من غفلتكم واسلكوا الطريق الصحيحة والاصل فيه أن الراكب يغفل عن مطيته فتنحرف به عن القصد فيقال له أقم صدر مطيتك ٠

(١٢٦) الغيث المسجم فى شرح لامية العجم ١/ المقدمة ط بيروت ٠

(١٢٧) تاريخ الادب العربى بروكلمان ٥/٧ ـ ١١ ٠

ملامح النقد الأدبي في العصر المملوكي

ونحن نعلم أن النقاد يعبرون عن مزاج عصرهم وذوق معاصريهم ، والأدباء كتاب وشعراء يحاولون أن يكون أدبهم منسجما مع ذوق النقاد فيبتعدون عما ينفرون منه وفى الغالب يكون أدبهم مطبوعا بطابع نقادهم ،

واذا حاولنا أن نحدد المميزات الخاصة بالنقد المملوكي وجدنا أهمها غلبة الذوق البديعي عليه واستحواذه على الأدباء والنقاد جميعا وكان ولوعهم بالمذهب البديعي يرجع الى تأثرهم بالقاضي الفاضل ت ٥٩٦ هـ فهو الذى استن للإسلوب سنة تقوم على الاكثار من المحسنات وبخاصة السجع والجناس والطباق مع الغلو فى التورية والاستخدام والامعان فى التشبيه والاستعارة وترادف الأوصاف والألقاب والتلميح الى الحوادث الماضية والنوادر الأدبية والتوجيه بالمصطلح العلمى ونحوه والابهام الذى يحتمل معنيين متضادين وتضمين المأثور والاقتباس من القرآن والحديث ٠٠ الخ (١٢٨) ،

وكان هذا هو الطابع الغالب على أدب العصر المملوكي مع الميل الى السهولة والوضوح فى الأساليب ،

وقد احتذى كثير من الأدباء طريقة القاضى الفاضل ومنهم على سبيل المثال ابن نباتة ت ٧٦٨ هـ شاعر مصر وأديبها واتجهت عنايته الى اجادة التورية والتضمين فى شعره ونثره على السواء كما عنى بالجناس وأخرجه مخرج التورية وولد من الطريقة الفاضلية طريقة جديدة أطلق عليها اسم الطريقة النباتية وكان لها أتباع كثيرون تعصبوا لها وساروا على هديها ،

هذا الى جانب تأثرهم بالنقاد القدماء ، كما أن هذا العصر زخر بعدد

---

(١٢٨) عصر سلاطين المماليك ١١٤/٦ بتصرف ،

كبير من النقاد الذين كتبوا فى مقاييس جودة الأدب وقضايا النقد ، واذا كانت أكثر قضايا النقد العربى قد طرحت من قبل وتناولها النقاد بالبحث والحوار والدراسة ودارت خصومات كثيرة حولها فان ذلك لم يمنع أهل هذا العصر من الدلو بآرائهم ملائمين بين الأدب والبيئة ومضيفين بعض التجـــديدات التى تعبر عن أصالتهم وتمثل طبيعة عصرهم وثقافته وذوقه · يقول السبكى فى الشعر الذى يستشهد به فى مجالس العلم ويتضح من قوله المقاييس التى يرتضيها للحكم بجودة الشعرومن ذلك : (ينبغى أن يذكر من الأشعار ما هو واضح اللفظ صحيح المعنى مشـــــتملا على مدائح سيدنا ومولانا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ذكر الله تعالى وآلائه وعظمته وخشية مقته وغضبه وذكر الموت وما بعده وكل ذلك حسن وأهمه مدح النبى صلى الله عليه وسلم وان اقتصر المنشد على ذكر أبيات غزلية أو حماسية فقد أســاء ولا سيما اذا كان فى مجالس الجامع) (١٢٩)·

فوضوح اللفظ وصحة المعنى ومراعاة الدين ومدح رسول الله عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم مع ذكر آلاء الله ونعمه والوعظ والنصيحة وذكـر الموت وما بعده هو ما ينبغى أن يعنى به الشاعر · واذا كنا قد لاحظنـــا من قبل أن الأدب اتسع مجاله وأصبح الكاتب شاعرا ولغويا ونحويا فنضيف هنا أن أديب هذا العصر كان ناقدا وأن النقد امتزج امتزاجا تاما بالبـلاغة وكما ظهرت المعارضات فى الأدب ظهرت المؤلفات التى تتناول كتب النقـــد السابقة والمعاصرة بالتقويم وبيان ما فيها من وجوه الجودة والرداءة أو الكمال والنقص ·

ومن أمثلة هذه الكتب كتاب (الفلك الدائر على المثل السائر) ألفــه ابن أبى حديد ت ٦٥٦ هـ ليرد به على كتاب (المثل السائر فى أدب الـكاتب والشاعر) ذلك أنه وجد فى هذا الكتاب الجيد والردىء أو المحمود والمردود ·

---

(١٢٩) معيد النعم ومبيد النقم تاج الدين السبكى ١٥٧ ·

أما المحمود فهو انشاء ابن الأثير وصناعته الا فى الأقل النادر وأما المردود فنظره وجدله واحتجاجه وتحامله على الفضلاء وافراطه فى الاعجـــاب بنفسه والتقريظ لعلمه وصناعته كما الفه ليبين لمن راقهم كتاب المثل السائر من أكابر أهل الموصل وبغداد ما فى الكتاب من وجوه النقص وألوان المآخذ. وان يعلم ابن الأثير ورؤساء بلده أن فى خدم الخليفة المستنصر بالله من يفوقه علما وافتنانا (١٣٠) .

ومن كبار نقاد هذا العصر وكتابه وشعرائه شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبى ثم الدمشقى ت ٧٢٥ وهو من أتباع الطريقة الفاضـــلية وعاش فترة من حياته بالقـــاهرة وقال عنه الصلاح الصفدى (هو أحد الكملة الذين عاصرتهم ولم ير من يصدق عليه اسم الكاتب غيره لأنه كان ناظما ناثرا عارفا بأيام العرب وتراجمهم ومعرفة خطوط الكتـــاب مع الأدب الكثير والديانة والعلم والرواية) (١٣١) .

ومن أهم كتبه كتاب (حسن التوسل الى صناعة الترسل) وفيه يتجلى منهجه النقدى وقواعده الفنية واسم الكتاب يوحى بموضوعه وينم عنه اذ أراد فيه مؤلفه أن يبين للناشىء المتأدب أفضل الوسائل وانجع الطرق التى بهـــا يستطيع ان يكون كاتبا ومنشئا ويبرز له الأدوات التى ينبغى أن يجتازها والمزايا التى عليه أن يتحلى بها ليسلك فى عداد الأدباء المنشئين قال موضحا سبب تأليفه (فانه لما جعل الله فى كتابة الانشاء رزقا باشرت بسببه من وظائفها ما باشرت وعاشرت من أجله من أكابر اهلها وأئمتها من عاشرت ورأيت من مذاهبهم فى أساليبهم ما رايت ورويت عنها من قواعدها بالمجاورة والمحاورة ما رويت واطلعت فيها بكثرة المباشرة على طرائق والجئت فيها باختـــلاف الوقائع الى مضـــايق ونشـــأ لى من الـــولد ولد الولد من

---

(١٣٠) النقد الادبى فى العصر المملوكى ٥٨

(١٣١) مدخل منهاج البلغاء ٧٥ ـ ٧٦ . ٤

عاناها ٠ وترشح لها من بنى من لم أرض له بالتلبس بصورتها دون التحلى بمعناها فأحببت أن أضع لهم ولمن يرغب فى ذلك فى هذه الأوراق من فصولها قواعد وأقيم لهم فيها على ما لا يسمع الجهل به من أصولها وفروعها شواهد ليأتوا هذه الصناعة من أبوابها ويعلموا من طرقها ما هو الأخص بأوضاعها والأولى بها) (١٣٢) ٠

وقد تناول فى كتابه بالدراسة بعض المسائل التى تهم النقد فتحدث عن ثقافة الكاتب ورأى أنها تنقسم الى قسمين عامة وخاصة فأما الثقافة العامة فرتبها حسب أهميتها وقيمتها من هذه الصناعة وهى :

ـــ حفظ كتاب الله تعالى وملازمة درسه حتى يبقى مصدرا فى فكره ويظل دائرا على لسانه وينتفع به فى كل ما يعرض له قال تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (١٣٣) ٠

ـــ الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية والنظر فى معانيها وغريبها وفصاحتها وفقه ما يجب معرفته من أحكامها ليحتج بها فى مكان الحجة ويستدل منها بموضوع الدليل ٠

ـــ قراءة ما يتفق من كتب النحو التى يحصل بها المقصود من معرفة العربية (١٣٤) ٠

ـــ قراءة ما يتهيأ من مختصرات اللغة وكتب الألفاظ ليتسع عليه

---

(١٣٢) مقدمة الكتاب ٠
(١٣٣) حسن التوسل ، ٣١ ، سورة الانعام آية ٣٨ ٠
(١٣٤) حسن التوسل : ٤

مجال العبارة وينفتح له باب الأوصاف فيما يحتاج الى وصفه ويضطر الى نعتـه (١٣٥) .

— حفظ الخطب وقراءة ســائر فنــون النثر والتمــرس بالآثار الأدبيــة (١٣٦) .

— حفظ أشعار العرب القــدماء ومطــالعة شروحها واستكشاف غوامضها والتوفر على ما اختاره العلمــاء منها كالحمــاسة والمفضليات والأصمعيات وديوان الهذليين وحفظ جانب من أشعار المحدثين (١٣٧) .

— النظر فى أيام العرب ووقائعهم وحروبهم وتسمية الأيام التى كانت بينهم ومعرفة أيام كل قبيلة على الأخرى وما جرى بينهم فى ذلك من الأشعار والمناقضات وكذلك النظر فى التواريخ ومعرفة أخبار الأمم (١٣٨) .

— النظر فى كتب الأمثال الواردة عن العرب نظما ونثرا كأمثال الميدانى والمفضل الضبى وحمزة الأصفهانى وأمثال المولدين والمحدثين (١٣٩)

والمؤلف يرى أن هذه الأمور عامة أو كلية لابد أن يحذقها الكاتب حتى يكون قادرا على مزاولة صناعة الكتابة يقول (فهذه أمور كلية لابد للمترشح لهذه الصناعة من التصدى لها والاكباب على مطالعتها والاستكثار منها لينفق من تلك المواد . وليسلك فى الوصول الى صناعته تلك الجواد والا فليعلم أنه فى واد والكتابة فى واد) (١٤٠) .

---

(١٣٥) ن . السابق : ٥

(١٣٦) ن . السابق : ٥

(١٣٧) ن . السابق : ٧ .

(١٣٨) السابق : ٨ .

(١٣٩) السابق : ٩ ، ١٠ .

(١٤٠) ن. السابق : ١٧ .

والى جانب هذه الثقافة العامة يحتاج الكاتب الى الذهن الثاقب والطبع السليم والقريحة المطاوعة وأن يكون متقنا لعلم المعانى والبيان والبديع والكتب المؤلفة فى اعجاز الكتاب العزيز ككتب الجــــرجانى والرمانى والخفاجى وابن الأثير ٠

والمؤلف يكثر من الأمثلة والشواهد فى خلال حديثه عن الألوان البلاغية كما يعقد فصلا تحت عنوان (القول فى النظم) يتكلم فيه عن الايجاز والأطناب وهو يوجه الأدباء الى العناية بالمعانى ونراه يميل الى عدم الاطالة او الايجاز المخل وعقد فصلا للجناس تحت عنوان القول فى التجنيس تكلم فيه عن أنواع الجناس كالتام والناقص والمركب ويقول فيه (وانما يحسن الجناس اذا قل وأتى فى الكلام عفوا من غير كد ولا استكراه ولا بعد ولا ميل الى جانب الركة ولا يكون كقول الأعشى :

وقـــد غـدوت الى الحـــانوت يتبعنى
شـــاو مشل شلول شلشل شول

ورأيه هذا يدل على عنايته بالمعنى وعدم الغلو فى استخدام المحسنات والزخرفة بكثرة وهو فى آرائه فى الجناس متأثر برأى عبد القاهر الجرجانى ٠

وقد كان الجناس فى هذا العصر مثار جدل ونقاش وأداة فرقة وانقسام بين الأدباء فمنهم من يدعو اليه ويتعصب له مثل الصفدى الذى ألف فيه كتابه (جنان الجناس) ومنهم من ينفر منه ويعتبره محسنا لفظيا لا معنويا ولا يقبل عليه الا اذا كان لتحسين المعنى منه نصيب وكان هذا الرأى هو رأى الشهاب محمود الحلبى ٠

وهو يدعو الى المطابقة بين الكلام ومقتضى الحال كما يدعو الى الابتكار

فى المعنى وتجنب التكرار وتحاشى السرقة كما تحدث عن حل المنثور والمنظوم وهو يدل على سعة اطلاع المنشىء واحاطته بالأدب شعره ونثره والحل يكون على نوعين حل ألفاظ وحل معان · والحل يشبه بالتضمين والتلميح وهـو يحتاج الى طبع قوى وقريحة جيدة ·

كما نصح من يتصدى للكتابة الديوانية بنصائح ليجيد صناعته · وهذا قليل من كثير ورد فى كتاب حسن الترسل الذى أفصح عن ثقافة العصر ووجهة نظر الناقد ·

ومن نقاد العصر المملوكى ابن الأثير الحلبى المصرى ت ٧٣٧ هـ (١٤١) وهو مؤلف كتاب (كنز البراعة فى أدوات ذى البراعة) وأهمية الكتاب ترجع الى عنايته بما يحتاج اليه كاتب الانشاء من العلوم والفضائل ·

ومن الجدير بالذكر فيهحديث الأوصاف والنعوتكما أن المؤلف يعد منأحسن من وضع مقاييس جودة أغراض الشعر المختلفة وخاصة فنى المدح والهجاء فهو يعرفهما ويحدد عناصر كل منهما ويلم بالفروق الدقيقة التى تبقى بعـد تقابلهما ويضبط مقاييس جودتهما وهى مقاييس كثيرة ومختلفة باختلاف المقامات والأشخاص ويتعرض فى أثناء ذلك كله لكثير من حقائق اللغـة وأسرار الفن (١٤٢) يقول :

(الهجاء ذكر المساوىء كما أن المديح ذكر الفضائل فان أضيفت الفضائل الجسمية الى الانسانية والفضائل الاتفاقية أيضا كان أكمل فى المدح وكذلك الهجاء انما هو حقيقة الرذائل الانسانية فان أضيفت اليها النقائص والعيوب الجسمية والاتفاقية كان ذلك أبلغ فى الذم ومثلما أن الاقتصار فى المـديح

---

(١٤١) النقد الادبى فى العصر المملوكى : ٣٦٦ ·

(١٤٢) جواهر الكنز ورقة ٦١/ نقلا عن النقد فى العصر المملوكى ٣٦٦ ·

على الأوصاف الجسمية عيب فكذلك فى الهجاء لكن التعريض فى الهجـاء أبلغ من التصريح والأمر على العكس فى المديح ؛ ويستحب فى الهجاء ألا يكون فى ظاهره فحش يتحاماه صاحب الدين والمروءة كما يستحب أن يكون موجزا قصير العروض سهل اللفظ ، ومتى أتى الشاعر فى شعره بالقذف والافحاش والسباب دل ذلك على لؤمه وخساسته ومن يصدر ذلك منه من الشعراء فقد هجا نفسه قبل المهجو واشتهر بين الناس ببذاءة اللسان وطلب الأعراض ٠

كما تحدث عن صناعة الانشاء وباب فى حل الشعر وحل آيات القرآن وتكلم عن البديهة والارتجال ورأى أن البديهة فيها فكر وتأن والارتجال ما كان انهمارا وتدفقا لا يتوقف ويرى أن أهم ركن فى الشعر هو القصد وأن عمل الشعر يحتاج الى شحذ القريحة (١٤٣) ٠

ومن نقاد العصر المملوكى صفى الدين الحلى ت ٧٥٠ هـ وكان شاعرا وكاتبا الا أن شهرته فى الشعر كانت هى الغالبة وعده النقاد والباحثون أشعر شعراء عصره لما امتاز به شعره من خصائص وسمات على صعيدى المعانى والألفاظ (١٤٤) ٠

ومن أشهر شعره بديعيته التى أطلق عليها الكافية البديعية فى المدائح النبوية وتقع فى مائة وخمسة وأربعين بيتا التزم فيها بحر البسيط وروى الميم المكسورة وأنشأها معارضا بها بردة البوصيرى وهى مثلها فى مديح النبى صلى الله عليه وسلم وقد ضمن كل بيت فيها نوعا أو أكثر من أنواع البديع ومطلعها :

---

(١٤٣) ن٠ السابق ٠
(١٤٤) فى أدب العصور المتأخرة د٠ ناظم رشيد ٨٩ ٠

ان جئت سلعا فسـل عن جيـرة العلم
واقـر السلام على عرب بذى سلم

يقول مشيرا الى أسلوبه فى نظم بديعيته (وألزمت نفسى فى نظمهـا عدم التكلف وترك التعسف والجرى على ما أخذت به نفسى من رقة اللفظ وسهولته وقوة المعنى وصحته وبراعة المطلع والمنزع وحسن المطلب والمقطع وتمكن قوافيها وعـدم الحشـو فيها بحيث يحسـبها السامع غفـلا من الصـنايع (١٤٥) ٠

والحقيقة أن الحلى كان من اشد انصار مذهب السهولة فى الأدب فاتخذه مذهبا ومقياسا نقديا يقيس به ما يعرض عليه من شعر وكما أشرت من قبل فان هذا المذهب كان يمثل غالبية ذوق العصر ٠

وهو يستنكر وينفر من التكلف والغرابة وذكر فى ديوانه هذه القصة يوضح بها مذهبه فقال : قيل أن أحد الفضلاء سمع شعره فانتقده قائلا لا عيب فيه سوى قلة استعماله للغة العربية فرد عليه الحلى بقصيدة طويلة توضح مذهبه جاء فيهـا :

إنمـا الحيـزبون والدردبيس
والطحـا والنقـاخ والعلطبيس
والحراجيخ والشـقحطب والصـقعب
والعنقفيـز والعنتـريس
والغطـاريس والعفنقس والعفـلق
والجـربضيض والعيطمـوس

---

(١٤٥) النقد فى العصر أملوكى ٢٨٤ عن النتائج الالهية ورقة ٤٠ ٠

لغـــة تنفـــر المســـامع منهـــا
حين تروى وتشـــمئز منها النفوس
وقبيح أن يذكر النـــافر الـوحشى
منهـــا ويتـــرك المأنـــوس
أين قـــولى هذا كثيب قـــديم
ومقـــالى عقنقـــل قـــدموس
لم نجـــد شـــاديا يغنى قفـــانبك
على العـــود إذ تدار الكئـــوس
درســـت تلكـــم اللغـــات وأمسى
مذهب النـــاس ما يقـــول الرئيس
انمـــا هـــذه القـــلوب حـــديد
ولذيذ الألفـــاظ مغنـــاطيس (١٤٦)

والحلى عـــراقى الا انه متـــأثر بالروح المصرية فى ميلهـــا الى السهولة والعذوبة والوضوح ودعا الى السهولة خاصة فى الوصف والغزل والمجون والمطارحات والمراسلات والمعارضات والمناقضات والموشحات ..

وصلاح الدين الصفدى كان مولعا بالبديع وقد تحدث عن قيمته فى كتابه (جنان الجناس) ومدحه وخاصة الجناس قال (وبعد فلما كان فـن البديع فى الزمن المتأخر أحسن وأوضح لمعة وأملح طلعة وأكثر رواية وسعة تبنى به بيوت الشعر فى أشرف بقعة وتبرز أبكار الأفكار منـه فى خلعـة بعد خلعة . واذا كان الشعر بحرا فهو منه أعذب جرعة خصوصا ركـن التجنيس الذى هو ركن شرعته وديباجة صنائعه فى صنعته وآية سجدته وغاية سجعته تشهد الخطباء له بفضل جماعته وجمعته وتعترف الشعراء برفع محله ومحل رفعته وتدخل من الألفاظ الفصيحة الأذن بغير اذن لشفاعة حقه وحق

(١٤٦) ديوان الحلى : ١٨ .

شفعته فهو فى البديع حال هذه وطراز برده وفص خاتمه وجود خاتمه متى عد فى القصيدة بيت كان الجناس طرازه ومتى طاف بالبلاغة متكلم كانت أركانه كعبته ... الخ (١٤٧) .

وكما نرى فان الصفدى لا يروج سوق الجناس وحده وانما يدعو الى استعمال كل الأنواع البديعية ومن ذلك ما يراه من أن الأناة التى يستند عليها السجع تعصم صاحبها من العجلة وهى لهذا تضمن له السلامة والجودة وعلى حد قوله ان لى بالسجع درعا من الصبر (١٤٨) .

ومن نقاد العصر المملوكى ابن نباته المصرى ت ٧٦٨ هـ وقد ذكرنا من قبل انه تأثر بالطريقة الفاضلية وانشأ الطريقة النباتية التى هى امتداد للطريقة الفاضلية وتقوم أيضا على الغلو فى البديع ولابن نباته كتاب فى النقد الأدبى أطلق عليه اسم (خبز الشعير) وفيه يذكر سرقات الصفدى لاشعاره ومعارضته لبعض قصائده . يقول فى مقدمته (انه ليس للصفدى من جيد الأشعار لمعة الا ومن لفظه مشكاتها) (١٤٩) .

وسماه خبز الشعير لأنه ماكول مذموم فقوله ماكول لأنه سرق شعره وقوله مذموم لأنه زعم أنه يسرق غيره من الشعراء فهو بذلك قد استوفى حقه المثل العربى والمثل هو الشعير يؤكل ويذم وقد ضرب هذا المثل لكل من ينتفع به ويجازى بالقبيح ذلك أن الشعير يؤكل فيسمن ويغنى من جوع وهو مذموم (١٥٠) .

والكتاب غير موجود وقد ذكره ابن حجة الحموى فى خزانته ومن

---

(١٤٧) جنان الجناس : ٧ .
(١٤٨) الغيث المسجم ١/٧ .
(١٤٩) زانة الادب : ١٥ .
(١٥٠) امثال الميدانى ١/٣٣٤ .

مقدمته التى ذكرها ابن حجة قوله (بلغنى أن بعض أدباء عصرنا ممن منحته ودى وأنفقت على ذهنه الطالب ما عندى وأقمته وهو لا يدرى الوزن مقام من زكاه نقدى وأودعته ذخائر فكرى فانفقها وأعرته أوراقى العتيقة فلا والله ما ردها ولا أعتقها بل انه والله غير الثناء بالهجاء والولاء بالجفاء ونسبنى الى سرقة بيوت الأشعار مع الغناء عنها والغنى فتغاضيت وقلت همـــاز مشاء بنميم وغصته اتجرعها من حميم وأخليت من حديثه باب فمى ومجلس صدرى وصرفت ذكره عن فكرى ولكن وقفت له على تصانيف وضعها فى علم الأدب والعلم عند الله تعالى ووشحها بشعره وشعرى المغصوب المنهوب يقول صاحبى الا لا وما يتوضح من جيد تلك الأشعار لمعة الا ومن لفظى مشكاتها ولا تتضوع زهرة الا وفى الحقيقة بناتها فضحكت والله من ذهنه الذاهل وذكرت على ما زعمه قول القائل :

وفتى يقــول الشــعر الا انه فيما علمنا يسرق المسروقا

وعجبت كيف رضى لنفسه هذا الأمر منكرا وكيف حلا لذوقه اللطيف هذا الحرام مكررا) (١٥١) .

ويتضح من هذه المقدمة أن صلاح الصفدى كان تلميذا لابن نباته ثم سرق شعر أستاذه وادعى أن أستاذه هو السارق فكان هذا سبب تأليف كتاب خبز الشــعير .

ورتب إبن نباتة كتابه على قوله قلت أنا فأخذه الشيخ صلاح الدين ، والكتاب يعرض لقضية من أهم قضايا النقد العربى وهى قضية السرقات ولقد كانت هذه القضية من أهم ما عنى به نقاد العصر المملوكى وقد يكون الذى الجاهم الى ذلك هو ولوعهم بالايداع والتضمين والاقتباس فأصـــبح جـل

---

(١٥١) خزانة الادب : ١٥ .

كلامهم من كلام غيرهم وفى هذا العصر تساهلوا فى السرقات ومن ذلك ما نراه من رأى الصفدى فيها اذ انه لا يحكم بها الا اذا شمل الأخذ كل المعنى ومعظم اللفظ (١٥٢) .

وقد ضمن النقاد كتبهم مباحث عن السرقات أدلوا فيها برأيهم فى هذه القضية كما تعقبوا سرقات الشعراء المعاصرين ومن ذلك عناية ابن حجة به فى خزانته وايراده الكثير من الأمثلة منها فى براعة الاستهلال . على أن ابن حجة نفسه تعقبه أكثر من أديب ومنهم شمس الدين النواجى اذا أفصح عن سرقاته فى كتابه (المحاجة فى سرقات ابن حجة (١٥٣) .

والملحوظ أن النقاد لم يتتبعوا الا السرقات الشعرية (١٥٤) .

ومن نقاد العصر المملوكى عبد الرحمن بن خلدون وهو تونسى الأصل عاش بمصر من ٧٨٤ ـ ٨٠٨ هـ وأعظم آثاره مقدمة كتابه تاريخ العبر فى أخبار العرب والعجم والبربر وقد أودع هذه المقدمة خلاصة ذهنه وعصارة عقله وابتدع فيها قوانين العمران ، وما يهمنا من هذه المقدمة هو الآراء النقدية التى أدلى فيها برأيه ونقده أسلوب معاصريه وعدم موافقتهم فى اتباع الأسلوب البديعى وهو الأسلوب الذى شاع فى كتابة هذا العصر .

وقد بدأ ابن خلدون بنفسه فبرأ أسلوبه من المحسنات البديعية والقيود اللفظية فجاء أسلوبه سهلا خاليا من التكلف مرسلا وقد شن حملة شعواء على أسلوب معاصريه ، قال فى مقدمته تحت عنوان فصل فى انقسام الكلام الى فنى النظم والنثر . (واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون ـ يعنى فنون الشعر والنثر أساليب تختص به عند أهله ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل

---

(١٥٢) الغيث المسجم فى شرح لامية العجم ٢٣٦/١ ـ ٢٤٢ .
(١٥٣) عصر سلاطين المماليك ١٢٢/٦ .
(١٥٤) ن . السابق بتصرف .

فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك ·

وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدى الأغراض وصار هذا المنثور اذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا الا فى الوزن واستمر المتـأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها فى المكاتبات السلطانية وقصروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه وخلطوا الأساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصا أهل المشرق ·

وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذى أشرنا اليه وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ فى تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب ·

وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه · اذ أساليب الشعر تباح فيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل والاطناب فى الأوصاف وضرب الأمثـــال وكثرة التشبيهات الاستعارات ، حيث لا تدعو لذلك كله ضرورة فى الخطاب · والتزام التقفية أيضا من اللوذعة والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عـن الملوك بالترغيب والترهيب ينافى ذلك ويباينه · والمحمـــود فى المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا فى الأقل النادر وحيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له ثم اعطاء الكلام حقـــه فى مطابقته لمقتضى الحال فان لكل مقام أسلوب يخصه من اطناب أو ايجاز أو حذف أو اثبات أو تصريح أو اشارة وكناية واستعارة ·

وأما اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذى هو على أساليب الشعر فمذموم · وما حمل عليه أهل العصر الا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن

الكلام المرسل لبعد أمده فى البلاغة ولنفساح خطورته وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر على التزيين بالاسجاع والألقاب البديعية ويغفلون عما سوى ذلك وأكثر من أخذ فى هذا الفن وبالغ فيه هم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى أنهم ليخلون بالاعراب فى الكلمات والتصريف ، اذا دخلت لهم تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الاعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس فتأمل ذلك وانتقد بما قدمناه لك تقف على صحة ما ذكرناه (١٥٥) ٠

ومن أهم فصول المقدمة فصل خاص بصناعة الشعر ووجوه تعلمه ، وابن خلدون يمثل رأى المخالفين لمذهب البديع ٠

أما الذى يمثل غالبية ذوق العصر أو الذوق البديعى فهو ابن حجة الحموى ت ٨٣٧ هـ صاحب خزانة الأدب ولب لباب العرب وقد ألفه ليشرح به بديعيته التى أسماها تقديم أبى بكر ومن مؤلفاته ثمرات الأوراق وبروق الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم وتأهيل الغريب وكشف اللثام عن التورية والختام ٠ ويعد كتاب خزانة الادب أهم كتبه النقدية وقد ضمنه كل أرائه النقدية علاوة على شعره ونثره كما ذكر فيه كتبا لغيره مثل كتاب خبز الشعير لابن نباتة ، وتلطيف المزاج من شعر ابن حجاج لابن نباتة أيضا ، وقيمة هذا الكتاب ترجع الى أنه يعد المرآة العاكسة لصورة الأدب ونقده فى العصر المملوكى ويتضح ميله الشديد الى البديع بأنواعه وتأثره بالطريقة الفاضلية والنباتية ٠ وابن حجة الحموى أهم مميزاته أنه ناقد وخزانته تعد أكبر دليل على ذلك وهى تجمع بين النقد الذى يعتمد على الذوق والنقد البلاغى الذى يقوم على قواعد البلاغة العلمية ٠

---

(١٥٥) المقدمة الفصل الثالث والخمسون فى انقسام الكلام الى فن النظم والنثر من ص ١٠٩٣ — ١٠٩٦ ٠

ونقد ابن حجة نقد عام يتناول الشعر والنثر معا ٠

ومن آرائه النقدية : رأية في براعة الاســـتهلال ويرى أنه ضرورة في الكلام سواء أكان شعرا أم نثرا يقول : (اعلم أنه اتفق علماء البديع على أن المطلع عبارة عن طلوع أهله المعاني واضحة في استهلالها وأن لا يتجافى بجنوب الألفاظ عن مضاجع الرقة ، وأنه يكون التشبيب بنسيبها مرقصا عند السماع ، وطرق السهولة متكفلة لها بالسلامة من تجشم الحزن ومطلعها مع اجتناب الحشو ليس له تعليق بما بعده ٠ وشرطوا أن يجتهد الناظم في تناسب قسميه بحيث لا يكون شطره الأول اجنبيا من شطره الثاني وقد سمى ابن المعتز براعة الاستهلال حسن الابتداء وفي هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع وان أخل الناظم بهذه الشروط لم يأت بشيء من حسن الابتداء وهو يكثر من الأمثلة وينقدها وينوه بحسنها أو وجوه نقصها وتقصير مؤلفها ومن ذلك قوله مشيرا الى تقصير صفي الدين الحلي في مطلع قصيدته الجيمية :

جـاءت لتنظر ما أبقت من المهج
فعطـــرت ســائر الأرجــــاء بالأرج

فالشطر الثاني ليس من جنس الشطر الأول ٠ فان الشطر الأول في الطريق الغرامية ليس له مثيل ٠ وينقد مطلع الشيخ برهان الدين القيراطي ويرى أنه مع حسنه وبهجته فيه نقص وهو :

قســـما بوردة خـــدها ونبـــاتها
وبآســـها المخضــــل في جنباتهــــا

فانه لم يأت بجواب القسم ولا ما يحسن السكوت على مطلعه ولا تتم الفائدة الا به ومشايخ البديع قرروا الا يكون المطلع متعلقا بما بعده من حسن الابتـــداء ٠٠٠٠ الخ ٠

ويقول : وقد فرع المتأخرون منه ــ (حسن الابتداء) ــ براعة الاستهلال فى النظم والنثر وفيها زيادة على حسن الابتداء فانهم شرطوا فى براعة الاستهلال أن يكون مطلع القصيدة دالا على ما بنيت عليه مشعرا بغرض الناظم من غير تصريح بل باشارة لطيفة تعذب حلاوتها فى الذوق القديم ويستدل بها على قصده من عتب أو عذر أو تنصل أو تهنئة أو مدح أو هجو .

وكذلك فى النثر فاذا جمع الناظم بين حسن الابتداء وبراعةالاستهلال كان من فرسان هذا الميدان وان لم يحصل له براغة الاستهلال فليجتهد فى سلوك ما يقوله فى حسن الابتداء .

وما سمى هذا النوع براعة الاستهلال الا لان المتكلم يفهم غرضه من كلامه عند ابتداء رفع صوته به . ورفع الصوت فى اللغة هو الاستهلال ، يقال استهل المولود صارخا اذا رفع صوته عند الولادة .. الخ .

وتكلم عن براعة الاستهلال فى النثر كما تكلم عن الجناس وعرفه وهو يستحسن السجع لأنه وان كان محسنا لفظيا يكسب العبارة بجرسه قوةويزيد المعنى بموسيقاه استقرارا فى النفس وتاثيرا فيها كما يعين على حفظ النص وترديده على الألسنة وهو يرى أنه ركن أساسى فى النثر كالقافية فى الشعر .

كما اهتم بالحديث عن التورية وكان متعصبا لها واعتبرها فى أعلى مراتب الأدب قال ابن حجة فى التورية ومكانتها فى عصره (التورية يقال لها الايهام والتوجيه والتخيير والتورية أولى فى التسمية لقربها من مطابقة المسمى لأنها مصدر وريت الخبر تورية اذا سترته واظهرت غيره كأن المتـــكلم يجعله وراء ظهره بحيث لا يظهر) وقال عن مكانتها فى العصور المتأخرة (وقع الاجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا الى افق التورية واطلعوا شموسها ومازجوا بها أهلالذوق السليم لما أداروا كئوسها وقيل: انالقاضى الفاضل هو الذى عصر سلافة التورية لأهل عصره وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى

نظمه ونثره فانه ـ رحمه الله تعالى ـ كشف بعد طوال التحجب ستر حجابها وأنزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها ·

وممن شرب من سلافة عصره وأخذ عنه وانتظم فى سلكه بفرائد دره القاضى السعيد بن سناء الملك ولم يزل هو ومن عاصره مجتمعين على درر كأسها ومتمسكين بطيب انفاسها الى أن جاءت بعدهم حلبة صاروا فرسان ميدانها والواسطة فى عقد جمانها كالسراج الوراق وأبى الحسين الجزار والنصير الحمامى وناصر الدين حسن بن النقيب والحكيم شمس الدين بن دانيال والقاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ·

وتحدث فى خزانته عن الاقتباس وقد انتشر انتشارا عظيما فى أدب العصر المملوكى · والاقتباس عند ابن حجة هو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية أو آية من آيات كتاب الله ·

ويقسم الاقتباس الى ثلاثة أقسام مقبول ومباح ومردود :

فالأول : ما كان فى الخطب والمواعظ والعهود ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ·

والثانى : ما كان فى الغزل والرسائل والقصص ·

والثالث على ضربين :

أحدهما ما نسبه الله تعالى الى نفسه · والآخر تضمين آية كريمة فى معنى هزل · وذكر ابن حجة أن البعض يعتبر تضمين الأحاديث النبوية اقتباسا كما أطلق آخرون نفس الاسم على مصطلحات العلوم المختلفة التى يستعيرها الشعراء أو الكتاب ·

وتحدث ابن حجة عن الطباق والمقابلة والاستخدام والايداع أى التضمين

قال عن هذا الأخير (هو أن يودع الناظم شعره بيتا من شعر غيره أو نصف بيت أو ربع بيت بعد أن يوطىء له توطئة مناسبة بروابط متلائمة بحيث يظن السامع أن البيت بأجمعه له وأحسن الايداع ما صرف عن معنى غرض الناظم الأول ويجوز عكس البيت المضمن بحيث يجعل صدره عجزا أو عجزه صدرا وقد تحذف صدور قصيدة بكمالها وينظم المودع صدورا لغرض اختاره وبالعكس ويجوز تضمين البيتين بشرط أن ينقلهما عن معناهما الأول الى صيغة اخرى) ٠

وقضية السرقات من أهم القضايا النقدية التى تناولها ابن حجة الحموى فى خزانته وهو يرمى كثيرا من أدباء عصره بهذا الداء ٠ ويرى أن السرقات الأدبية ليست كلها مذمومة بل هناك سرقات محمودة ويمثل لهذا النوع بما يسمى حسن الاتباع وتكون بأن يأتى المتكلم الى معنى اخترعه الغير فيحسن اتباعه فيه بحيث يستحقه بوجه من الوجوه التى توجب للمتأخر استحقاق معنى المتقدم ٠

ويرى أن المتأخرين نازعوا المتقدمين فى كل معانيهم وطلبوا الشركة معهم فيها ٠

وتحدث عن المواردة وعرفها بأن يتوارد الشاعران على بيت أو بعض بيت بلفظه ومعناه فان كان أحدهما أقدم من الآخر وأعلى رتبة فى النظم حكم له بالسبق والا فلكل منهما ما نظمه ٠

وذكر التوليد وهو اما فى اللفظ واما فى المعنى والذى فى اللفظ تركه أفضل من استعماله لأنه سرقة ظاهرة ٠

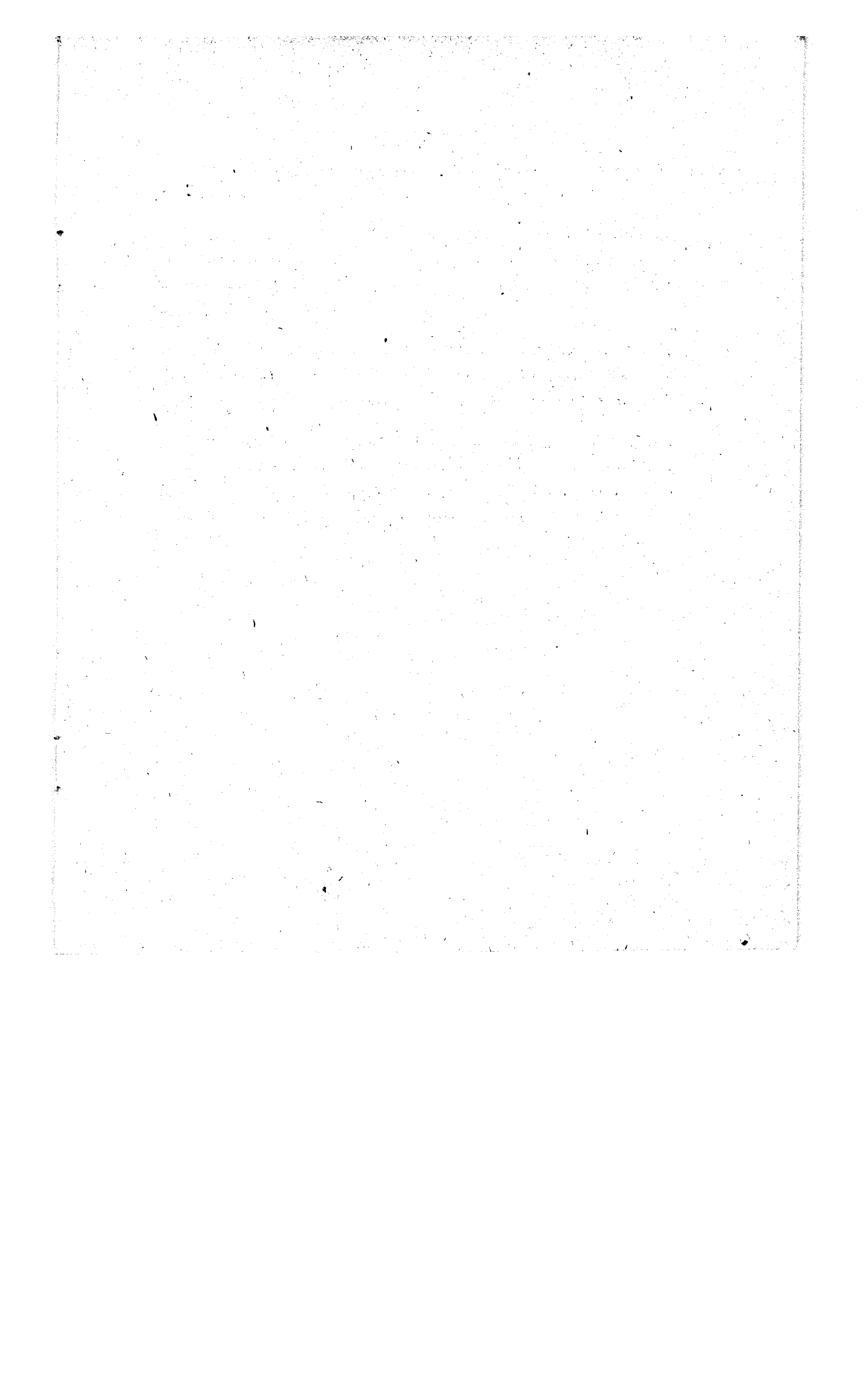
وهكذا ملأ ابن حجة الحموى خزانته بآرائه وآراء النقاد المعاصرين فى مقاييس جودة الشعر ونشعر من الأمثلة التى يكثر الاستشهاد بها انه أديب

ذواقه وناقد يعتمد على الموهبة والثقافة ٠ وان خزانته تعد خزانة لأدب العصر المملوكى ونقده ٠

وقد وجد غير من ذكرت نقاد كثيرون اتفق أكثرهم فى الاعتماد على البديع فى الأدب شعره ونثره واختلف أقلهم فى ذلك وانهم تأثروا بعصرهم وظروفه وذوقه فصدروا عن ذوق يخالف ذوق السابقين فى الكثير من الأحيان ويوافقهم فى بعض الأحيان ٠

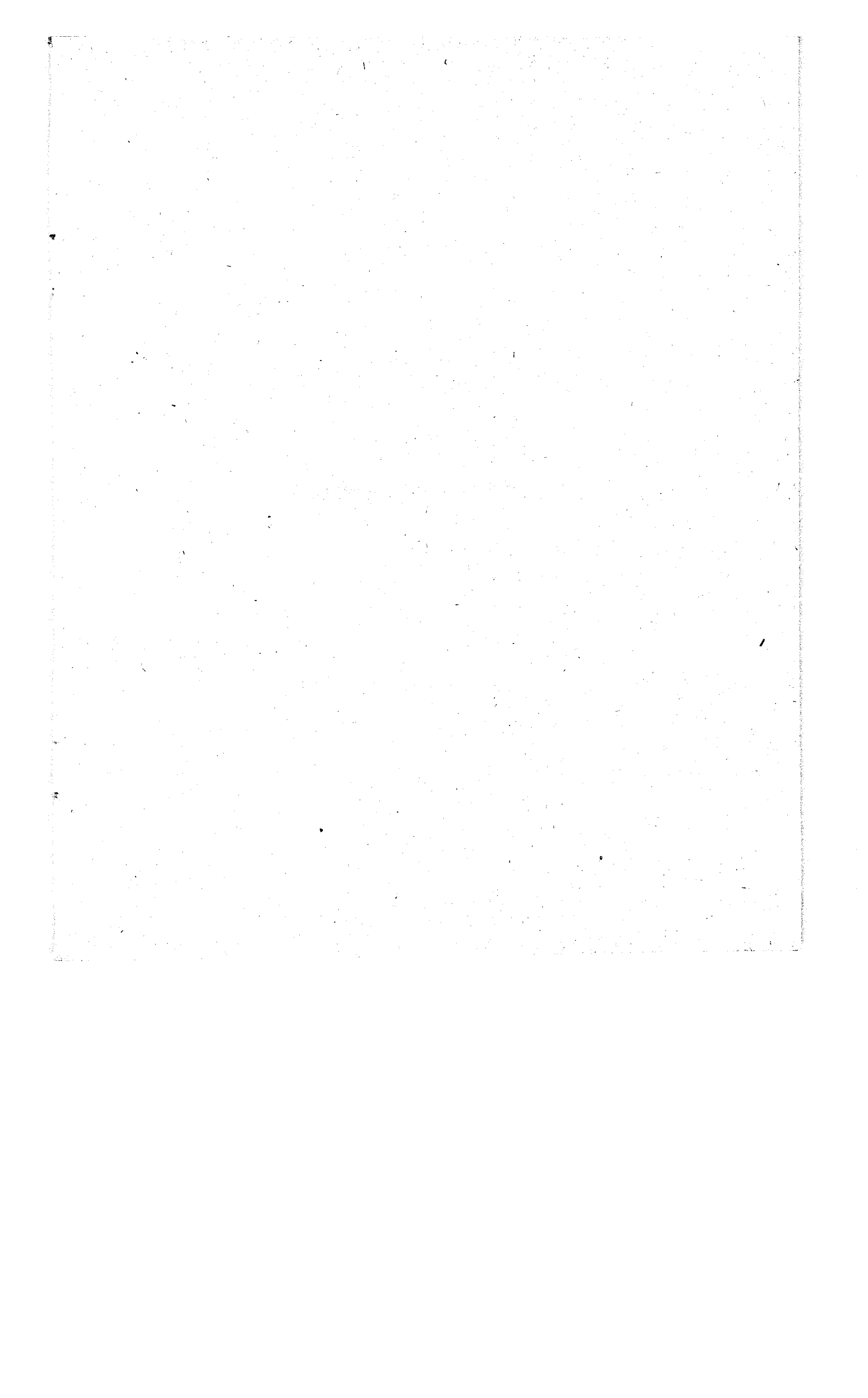
واذا نظرنا الى هذا العدد الهائل من النقاد وعدد الكتب التى ألفت فى مجال النقد الأدبى لوضع مقاييس جودة الأدب والتعرف على قضاياه علمنا الى أى مدى كانت العناية بنقد الأدب سببا فى نهضة أدب هذا العصر ٠

ومما سبق تتضح لنا صورة مجتمع العصر المملوكى وكيف أثر بحياته العامة السياسية والاجتماعية والثقافية فى رسم صورة مميزة لأدب هـــذا العصر ـ كما يتضح لنا صورة الحياة الأدبية وأثرها فى ازدياد العناية بالأدب ونقده مما أدى فى النهاية الى أصالته وازدهاره ٠



الفصـــل الثـــانى

الوصف فى الأدب المملوكى



الوصف من أقدم فنون الأدب العربى أو هو أقدمها على الاطلاق . وهو يعنى فى اللغة الكشف والاظهار . يقال : وصف الثوب الجسم اذا نم عليه ولم يستره (١) . والوصف لا يستغنى عنه موضوع من موضوعات الشعر يسهب فيه الشاعر أحيانا ويوجز فى أحيان أخرى ولكنه فى أغلب الأحيان موجود ومن هنا قال ابن رشيق (الشعر الا اقله راجع الى باب الوصف ولا سبيل الى حصره واستقصائه) (٢) .

وجعل بعض النقاد الشعر كله وصفا يقول ابن الأثير الحلبى المصرى ت ٧٣٧ هـ فى كتابه (كنز البراعة فى أدوات ذى البراعة) فى حديثه عن الأوصاف والنعوت (والوصف يطلق ويراد به العموم كما يطلق ويراد به الخصوص واذا ورد على وجه العموم فانه يتناول جميع المعانى النظمية والنثرية حتى القصص والأخبار فعلى ذلك يكون المدح وصفا للممدوح والهجاء وصفا للمهجو والافتخار وصفا للمفتخر والرثاء وصفا للميت والتشبيه وصفا للشىء بأنه يشبه شيئا آخر والنسيب وصفا للمحب والمحبوب .

واذا ورد على وجه الخصوص فانه يكون ذكر الشىء وما فيه من الهيئات الخاصة به من غير تعرض للموصوف) (٣) .

ومنذ العصر الجاهلى عد الوصف من الفنون البارزة التى برع فيها الجاهليون ذلك أنهم نظروا فى الطبيعة الصحراوية ودققوا النظر فوصفوا كل ما وقعت عليه أعينهم واهتموا اهتماما كبيرا بكل صغيرة وكبيرة فى بيئتهم

---

(١) اللسان مادة وصف .

(٢) العمدة باب الوصف ص ٤٦٤ جـ ٢ ط دار الكتب العلمية بيروت .

(٣) النقد الادبى فى العصر المملوكى ٨٢ ، ٨٣ نقلا عن جواهر الكنز ورقة ١٥ .

فوصفوا حيوانات الصحراء ومشاعرها واعتنـــوا بوصف الصيد والرياض والنبات والديار والأطلال والأمطار والسحب والبرق ٠٠ الخ ٠

وكان الوصف عند الجاهليين يرتبط بذكرياتهم العاطفية والحـــربية فوصفوا عواطفهم ومحبوباتهم كما وصفوا حروبهم ومعاركهم وأسلحتهم وما تخلفه الحرب من محن وآلام كما وصفوا مجالس اللهو والخمر ٠ وكـــان الشاعر يحيط بالصورة احاطة تامة فيستحضر دقائقها ويستقصي جوانبها ولذا كان الوصف لوحات ناطقة بالفن الأصيل ٠

واستمر الشعراء الاسلاميون يصفون على منوال الجاهليين ويعنون عناية كبيرة بالصحراء وحيوانها ويمزجون بين مظاهر الطبيعة ونفوســـهم فى لوحات فنية رائعة وأكبر دليل على ذلك ما نجده فى شعر ذى الرمة من عشق لمظاهر الطبيعة الصحراوية والبدوية هذا الى جانب وصفهم لمظـــاهر الحضارة التى لم تعرف قبل هذا العصر ٠

واذا ما وصلنا الى العصر العباسى وجدنا فن الوصف يزدهر ازدهارا عظيما ويقبل الشعراء عليه فيتفننون فى النظم فيه ويفردون له القصائد والمقطوعات علاوة على اشتمال باقى موضوعات الشعر عليه وكان الشعراء يوجهون عناية كبيرة الى وصف مظاهر الحضارة كما يعتنـــون بالطبيعة الصحراوية وحيواناتها وحيوانات الصيد كما عنوا بوصف السحاب والمطر والأنهار والبرك والأزهار والثمار والليل والربيع والأطلال والقصور والأبنية والأثاث والأطعمة والأقلام والدنانير ومجالس اللهو والخمر والسقاة والمعارك والأسلحة ٠٠ الخ ٠

وعلى الجملة يمكننا أن نقول ان الوصف فى العصر العباسى اتسعت دائرته الى حد بعيد فشمل كل ما فى البيئة من محسوس وغير محسوس وانه لم يقف على الشعر بل اتسع الأدباء فى كتابة رسائلهم النثرية فى فن الوصف ٠ وكان النثر أكثر طواعية فى تأدية ما يشعر به الأديب ٠

ولى الرغم من هذا الاتساع الهائل لفن الوصف وهذا الشمول المستقصى لدقائق الحياة وكلياتها فان باب التجديد والابتكار لم يغلق بعد العصر العباسى ، ذلك أن تغير العصور والبيئات وتبدل الظروف والأذواق كان داعيا الى خلق وولادة موضوعات وصفية جديدة ومعان عميقة أو طريفة وأساليب جديدة · هذا بالاضافة الى النظم والانشاء على نمط السابقين ومحاكاة معانيهم وتكرار صورهم التى رددوها مع اضافة ما يلائم الظروف والأذواق الطارئة · ومن هنا يمكن أن نقسم الوصف فى العصر المملوكى الى قسمين:

أولهما : تقليدى يتكىء فيه الأدباء على أفكار السابقين وهذا لم يخل من التجديد فقد لون بنفسية الشعراء وأذواق عصرهم ·

ثانيهما : وصف جديد وهو يعد نتاجا طبيعيا لظروف العصر ومتطلباته·

أما أهم الأسباب التى أدت الى التجديد فى الوصف فهى :

١ ـ اختلاف البيئة والمكان والزمان الذى نشأ فيه فن الوصف فى العصر العباسى وفى العصر المملوكى · كان المركز الرئيسى للبيئة الأولى هو العراق وله صفات ومميزات وطبيعة خاصة به وكان المركز الثانى هو مصر · وكانت مصر تجمع الى أبنائها من الأدباء أبناء الأمم الأخرى الوافدين عليها ولهم صفات وخصائص تميزهم عن غيرهم ولكن سماحة مصر وطبيعتها جعلت هؤلاء الوافدين يشربون الطابع المصرى وعنه يصدرون · والمهم أن اختلاف بيئة الأدب فى العصر العباسى عن البيئة المصرية أدى الى اختلاف طبيعة وأذواق وأخلاق وعادات وأمزجة سكان كل بيئة مما أدى الى ظهور موضوعات جديدة ومعان لم تطرق من قبل أو على الأقل لم تطرق بهذا الأسلوب ·

٢ ـ وكان لسلطان الجنس التركى الذى ساد وحكم فى هذا العصر أثر

فى فن الوصف فبعض الشعراء تأثر مثلا بالمقاييس الجديدة لجمال الجنس الطاوىء والذى يختلف ذوقه عن الذوق العربى الأصيل فالعرب مثلا كانوا يفضلون فى المرأة العيون الواسعة السوداء والتى تشبه عيون المها ، أما الأتراك فلم يكونوا يرون ذلك ، وفى هذا العصر استحسن بعض الشعراء عيون الأتراك الضيقة وقدودهم المشوقة يقول ابن نباته مخالفا رأى المتنبى فى جمال المرأة :

وخـــاطر عنت الأشـــواق تعجبـــه
جـــاذر التـــرك لازى الأعـــاريب
من كل أغيـــد ضاقت عينه فمتى
يجود لى من تلاقيه بمطلوب (٤)

وكان الأتراك حتى القادة منهم مولعين بتخليد جمالهم فى الكتـابات الأدبية الشعرية منها والنثرية يقول الشهاب محمود من قصيدة فى المدح :

ففى كل سرج غصـــــن بان مهفهف
وفى كل قوس من ســاعده بدر (٥)

ويقول أيضـــا :

من الترك أما فى المغـــانى فانهـــم
شموس وأما فى الوغى فضراغم (٦)

---

(٤) شرح لامية العجم ١/١١ .
(٥) فوات الوفيات ١/٤١٥ .
(٦) النجوم الزاهرة ٧ / ١٧٢ .

ويقول العزازى فى السلطان قلاوون :

وما البـــــدر الا وجهـهـــه وضـــياؤه
وما البحر الا كفــــه وسماحها (٧)

٣ ـ كثرة الحوادث والمصائب والكوارث او ما يمكن أن نصفه بأحداث العصر جعلت الأدباء يعنون بوصفها ويتفننون فى ابرازها وفى كل عصر تجد احداثا تخالف ما وقع فى غيره · وفى هذا العصر كثرت الزلازل والأوبئة والطواعين وهلاك المدن والمخلوقات وكان هذا داعيا الى اتساع باب الوصف والبراعة فيه ·

٤ ـ الحروب الصليبية والتترية فى العصر المملوكى الأول ادت الى العناية بوصف المعارك والأسلحة والانتصارات ووصف جيوش الاســـــلام وقوة قوادها وما وقع بالمشركين من هزائم ·

٥ ـ شيوع الموبقات والتهالك عليها ادى الى وصفها والابتكار والتجديد فى تشبيهاتها وصـــورها ووصف تاثيرها فى النفوس وفى هـــذا العصر انتشر الحشيش الى جانب شيوع الخمر وكان رخيص الثمن بالقياس الى الخمـــر فولع به الشعراء ودعوا الى تعاطيه والاستغناء عن الخمر ·

٦ ـ العناية بالعمارة والتشييد والفنون الجميلة وانشاء المدن وازدهار الحضارة أدى الى الولوع بالوصف واتساع بابه واستخدام وسائل الزينـــة والتجميل فى اساليبه ·

كانت هذه اهم العوامل التى اثرت فى اتساع دائرة الوصف وازدهاره

---

(٧) الديوان / ٧٤ مخطوط بالمكتبة النجودية رقم ٢٨٢ شعر ·

والى جانبها عوامل أخرى خاصة لا يمكن اغفالها وهى تعتمد على وجـود المواهب الأدبية القادرة على الابداع .

وكما اشتهر بعض الشعراء فى العصور السابقة بهذا الفن وصاروا أعلاما عليه وجد فى هذا العصر من برع فيه وصفى الدين الحلى ت ٧٥٠ من الأمثلة الواضحة على ذلك وكان له ذوق فنى جميل وأداة طيعة فى التصوير وقد عنى بوصف الحدائق والمروج ومباهج القصور ومجالس اللهو والطرب والغناء والحيوانات والطيور وأسلوبه يتميز بالسهولة ووضوح الصـور وهو وان كان عراقى الأصل فقد زار الديار المصرية وتأثر بثقافة أهلها وولع بذوق العصر وميوله (٨) .

والحقيقة أن الوصف فى هذا العصر شغل حيزا كبيرا من دواوين الشعراء ورسائل الكتاب وقد تفوقت الرسائل الأدبية فى أغلب الأحيان على الشـعر المنظوم .

ووصف البيئات : من أهم الموضوعات التى شغلت وصافى هذا العصر فقد تفننوا فيه أيما تفنن وأبدعوا ايما ابـداع وحظيت مصر بعناية الشـعراء والكتاب وذلك لمكانتها العالية فى هذا العصر فهى عاصمة الدولة الاسلامية وقبلة العلم والعلماء وقد عنى أبناء مصر بوصفها كما عنى بذلك الوافدون عليها من شعراء وكتاب ورحالة ومؤرخين .

والحقيقة أن وراء وصف البيئات أسرارا غير ما ذكرت فهى بالنسـبة لأبنائها الوطن والمنبت ويتضح لنا ذلك من كثرة الكتب التى ألفت عن مصر والتى اتسم أكثرها بالصبغة التاريخية ولقد شعرنا من خلال قراءتها بعشق الكاتب لوطنه وولعه بالحديث عنه والتعريف به وعلى الرغم من الصـبغة

---

(٨) صفى الدين الحلى : ٦٨ محمود رزق سليم بتصرف دار المعارف فى أدب العصور المتأخرة ٨٤ ـ ٩٤ .

التاريخية والعناية بالحقائق العلمية فان أسلوب النثر الفني المنمق كان هو الغالب عليها حتى لنشعر اننا أمام رسائل ادبية أو قصائد شعرية نظمت فى عشق الأوطان ومن امثلة هذه الكتب التاريخية التى عنيت بوصف مصر كتاب (المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار) للمقريزى يقول فى مقدمته (وكانت مصر هى مسقط رأسى وملعب اترابى ومجمع ناسى ومغنى عشيرتى وحامتى وموطن خاصتى وعامتى وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره وعش مأربىَ فلا تهوى الأنفس غيره لا زلت مذ شذوت العلم وأنافى ربى الفطانة والفهم أرغب فى معرفة أخبارها وأحب الاشراف على الاغتراف من آبارها وأهوى مسائلة الركبان من سكان ديارها (٩) .

والمراد بوصف مصر هو العناية بكل ما فيها من خصائص طبيعية أو أثار قديمة أو مظاهر حضارية حديثة أو أعياد أو عادات وتقاليد وأخلاق أو كوارث طبيعية حلت بها و موبقات شاعت ..

وكان لجمال الطبيعة المصرية اثر كبير فى ولوع الأدباء بوصفها سواء أكانوا من المصريين المقيمين بها أم النازحين عنها أم أهل البلاد الأخرى الوافدين عليها فشغف الجميع بمحاسنها ووصف آيات جمالها .

قال ابن سعيد (وأما فسطاط مصر فان مبانيها كانت فى القديم متصلة بمدينة عين شمس وجاء الاسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن وعليه نزل عمرو بن العاص وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب اليه ثم لما فتحها قسم المنازل على القبائل ونسبت المدينة اليه فقيل فسطاط عمرو ... وتداولت عليها بعد ذلك ولاة مصر فاتخذوها سريرا للسلطنة .. وتضاعفت مارتها فأقبل الناس من كل جانب اليها وقصروا امانيهم عليها

---

(٩) الخطط : المقدمة ص ٢ .

الى أن رسخت بها دولة بنى طولون فبنوا الى جانبها المنازل المعروفة بالقطائع

وبها كان مسجد ابن طولون الذى هو الآن الى جانب القاهرة وهى مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ويحط فى ساحلها المراكب الآتية مع شمال النيل وجنوبه بأنواع الفوائد ولها منتزهات ولها أسواق ضخمة .. ومنذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط وفرط فى الاغتباط بها بعد الافراط وبينهما نحو ميلين وأنشد فيها الشريف العقيلى :

أحن الى الفسطاط شوقا واننى
لادعو لها أن لا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لجنابها
وفي كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروسا والمقطم تاجها
ومن نيلها عقد كما انتظم الدر (١٠)

وقال علم الدين فخر الترك ايدمر عتيق وزير الجزيرة فى مدح الفسطاط وأهلها :

حبذا الفسطاط من والدة
جنبت أولادها در الجفا
يرد النيل اليها كدرا
فاذا مازج أهليها صفا
لطفوا فالمزن لا يألفهم
خجلا لما رآهم الطفا (١١)

---

(١٠) الخطط : ٣٤٠/١ ، ٣٤١ .
(١١) ن. السابق ٣٤٢/١ .

وقال ابن سعيد فى كتاب المغرب فى حلى المغرب فى وصف مدينة القاهرة :

(هذه المدينة اسمها أعظم منها وكان ينبغى أن تكون فى ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية الى البحر المحيط وخطب له فى البحرين من جزيرة عند القرامطة وفى مكة والمدينة وبلاد اليمن وما جاورها وقد علت كلمته وسارت مسير الشمس فى كل بلدة .. لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة وهى ناطقة الى الآن بألسن الآثار ولله در القائل :

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشان

واهتم من بعد الخلفاء المصريون بالزيادة فى تلك القصور وقد عاينت فيها ايوانا يقولون انه بنى على قدر ايوان كسرى الذى بالمدائن وكان يجلس فيه خلفاؤهم . ولهم على الخليج الذى بين الفسطاط والقاهرة مبان عظيمة جليلة الأثر وأبصرت فى قصورهم حيطانا عليها طاقات عديدة من الجبس والكلس ذكر لى أنهم كانوا يجددون تبييضها فى كل سنة . والمكان المعروف فى القاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطانى لأن هناك مساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين . ولو كانت القاهرة عظيمة القدر كاملة السلطانية . ولكن ذلك أمد قليل ثم تسير منه الى أمد ضيق وتمر فى ممر كدر حرج بين الدكاكين اذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان ذلك ما تضيق منه الصدور وتسخن منه العيون (١٢) .

---

(١٢) الخطط ٣٦٦/١ .

ويقول فى وصف عيوب القاهرة (ومن عيوب القاهرة انها فى ارض النيل الأعظم ويموت الانسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها واذا احتاج الانسان الى فرجة فى نيلها مشى فى مسـافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور الى موضع يعرف بالمقس وجوها لا يبرح كدرا بما تثيره الأرجل من التراب الأسود وقد قلت فيها حين أكثر على رفاقى فى الحض على العود فيها :

يقولون سـافر الى القـاهره
ومالى بهـا راحـة ظاهـره
زحـام وضـيق وكـرب
تسـير بهـا أرجل السائره (١٣)

وهذا الوصف يشبه النقد أو هو أشد قربا بالذم وابن سعيد هذا كان مغربيا ووصفه لمصر يدل على أنه لم ير منها سوى الجـانب المظلم ممثلا فى المتاعب التى عاناها من جراء الازدحام والأتربة وقد بدا متحاملا ظالما ورأيه هذا يوضح صورة مصر فى عيون بعض زائريها والوافدين عليها وبطبيعة الحال هذه الصورة تختلف من شخص الى آخر وكان أكثر الزائرين يشعرون بطبيعة مصر الساحرة ومميزاتها النادرة · وتظهر هذه الصورة المتحاملة فى رسالة كتبها زكى الدين الحسينى كتبها فى مصر فى شهر رجب سنة ٧٦٢ هـ الى أخيه وهو بدمشق وهو يتشوق الى وطنه دمشق ويذكر ما فيها من المواضع والمتنزهات ويصف مصر وصفا يدل على ذمه لها ونفوره منها يقـول :

(فكيف يبقى لمن حل فى جنة النعيم ورياضها وتربع فى ميادين المسرات وغياضها تلفت الى من سلمته يد الأقدار الى أرض ليست بذات قرار وبدلوا بجنتهم ذات البان المتفاوح والورق المتصادح والنشر المتقادح والماء المطـلق

---

(١٣) الخطط ١/ ٣٦٦ ·

المسلسل والنسيم الصحيح العليل جنتين ذواتى أكـل خمط وأثل وشىء من سدر قليل وتقصد تهم يد القضاء فأخذتهم بالبأساء والضراء وأوقعتهم بمصر وشـــموسها وحميمها وغمومها وحزونها ووعورها وحـــرورها وزفيرها وسعيرها وكيمانها ونيرانها وسودانها وفلاحيها وملاحيها ومشـــاربها ومسالكها ومهالكها وصفحاتها وعصفورها وبوريها وعقـــورها ومخـــاوف نوروزها وحرارة تموزها ودارس طلولها ورائس أسطولها وتعكر مائها وتكدر هوائها فلو تراهم فى أرجائها القصوى كالأباعر الهمل وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) (١٤) .

فأجابه أخوه محاولا أن يضع الحق فى نصابه واصفا مصر بما هى أهل له ، قال على لسان دمشق وكأنها تخاطبه (ويا أيها الولد العزيز كيف سمحت فطرتك السليمة ومروءتك الكريمة وسيرتك المستقيمة وصبرك المحافظ ودينك المراقب الملاحظ بذم من جنيت نعمها وسكنت حـــرمها وقلت مصر وشموسها وسقت عليها القول من كل جانب واستعرت لها التكدير حتى فى المشارب والمسارب وهلا ذكرتها وقد باكرها نيل النعيم بمغيثه بليل النســـيم بكأس من تسنيمه وطى البحر عليها زاخرا فاغناها عن بكاء السحاب وتجهيمه وعم معظم أرضها وعب عبابه فى طولها وعرضها حتى كاد يعلو رفيع قصورها ويتسور بسورته شامخ سورها ومع ذا لا تراه جسورا على ضعاف جسورها قد طبق التهائم والانجاد وغرق الأكام والوهاد وعلا أعلا الصعيد والصعاد وأعلا البر سلطانه بحرا بالازدياد فاذا ارتوى أوام أكباد البلاد وروى السهل والوعر والهضاب والوهاد وذهب املاق الأرض بكل ملقة وخليج وانجاب عنها فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج بدت روضة نضرة بأملاق مقطعة كزمردة خضراء بلآل مرصعة فكم من غدير مستدير كبدر منير ودقيق مستطيل كسيف صقيل وكم من قليب قلاب بماء كجلاب وكم من عظيم بركة حركها النسيم بلطفه وطيبها عبير عنبرها فضمخها بكفه وزهت بزهو نيلوفرها فعرفها

---

(١٤)ن. السابق ٣٦٨/١ .

بعرفه ، وكم ترى من ملقة لبقة عليها عيون النرجس محدقة كصحن خد عروس سمقة . والنوار قد دارت بمدام الندى كؤوسه وخالت فى مراح الأفراح نفوسه ونجم نجمه وابتسم عروسه وسامره الرذاذ انهل وباكره الطل فكلله بلؤلؤه وقلده وزاره النسيم المعتل فأقامه وأقعده ونمق أرضه وروضه فذهبه وفضضه قد تاهت برياضها الغناء وزهت بزخرفها وزينتها الحسناء وامتد بساطها الزمردى وانبسط مدادها الزبرجدى فلا يدرك أقصاه نظر مسافر ولا يحيط بمنتهاه خيال ولا خاطر فالله درها من روضة مزن وكعبة حسن ومقطعات بماء غير آسن وحرم بحر لحجاج طيره آمن أتاها حجيج الطير من كل فج عميق ملبيا داعى حسنها من كل مكان سحيق قد امتطى ركبها متون الرياح وعلا جثمانها عالم الأرواح ووصلن الادلاج بالصباح وقطعن أجناح الليل بخفاق الجناح كأنهن الدرارى السوارى أو المنشآت الجوارى أو المطايا المهارى .

تواصل من جو حوائض نيله صعود على حكم الطريق نزول

رفاق تعاهدن على الوفاء وتحالفن على النعماء والبلاء خرجن مهاجرات من الأوطان ألوفا ... الخ (١٥) .

وهكذا يصف الكثير من جمال الطبيعة فى مصر ويتفنن فى التشبيهات ويكثر من الاقتباس والتضمين ويعتمد على السجع وألوان البديع وبعد أن يصف جمال طبيعتها يذكر مدنها وسواقيها وبركها وخلجانها وثمارها وفاكهتها الى أن يقول :

(فلا البلاغة تبلغ من احصاء فضلها مراما ولا الفصاحة تصوغ

---

(١٥) السابق ١/٣٧٠ .

لوصف تشبيهها كلاما فنسأل الله تعالى أن يكنفها بركنه الذى لا يرام ويحرسها بعينه التى لا تنام بمنه وكرمه) (١٦) ٠

ونشعر بروح المناظرات أو المفاخرات من تتبعنا للرسالتين ٠ فالرسالة الأولى فى مدح دمشق وذم مصر والثانية فى مدح مصر وذكر مميزاتها وما اتسمت به من حسن وسحر ٠

والرسالتان فى وصف البيئة وهو موضوع انتشر انتشارا كبيرا فى أدب هذا العصر ٠

وقد تعرض أدباء كل بيئة لبيئتهم ووصف ما تتميز به من أمور عظيمة وحقيرة ووجدنا أن وصف البيئة يعكس عاطفة الأديب وشعوره تجاه بيئته أو البيئة التى يتحدث عنها وذلك بالاضافة الى عرضه لحقائق علمية ثابتة يقينية ٠

ولأن النيل يمثل أهم مظاهر الطبيعة المصرية فقلما خلا عمل كاتب أو شاعر من ذكره سواء أكان من أبنائه الذين نشأوا بين أحضانه أم من ضيوفه الوافدين ٠ وارتبط الرخاء والخصب والأمن بوفاء النيل فكان فيضانه يعنى زيادة الخصب والخير ونقصانه يعنى الهلاك والدمار والمجاعات يقول القاضى الفاضل عن النيل انه كان «مرجوا مخشيا فهو يكسو الفضاء ثوبا فضيا ويدلى من الأرض ماءه سراجا من النور مضيئا ويتدافع تياره واقفا فى صدر الجدب بيد الخصب ويرضع أمهات خلجه المزارع فيأتى أبناؤها بالعصف والأب ٠ وقد امتدت أصابعه وتكسرت بالموج أضالعه ولا يعرف الآن قاطع سواه ولا من يرجى ويخاف الا اياه) (١٧) ٠

---

(١٦) المصدر السابق ١/٣٧٠ ٠
(١٧) حسن المحاضرة ٢/٣٦٣ ٠

ويصف ابن نباتة النيل وكأنه ملك عظيم يفى بوعده ووعيده أو انسان كريم فيقول : (وأما النيل فقد استوى على الأرض فثبت فيها قدمه وامتد نصل تياره كالسيف الصقيل فقتل الاقليم وهذا الاحمرار انما هو دمه :

حمرتها من دماء ما قتلت والدم فى النصل شاهد عجب

فلم يترك وعدا بل وعيدا الا وفاه ولا وهدا بل جبلا الا أخفاه أقبل كالأسد الهصور اذا احتد واضطرم وجاء من سن الجنادل فتحدر وعلا حتى بلغ أقصى الهرم وعامل البلاد بالخيلاء وكيف لا ؟ وهو سلطان جائر أيد بالنصر قائلا : ان كنت بليت بالاحتراق فى أرضكم فانا أفيض بأن أرمى من يروق تيارى بشرر كالقصر ، هذا وطالما قابلنا بوجه جميل وسمعنا عنه كل خبر ثابت ويزيد كما قال جميل · وكل بديع من آثار جوده يصبغ الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن صبغه الليل وطالما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كمقياسه ذات بسطة كمنازل الخصب بقدومه المبارك ذات غبطة ومنحناه بولاء وثناء هذا يدور من الاخلاص بفلك وهذا يعذب من البحار بنقطة وكم ورد الى البلاد ضيفا ومعه القرى وكم أتى مرسلا بمعجز آيات الخصب الى أهل القرى فهو جواد قد خلع الريش ساهرا فى مصالح الخلق وقد ملأ الأمن أجفانهم بالوسن · جامع لأهل مصر من سقياه ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن كم بات شبر مقياسه يشمل بظله الغائبين والحاضرين وكم رفع على الوفاء راية صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وبلغ بتحرير التيار سلامه وبات الناس بوفائه من حذار الغلاء تحت الستر والسلامة · وخلق صدر العمود وكيف لا يخلق بشير العباد والبلاد ودعا مصر لأخذ زخرفها فسواء قيل ذات العمود أو ذات العماد وبسط يده ببركة الماء فقيل سلام لك من أصحاب اليمين وخضب بنانه وأقسم بحصول الخير فقيل لمخضوب البنان يمين) (١٨) ·

---

(١٨) صبح الاعشى ٢٦٧/١٤ ·

وكان وصفه فى اسلوب رائق اقتبس فيه من ايات القـــرأن الكريم وضمنه من الشعر العربى القديم فحل المنظوم وعمد الى جعله ضمن رسالته من ذلك قوله من شعر جميل وسمعنا عنه كل خبر ثابت ويزيد وقوله من شعر آخر لمخضوب البنان يمين وكانت فى الأصل ليس لمخضوب البنان يمين ٠

وهذا غير ذوقه البلاغى وميله الى استعمال التورية والجناس ٠ وكما وصف الأدباء مزايا النيل وعطاياه وما يجلبه من خصب ورخاء وما تنم عليه اخلاقه من جود وسخاء وصفوا طغيان فيضانه وما تسببه زيادته المفرطة من مآسى وأحزان ٠ قال الأديب فخر الدين بن مكانس فى زيادة النيل الضارة سنة ٧٨٤ هـ من رسالة كتبها الى صديقه بدر الدين وبشتكى وكان متغيبا عن القاهرة (رب اجعلنا فى هذا الطوفان من الآمنين وسلام على نوح وعلى العالمين ٠

ما تأخير مولانا بحـــر العـــلم وشيخه عن رؤية هذا الماء وما قعوده عن زرقة هذا النيل الذى جعل الخلق فيه بالتوبة كالملائكة لما غدا هو أيضـــا كالسما . وكيف لم ير هذا الطوفان الذى استحال بالمزيادة فما أشبه زيادته بالظما فهى كزيادة الأصابع الدالة فى الكف على نقصه وأولى أن ينشد

بيت المثـــل بفصـــه :

طفح السرور على حتى انـــه　　　　من عظم ما قد سرنى أبكانى

فانه قارب أن يمتزج بنهر المجرة بل وصل وامتزج وأرانا من عجائبه ما حقق أنه معنى بقول القائل (حدث عن البحر ولا حرج) وتجاوز فى عشر الثلاثين الحدّ وأرانا بالمعاينة فى كل ساحل ما سمعناه عن الجزر والمــد وأساء فى دفعه ولم يدفع بالتى هى أحسن وأقعد الماشى عن التسبب والحركة

حتى شكا الى الله فى الحالين جور الزمن وسقى الناس من ماء حيـــاته المعهودة كما شربوا من الموت أصعب كأس وسئل ابن الرداد عن قياس الزيادة فقال : (زاد بلا قياس) امتلأ اليباب وهال العباب وضاع العدد واختلف الحساب كال فطفف وزاد فما خفف غسل الجسور وأعاد الاملاق بعزمه الى البحور وبرع فكان أولى بقول الحلى من ابن منصور :

بمكارم تذر السباسب أبحرا وعزائم تذر البحار سباسبا

وقال مسجلا هذه الزيادة الطاغية بأســـــلوب أدبى رائع مستخدما الأساليب البيانية والمحسنات البديعية وخياله الجامح يقول :

(جمع فى صعوده الى الجبال بين الحادى والملاح ودخل الناس الى أسواق مصر وخصوصا سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح وغدا التيار ينساب فى كل يم كالأيم وأصبحت هضاب اللوح فىسماء البحر وكأنما هى قطع الغيم واستحالت الأفلاك فى كل برج مائى وتغيرت الألوان فكل ما فى الأرض سمائى ٠وحكى ماؤه حكاكة الصندل لما مسه شيطان الريح فتخبط وزاد فاستحال نفعه فتحقق ما ينسب الى الصندل من الاستحالة اذا أفرط فلقد حكت أمواجه دوائر الأعكان والسرر وغـــــدا كل حى متيما من زيادته لها كمـــا قال المعــرى (حيا من بنى مطر) وتحالى الى أن أقرف الليمون الأخضر . واحمرت عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر ولقد صعب سلوكه وكيف لا؟ وهو البحر المديد وأصبح كل جدول منه جعفرا ويزيد ٠

فلست أرى الا افاضـــــة شاخص
اليــه بعين أو مشيرا بأصبع (١٩)

---

(١٩) صبح الاعشى ٢٦٨/١٤ ٠

ووصف آثار هذه الزيادة الضارة على المخلوقات جميعها مستخدما التوريات والاقتباسات والتلميحات الطريفة قـــال :

(فلو رآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الديار ودخل الى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم ير منه غير الآثار لبكى بعيني عروة وأوى من الرصد وقد تفجرت من صلده عيون النز الى ربوة أو رنا لروض الجزيزة وقد خلع حلاه وتخلخلت عرائس أشجاره على الحالين بالمياه والنخيل وقد قتلت ملاكها حين فتك بالأسف وجف أحمر ثمرها واصفر فأرانا العناب والحشف ٠

والجيزة وقد قلت لها تبا لجارك النيل اذ أفسدك صورة ومعنى وسكن مغانيك فسقى ديارك بغير استثناء ٠ وقراها الغربية وقد قلت لها حين أوت الى أعالى الأرض هربا من المياه واعتصمت بالجبل الغربى (لا عاصم اليوم من أمر الله) وكل سفينة وقد علت على وجه الماء وارتقت لارتقاء البحر الى أن اختلطت بالسماء وقد قالت لها أترابها عند الفراق : الا ترجعى وقلنا لهـا نحن على سبيل التفاؤل (يا سماء اقلعى) والنيل تبدد عليه القلوع خافية لبعدها فكأنها الخيام بذى طلوع وجار على الناس بطغيانه فكأنما هو أخـو فرعون مصر أو ابن طوفان نوح ٠

فلقد طار النسر مبلول الجناح ودنا نهر المجرة من السكارى بالشخاتيت الى أن كاد يدفعه من قام بالراح ونرجس البساتين وقد ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم وفارق أحبابه من الرياحين ولم يبق له غير القلانس صديق وغير الماء حميم والورد وقد قيل له مالك من آس وغصن البان وقد قيل له طوبى لمن عانقك ولاباس والأسماك وقد ألجمها العرق ٠ والقلقاس وقد شكا شكوى ابن قلاقس وابنه من الغرق والقصب بالجيزة وقد شرب ماء النز فهو بئس الشراب والقصب ببولاق لم ينجه من مشاهدة العزق الا كونه غاب والفارس بالبساتين وقد ترجل ووقع فأرانا كيف تكسير الأقصاب وقيل للآس

عالج جيرانك بالغيطان فالناس بالناس وبادر الى جبر ما كسر فالحاجة تدعو المكسور فى الحالين الى الآسى) (٢٠) .

وكما اعتنى الكتاب بوصف النيل وآثار فيضانه ونقصانه اهتم الشعراء بهذا الأمر وان لم يصل أسلوبهم الى مقدرة وروعة وصف الكتاب يقول أحد الشعراء فى فيضان النيل :

واهـــا لهـــذا النيـــل أى عجيبة
بكـــر بمثـــلها لا يســـمع
يلقى الثـرى فى العـام وهو مسلم
حتى اذا ما حـــل عـــاد يودع
مســـتقبل مثـــل الدهـــر فدهـــره
أبدا يزيد كما يريد ويرجع (٢١)

وقـــال اخـــر :

كأن النيـــل ذو فهـــم ولب
لمـــا يبـــدو لعين النـــاس منـــه
فيـــأتى حين حاجتهـــم اليـــه
ويمضى حين يســـتغنون عنه (٢٢)

وقال الشهاب أحمد بن فضل الله العمرى :

---

(٢٠) صبح الاعشى ٢٦٨/١٤ ، الرسالة موجودة أيضا بديوان ابن مكانس المخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٣ اداب عربية .
(٢١) المواعظ والاعتبار ٦٣/١ .
(٢٢) ن السابق والصفحة .

بمصــــر فضــــل باهــــــر لعيشــها الرغـــد النضــــر
فى ســـــفح روض يلتـــقى ماء الحيـــاة والخضر (٢٣)

وقال أحمد بن محمد بن أحمد ٧٧٨ هـ لما هجم النيل على غفلة (٢٣) :

قـــد قلت لـــا تزايد نيلنـــا مافى وقوفك ساعة من باس (٢٤)
يا نيـل يا ملك الميـــاه بأسرها أو كاد ينـــزل ذروة المقياس

وله فى عكس ذلك :

تقـــاصر النيـــل عنـــا تقـــاصرا متتـــابع
حتى قنعنـــا اضـــطرارا منـــه بمص الأصـــابع (٢٥)

وكما وصفوا النيل وصفوا ما فيه من حيوانات وأسماك ونباتات وغبر ذلك . قال أبو حيان الأندلسى ت ٧٤٥ هـ يصف التمساح بقصيدة طـويلة أولهـا :

وخلق غريب الشكل فى مصر ناشىء
وما هـــو فى أرض سوى مصر يوجد
هو السبع العادى بنيـــل صـــعيدها
يقافص من للماء فى النيـــل يقصد
وينخطفه خطف العقـــاب لصيدها
ويفصـــله عضـــوا فعضوا ويزدرد

---

(٢٣) ن السابق والصفحة .
(٢٤) الدرر الكامنة ١/٢٦٤ .
(٢٥) ن. السابق والصفحة .

وما من شخوص النيل خلق له يد
ورجل سواه وهو فى البر يصعد
وربما يلقى لدى البر كاسرا
ويجرى كمثل الطرف أو هو أزيد (٢٦)

وقد وصف الشعراء السفن والأفلاك والرحلات النيلية وشعور راكبى البحر وقد وصف الجمال أبو الحسين الجزار شعور من يهزه الخوف من طيران الفلك ويدرك أن الهلاك قريب فالفلك تحوم حول المنايا ولا صديق ثمة الا الماء يقول :

كنت فى كلة تطير بقلع
وهى طورا على المنايا تحوم
أنظر الموج حولها فأخال الـ
ـجيم تا لخيفتى وهى جيم
لم أجد لى فيها صديقا حميما
غير أنى بالماء فيها حميم
شتتوا قلعها مزارا على الريح
ولا أشك أنه مظلوم (٢٧)

ومن النيل تكونت البرك واخضرت الحدائق والبساتين وأثمرت الزوع واينعت الثمار يقول البهاء زهير متلهفا على ذكرياته الى بستانه :

لله بستانى وما قضيت فيه من المآرب

---

(٢٦) ديوان أبى حيان الاندلسى عن كتاب فى أدب العصور المتأخرة ص ٣٥ وترجمة أبى حيان فوات الوفيات ٤٢٤/٣ .
(٢٧) المغرب فى حلى المغرب ٣٠٨/١ .

لهفى علـى زمنى بـه | والعيش مخضـر الجوانب
فيروقنى والجـو منـه | سـاكن والقطـر سـاكب
ولـكم بكرت لـه وقـد | بكرت له غـر السـحائب
والطـل فى أغصـانه | يحكى عقـودا فى ترائب
وتفتحـت أزهـاره | فتـأرجحت من كـل جانب
وبـدا على جنبـاته | ثمـر كأذيـال الثعـالب
وكأنمـا أصـاله | ذهب عـلى الأوراق ذائب
فهنـاك كـم ذهبيـة | لى فى الولوع بها مذاهب (٢٨)

ويقول عن الدور التى على النيل واصفا نشوته ولهوه وسعادته :

حبـذا دور على النيـل | وكاسـات تـدور
ومسـرات تمـوج الأ | رض منهـا وتمـور
وقصـور ما لعيش | نلتـه فيهـا قصـور
كـم بهـا قـد مـر لـ | استغفر الله سـرور
كـل عيش غيـر ذاك | العيـش زور (٢٩)

ومن النيل تكونت البرك وكثرت وكان من أشهرها بركة الفيل وهى من متنزهات مصر وتقـع فى أرض الطبالة وكان من عادة سلاطين مصر أن يركبوا اليها بالليل يقول ابن سـعيد :

أنظـر الى بركة الفيـل التى اكتنفت
بهـا المنـاظر كالأهداب بالبصـر
فكأنمـا هى والأبصـار ترمقها
كواكب قد أداروها على قمـر (٣٠)

---

(٢٨) الديوان : ٢٤ ٠
(٢٩) الديوان : ٧ ٠
(٣٠) الخطط ١/٣٧٠ ٠

ويقول عنها وقد قابلتها الشمس بالغـــدو :

أنظـر الى بركـة الفيـل التى نحرت
لهـا الغـزالة نحرا من مطالعها
وظل طـرفك مجنونا ببهجتهـا
تهيم وجدا وحبا فى بدائعها (٣٠)

ومن البرك بركة الحبش وتقع جنوب مدينة مصر فيما بين النيل وجبل المقطم وكانت تطلق على حوض من الأراضى الزراعية التى يغمرها النيل وقت فيضانه السنوى (٣١) ٠

ومن مظاهر الطبيعة المصرية الخلجان والجزر ، وجزيرة الروضة لها تاريخ أدبى سجله الشعراء على مر العصور ٠ ويعنى بها الجزيرة التى بين مصر والجيزة وعرفت فى أول الاسلام بالجزيرة وجـزيرة مصر وعرفت بالروضة منذ عام ٤٩٠ هـ (٣٢) ٠ وكانت متنزها ملكيا وكان بها قصور الملوك ومنهم الملك الصالح نجم الدين أيوب يقول ابن سعيد واصفا جزيرة الروضة مطلقا عليها اسم **الصالحية** ٠

تأمل لحسن الصالحية اذ بدت ... وأبراجها مثـل النجوم تلالا
ووافى اليها النيل من بعد غيبة ... كما زار مشغوف يروم وصالا
وعانقها من فرط شوق محبها ... فمد يمينا نحوها وشمالا (٣٣)

---

(٣٠) القاهرة تاريخها واثارها من جوهر القائد الى الجبرتى : ٩٣ عبد الرحمن زكى ، المواعظ والاعتبار ٣٦٧/١ ٠
(٣١) ن٠ المصدر السابق والصفحة ٠
(٣٢) ن٠ السابق والصفحة هامش ٤ ٠
(٣٣) فوات الوفيات ١٨٠/٢ ٠

وكما وصف الأدباء مظاهر الطبيعة الأصيلة فى مصر عنوا بوصف الاثار المصرية القديمة كالأهرام وأبى الهول والمقطم ٠

والأهرام تعد من عجائب الدنيا وقد وصفها الشعراء قبل هذا العصر كما وصفها أهل العصر المملوكى وأعجب بها أهل مصر كما أعجب بها الوافدون على مصر على مر العصور وأشاد بعظمتها كثير من الشعراء ٠

يقول عمارة اليمنى :

خليلى ما تحت السماء بنية ... تماثل فى اتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه وكل ما ... على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفى فى بديع بنائها ... ولم ينزه فى المراد بها فكرى

أخذ هذا من قول بعض الحكماء كل شيء يخشى عليه من الدهر الا الأهرام فانه يخشى على الدهر منها (٣٤) ٠

وقال سيف الدين ابن جبارة :

لله أى عجيبة وغريبة ... فى صنعة الأهرام للالباب
أخفقت عن الأسماع قصة أهلها ... ونضت عن الابداع كل نقاب
فكأنما هى كالخيام مقامة ... من غير ما عمد ولا أطناب(٣٥)

وقال آخر :

انظر الى الهرمين واسمع منهما ... ما يرويان عن الزمان الغابر

---

(٣٤) المواعظ والاعتبار ١٢١/١ ٠
(٣٥) ن٠ السابق ١٢١/١ ٠

وانظر الى سر الليـــالى فيهما نظرا بعين القلب لا بعين الناظر
لو ينطقـــان لخبـرانا بالذى فعـــل الزمان بأول وبآخـــر
واذا همــا بديا لعينى ناظـــر وصـــفا له أذنى جواد عاثر(٣٦)

وقال الامام أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشى :

ألست ترى الأهرام دام بنـــاؤها ويفنى لدينا العالم الانس والجـن
كأن رحى الافلاك أكوارها على قواعدها الأهرام والعـالم الطحن
قد كان للماضين من سكان مصرهم فالفضل عنهم فضله والعلم فيهم علم
ثم انقضت أعلامهم وعلمهم واحتطموا وانظر تراها ظاهرا باد عليها الهرم(٣٧)

ويقول القاضى فخر الدين عبد الوهاب المصرى ت ٧٧٥ فى وصف الأهرام وما توحيه مبانيها الى الانسان من عظة واعتبار :(٣٨)

أمبانى الأهـــرام كم من واعظ صدع القلوب ولم يفه بلســـانه
أذكرننى قـــولا تقادم عهـــده اين الــذى الهرمـــان من بنيانه
هن الجبال الشـامخات تكاد أن تمتـــد فوق الأرض عن كيوانه
لو ان كسرى جالس فى سفحهـــا لأجل مجلســـــه على ايوانــه
ثبتت على حر الزمـــان وبرده مددا ولم تأســف على حـدثانه
والشمس فى احراقها والريح عند هبـــوبها والســـيل فى جــــريانه
هل عابد قد خصـــها بعبـــادة فبـــانى الأهــــرام من أوثانه

---

(٣٦) ن٠ السابق والصفحة ٠
(٣٧) ن٠ السابق والصفحة ٠
(٣٨) السابق والصفحة ٠

أو قائل يقضى برجعـى نفسـه ... من بعـد فـرقته الى جثمانه
فاختارها لكـنوزه ولجسـمه ... قبرا ليس مـن أذى طوفـانه
أو انهـا للسـائرات مـراهن ... يختـار راصدها أعز مكـانه
أو أنهـا وصفت شئون الكواكب ... أحكام فرس الـدهر أو يونانه
أو انهم نقشـوا على حيطـانها ... علما يحـار الفكر فى تبيـانه
فى قلب رانيها ليعـلم نقشـها ... فكر بعض عليه طرف بنانه (٣٩)

وكما عنى الشعراء بالأهرام ونسجوا حولها الاساطير وأعجبوا بعظمة بنائها وبراعة وفن من بناها وصفوا أبا الهول يقول عنه المقريزى (هو صنم كبير من حجارة فيما بين الهرمين لا يظهر منه سوى رأسه فقط تسميه العامة بأبى الهول) (٤٠) ٠

ويذكر أنه قيل عنه فى كتاب عجائب البنيان : وعند الأهرام رأس وعنق بارزة من الأرض فى غاية العظم تسميه الناس أبا الهول ويزعمون أن جثته مدفونة تحت الأرض ويقتضى القياس بالنسبة لرأسه أن يكون طوله سبعين ذراعا فصاعدا وفى وجهه حمرة ودهان يلمع عليه رونق الطراوة وهو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة جمال وبهاء كأنه يضحك تبسما) (٤١) ٠

ويعد أبو الهول من آثار مصر العجيبة ٠ سئل بعض الفضلاء عن عجيب ما رأى بها فقال تناسب وجه أبى الهول ٠

كذلك عنى الوصافون فى مصر بجبل المقطم (٤٢) :

---

(٣٩) المصدر السابق ١٢٢/١
(٤٠) ن٠ السابق ١٢٢/١ ٠
(٤١) ن٠ السابق ١٢٢/١ ٠
(٤٢) ن٠ السابق ١٢٣/١ ٠

وكما اهتم الأدباء بوصف آثار مصر الطبيعية عنوا بوصف مظاهر الحضارة الجديدة الطارئة على مصر · يصف ابن جبير الأديب الرحالة مدينة الاسكندرية ومحاسنها وآثارها العجيبة فيقول (أول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه حتى انا ماشاهدنا بلدا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه · وأسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضا ·

ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذى قد وضعه الله عز وجل على يد من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين لولاه ما اهتدوا الى بر الاسكندرية · يظهر على أزيد من سبعين ميلا ومبناه فى غاية من العتاقة والوثائق طولا وعرضا يزاحم الجو سموا وارتفاعا يقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف · الخبر عنه يضيق والمشاهدة له تتسع) (٤٣) ·

ويقول أبو الحسين الجزار مصورا الاسكندرية بموقعها وقصورها وأسوارها وما تعكسه من أثر فى النفوس ·

أرى الاسكندرية ذات حسن	بديع ما عليه من مزيد
هى الثغر الذى يبدى ابتساما	لتقبيل العفاة من الوفود
وكم قصر بها أضحى كحصن	منيع لا كزرب من جريد
يرمى فصوصه بانيه رصا	بفصله على نظم العقود
لها سور اذا لاقى الأعادى	يقابلها بوجه من حديد
أحاط بسورها بحر أجاج	ومنهل أهلها عذب الورود(٤٤)

---

(٤٣) فنون الادب العربى : الرحلات ص ٧٣ ·

(٤٤) المغرب فى حلى المغرب ١٣/١ الزرب : المدخل ، والزرب : موضع الغنم وهو الزريبة ·

ويقول الوجيه الدروى ٧٠٣ هـ فى منار الاسكندرية :

وسامية الأرجاء تهدى أخا السرى ... ضـياء اذا ما حندس الليل أظلما
لبست فيها بردا من الانس صافيا ... فكان بتذكار الأحبـــة معلمـا
وقـــد ظللتنى من ذراها بقبـــة ... ألاحـــظ فيهـا من صحابى أنجما
فخيل أن البحــــر تحتى غمامة ... وانى قد خيمت فى كبد السما(٤٥)

ومن المدن المصرية التى عنى بوصفها الشعراء مدينة دمياط يقول عنها المقريزى : انها بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومساجد ودورها تشرف على النيل الأعظم ومن ورائها البساتين وهى أحسن بلاد الله منظرا قال فيها (٤٦) :

سقى عهــد دميــاط وحياه من عهد ... فقد زادنى ذكراه وجدا على وجد
ولا زالت الانواء تسقى سحابها ... ديارا حكت من حسنها جنة الخلد
فياحســن هاتيك الديار وطيبــها ... فكم قد حوت حسنا يجل عن العد
فلله أنهــــار تحف بروضــها ... لكالمرهف المصقول أو صفحة الخد
وبشنينها الريان يحـــكى متيما ... تبدل من وصل الاحبة بالصـــد
فقام على رجليه بالدمع غـــارقا ... يراعىنجوم الليل من وحشة الفقد
وظل على الأقدام فحســـب انه ... لطول انتظار من حبيب على وعـد
ولا ســيما تلك النواعير انهـــا ... تجدد حزن الواله المدنف الفـــرد
أطارحها شجوى وصارت كأنما ... تطارح شكواها بمثل الذى أبدى

---

(٤٥) المواعظ والاعتبار ١/١٥٨ · والحندس : الظلمة ، خيم فلان خيمة أى بناها·

(٤٦) الانواء : النجوم اذا مالت للمغيب · السيف المرهف أو المرهوف الذى رقت حواشيه ـ المصقول السيف الذى أصقل بشحذه وجلائه ـ الشنين : قطران الماء ـ الريان ضد العطشان ورجل ريان وامرأة ريانة من قوم رواء ـ المدنف : الرجل الذي براه المرض حتي أشرف علي الموت ·

فقد خلتها الافلاك فيها نجومهـــا تدور بمحض النفع منها وبالسـعد
وفى البرك الغراء يا حسن نوفر حلا وغدا بالزهو يسطو على الورد
ســـماء من البلور فيها كواكب عجيبة صبغ اللون محكمة النضـد
وفى شاطىء النيل المقدس نزهة تعيد شباب الشيب فى عيشه الرغد
وتنشى رياحا تطـرد الهم والاسى وتنشى ليالى الوصل من طيبها عندى
وفى مرج البحـــرين جم عجـائب تلوح وتبدو من قريب ومن بعـــد
كأن التقاء النيـل بالبحر اذ غـدا مليكان سارا فى الجحافل من جند
وقد نزلا للحرب واحتـدم اللقـا ولا طعـــن الا بالمثقفة المـــلد
فظلا كما باتا ومـــا برحا كمـــا هما من جليل الخطب فى أعظم الجهد
فكم مضى لى من أفانين لـــذة بشاطئها العذب الشهى لذى الورد
وكم قد نعمنــا فى البساتين برهة بعيش هنىء فى أمان وفى سعد (٤٧)

والى جانب ذلك اهتم الأدباء بوصف المنازل والاسواق وحركة التجارة والصناعة ومظاهر العمران كما وصفوا المدارس والمساجد · كما وصفوا ما تحتويه المنازل من أثاث وأفراد وما يدخل هذه البيوتات من انسان وحيوان ووصفوا العلماء والضيوف الثقلاء والعلماء والمصلحين والفجار والفاسقين يقول كمال الدين على بن المبارك الشهير بابن الأعمى الأديب الشاعر المصرى ت ٦٩٢ فى وصف داره :

دار سكنت بها أقــل صــفاتها أن تكثـــر الحشرات فى جنباتها
الخير عنهـــا نازح متبـــاعد والشر دان من جميــــع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض ، عدمته كم أعدم الاجفان طيب ســـباتها
وتبيت تســــــندها براغيث متى غنت لهــــا رقصت على نغماتهــا

---

(٤٧) المواعظ والاعتبار ١/٢٢٤ ·
مرج البحرين أى اختلاطهما — الجحفل الجيش الكثير والجمع جحافل — الملد : الشباب ونعمته ·

ابن الصوارم والقنا من فتكهـــا … فينا وأين الأســـد من وثباتها
وبها ذباب كالضباب يســد عيـ … ـن الشمس، ما طربى سوى غناتها
وبها من الخطاف ما هو معجـــز … أبصـــارنا عن حصر كيفياتهـــا
وبها خفـــافيش تطي ر نهارها … مع ليلها ليســت على عاداتهـا
وبها من الجزذان مـا قد قصرت … عنه العتاق الجـــرد فى حملاتها
فترى أبا مروان منهـــا هاربـا … وأبا الحصين يزوغ من طرقاتهـا
والبـــوم عاكفة على أرجائهـــا … والدود يبحث فى ثرى عرصـاتها
والنار جــزء من تلهب حـــرها … وجهنم تعـــزى الى لفحـــاتـهـا
شاهدت مكتـوبا على جنباتهـــا … ورأيت مســـطورا على عتباتهـا
لا تقـــربوا منها وخـــافوها ولا … تلقوا بأيديــــكم الى هلكاتهـــا
أبدا يقول الداخـــلون ببـــابها … يارب نج النـــاس من آفاتهـــا
قالوا اذا ندب الغـــراب منازلا … يتفرق الســـكان من ســـاحاتها
وبدارنا الفـــا غـــراب ناعق … كذب الرواة فأين صـدق رواتهـــا
صـــبرا لعل الله يعقب راحـــة … للنفس ان غلبت على شـــهواتها
دار تبيت الجن تحرس نفســـها … فيها وتندب باختلاف لغـــاتهـــا
كم بت فيهـــا مفـــردا والعين من … شوق الصباح تسح من عبراتهـــا
وأقول يارب الســـماوات العـــلا … يارازقـــا للوحش فى فلواتهـــا
أســـكنتنى بجهنم الدنيـــا ففى … أخراى هب لى الخلد فى جناتها (٤٨)

وهذا الوصف فيه طرافة وفكاهة ويمثل لونا غلب على أكثر أدب العصر المملوكى ويكثر فيه التشبيهات وأسلوبه يتميز بالسهولة والوضوح ·

ومن الأشياء التى انتشرت فى مصر فى هذا العصر الحمامات العامة وقد رأينا الشعراء يهتمون بوصفها وما يجدونه فيها من عذاب والآلام يقول على ابن المبارك :

(٤٨) الادب فى العصر المملوكى حـ ٢ ص ١٨٣ ، ١٨٤ ·

ان حمامنا الـــذى نحن فيـــه قد أناخ العـــذاب فيـــه وخيم
مظلم الأرض والســما والنواحى كل عـــيب من عيبـــه يتعلم
حرج بـــابه كطـــاقة ســجن شـــهد الله من يجـــز فيه ينــدم
وله مالك غـــدا خـــازن النيرا ن بـــل مـــالك أرق وأرحـــم
كلما قلت قـــد أطلت عـــذابى قال لى اخســـ؟ فيه ولا تتكلم
قلت لمـــا رأيتـــه يتلـــظى ربنا اصرف‌عنا عذاب جهنم (٤٩)

والى جانب ذلك عنوا بوصف الشعر والنثر والكتابة وللقلقشندى رسالة يصف فيها الكتابة ويبين شرف صناعتها يقول فيها : (وبعد فلما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها وأربح البضائع وأنفعها وأفضل المآثر وأعلاها واثر الفضائل وأغلاها ولا سيما كتابة الانشاء التى هى بمنزلة ســلطانها وانسان عينها بل عين انسانها لا تلتفت الملوك الا اليها ولا يعول فى المهمات الا عليها يعظمون أصحابها ويقربون كتابها فحليفها أيدا خليق بالتقديم جدير بالتبجيل والتكريم .

تسر مجانيها اذا ما جنى الظمـــا
وتروى مجاريها اذا بخل القطر (٥٠)

وقد ألف أحد أدباء العصر وهو بدر الدين ابن حبيب الحلبى ت ٧٧٩هـ كتاب (نسيم الصبا) فى ثلاثين فصلا كل فصل مقالة وصفيه فى موضوع مستقل فمنها الطبيعة ومناظرها ومنها الاشياء كالنار والشمعة ومنها الأخلاق كالكرم والشجاعة والعدل والاحسان ومنها الحيوان كالطيور والابل والوحش ومنها المجونيات هذا الى جانب ما يشتمل عليه من فنون نثرية أخرى وفيه

---

(٤٩) الادب المملوكى ٢/١٨٣ .
(٥٠) خطبة كتاب صبح الاعشى .

تبدو روح القص واضحة كما أنه اشتمل على مناظرة ومفاخرة بين فصول السنة الأربعة وفى بعض فصوله سمات الاخوانيات ٠

(وأسلوبه مكون غالبا من فقر قصيرة مسجوعة يبدو على أكثرها رونق وطلاوة ووضوح مع قلة تكلف وخفة مئونه غير أن مؤلفها أذها بكثير من الابيات الشعرية خلل بها سطورها وهى وان كانت فى صـــــميم المعنى والمناسبة وكانت رقيقة حسنة الاختيار تبعثر جمال السطور وتشعث حسن المنثور (٥١) ٠

ومن الكتب التى عنيت بفن الوصف فى هذا العصر كتاب (كشـــف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار) ٠ وهو من تأليف الشيخ الامام العلامة عز الدين بن عبد السلام بن أحمد المقدسى وهو مكون من نحو ستة وثلاثين فصلا قصيرا يحتوى كل فصل على مقالة وصفية وكل مقالة محكية على لسان قاص يقصها عن نفسه ويحكى فيها أوصافه فمقالة على لسان النسيم وأخرى على لسان الورد وثالثة على لسان النرجس ٠٠٠ الخ ٠

والغرض الأساسى من الكتاب هو عظة الناس وبيان حكمة الخالق ولكن نجد فيه غلبة فن الوصف وروح الأديب ٠

والى جانب ذلك وجدنا الشعراء يعنون بوصف مظـــاهر الحضارة والأطعمة والحلوى واشتهر أبو الحسين الجزار فى وصف القطائف والكنافة من أصناف الحلوى الرمضانية ٠

كما وصفوا مجالس اللهو والطرب والغناء والمغنيات يقول صفى الدين الحلى فى وصف مغنية :

---

(٥١) عصر سلاطين المماليك حـ ٥ ـ ٢٥٨ ٠

أشجتك بالتغـــريب فى تغريدها | فظننت معبـد كان بعض عبيـدها
وشدت فأيقظت الرقود بشـــدوها | وأعارت الايقاظ طـــول رقودها
خود شـدت بلســانها وبنانهـــا | حتى تشـــابه ضربها ونشـــيدها
فكأن نغمة عودها فى صـــوتها | وكأن رقة صـــوتها فى عودها
فطنت لأبعاد الشدو فناســـبت | بالعدل بين قريبهـــا وبعيـــدها
كملت صنائع وضـــعها فكأنمـــا | ورثت أصـــول العلم عن داودها
تسبى العقول فصاحة وصـــباحة | فتحار بين طـــريفها وتليـــدها
من لهجة مكســوبة أو بهجـــة | منســـوبة تحلو لعين حسـودها
انى لأحســـد عودها ان عانقت | عطفيه أو ضـــمنته بين نهودهـــا
وأغار من لثـــم الكئوس لثغرها | وأذوبمن لمس الحلى لجيدها(٥٢)

وعنى الشعراء بوصف الموبقـــات المنتشرة فى بيئتهم مثل الخمـــر والحشيش وقد افتن الشعراء فى وصفهما وقاموا بانشاء مناظـــرات فى مناقب كل منهما ومساوئها ۰ وفضل البعض الحشيش على الخمر لرخص ثمنها ولعدم وجود نص صريح فى تحريمها ۰

ونسبت الحشيشة الى رجل يدعى حيدرة يقول محمد بن على الأعمى مفضلا الحشيشة على الخمر :

دع الخمر وأشرب من مدامة حيدر | معنبرة خضراء مثـــل الزبرجد
يعاطيكها ظبى من الترك أغيـــد | يميس على غصن من البان أملد
فتحسبها فى كفـــه اذ يديرها | كرقم عذار فـوق خـد مورد
يرنحهـــا أدنى نســـيم تنسمت | فتهفو الى برد النســـيم المرود

---

(٥٢) الديوان : ٢٨٥ ۰

وتشدو على أغصانها الورق فى الضحى
فيطربهـــا ســـجع الحمام المغـــرد
وفيهــا معان ليس فى الخمر مثلها
فلا تستمع فيها مقـالة مفند (٥٣)

ومن نظم محمد بن برسام فيها ويوضح تأثيرها على نفوس الذين يتعاطونها ورخص ثمنها :

ومهفهف بادى النفـــار عهـــدته	لا ألتقيه قـــط غيـــر معبسى
فرأيته بعض الليــــالى ضاحكا	سهل العريكة ريضا فى المجالس
فأجابنى لا تشـــكرن خـــلائقى	واشكر شـــفيعك فهو خمر المفلسى
فحشيشة الافراح تشفع عنـــدنا	للعاشـــقين ببســـطها للانفسى
واذا هممت بصـــــيد ظبى نافــر	فاجهد بأن يرعى حشيش القنبسى
واشكر عصابة حيدر اذا أظهروا	لذوى الخـــلاعة مذهب المتخمسى

ويبدو أن ما يقصده بمذهب المتخمسى اصطلاح الذين يتعاطونها أن يشترك فى تدخينها أكثر من واحد أو خمسة أشخاص فى ان واحد (٥٤).

ويبدو أنها انتشرت فى مجتمعات النساء الى جـــانب انتشارها فى مجتمعات الرجال يقول ابن الوردى فى مليحة تتعاطى الحشيش :

مليحـــــة مســـطولة	ان لمتهـــا فيمـــا جرى
تقـــول كـــل ظبيـــة	ترعى الحشيش الأخضرا (٥٥)

وقد عنى الشعراء بوصفها واثارها وما تتركه على متعاطيها وتوسعوا فى ذلك توسعا كبيرا .

---

(٥٣) الادب الصوفى فى مصر : ١٧٣ .
(٥٤) مطالعات فى الشعر المملوكى : ٢٧٧ .
(٥٥) المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

ووجدنا بعض سلاطين المماليك يجدون فى محاربتها وعقاب مدمنيها لآثارها الضارة على الصحة يقول محى الدين بن عبد الظاهر من رسالة فى الحث على ابطال الحشيش بعد الخمر ووصف آثارها الضارة (وأن أم الخبائث ما عقمت وأن الجماعة التى كانت ترضع ثدى الكأس عن ثديها ما فطمت وأنها فى النشوة ما خيب ابليس مسعاها وأنه لما أخرج المنع عنها ماء الخمر أخرج لها من الحشيش مرعاها وأنها استراحت من الخمار واستغنت بما تشتريه بدرهم عما كانت تبتاعه بدينار وأن ذلك فشافى كثير من الناس ٠ وعرف فى عيونها ما يعرف من الاحمرار فى الكأس وساروا كأنهم خشب مسندة سكرا واذا مشوا يقدمون عقولهم رجلا ويؤخرون أخرى ٠ ونحن نأمر بأن تجتث أصولها وتقتلع ويؤدب غارسها حتى يحصد الندامة مما زرع وتطهر منها المساجد والجوامع ويشهر مستعملها فى المحافل والمجامع حتى تتنبه العيون من هذا الوش وحتى لا تشتهى بعدها خضراء ولا خضراء الدمن) (٥٦) ٠

وأما الخمر فقد كثر وصفها والحديث عنها وكان الكثيرون ممن يصفونها لا يتعاطونها وانما ينظمونها محاكاة وتقليدا يقول د٠ شوقى ضيف:

ولعل مما يشهد بأن كثيرين ممن كانوا ينظمون الخمريات انما كانوا ينظمونها محاكاة وتقليدا ولم يكونوا يتعاطونها ولا تورطوا فى اثمها أن نجد فقيها كبيرا من فقهاء زمن المماليك هو صدر الدين محمد بن عمر المشهور بابن المرحل ، وابن الوكيل ت ٧١٦ هـ يصفانها (٥٧) ٠

ولابن الوكيل خمرية تداولها الرواة فى عصره وبعد عصره استهلها بقوله :

---

(٥٦) ثمرات الادراق : ١٣٧ ٠

(٥٧) عصر الدول والامارات : ٣٢٩ بتصرف ٠

ليذهبوا فى ملامى أية ذهبـــوا	فى الخمر لا فضة تبقى ولا ذهب
لا تأسفن على مـــــال تمـــزقه	أيد ســـقاة الطلا والخرد العرب
فما كسوا راحتى من راحها حـــللا	الاوعروا فؤادى الهمو واستلبوا (٥٨)

وقد مضى يحبب فيها ويغرى بها على عادة المجان مما جعـــل بعض الناس يتهمه بمعاقرتها وقدم للقضاء وثبت براءته من وزرها الآثم وعـــاد الى دروسه وعاد الى طلابه (٥٩) ٠

وللشيخ برهان الدين القيراطى ت ٧٨١ هـ الفقيه المحدث قصائد فى وصف الخمر ومجالس اللهو يقول :

كم ليـــلة نادمت بدر ســـمائها	والشمس تشرق فى أكف ســقاتها
والبدر يســـتر بالغيوم وينجلى	كتنفس الحســـناء فى مرآتهـــا
خالفت فى الصـــهباء كل مقلد	وسعيت مجتهـــدا الى حاناتهـــا
أمحرك الأوتـــار ان نفوســـنا	ســـكناتها وقف على حـــركاتها
ومليحة أرغمت فيهـــا عـــاذلى	قامت الى وصلى برغم وشـــاتها
يا حجلة الأغصـــان من خطـــراتها	وفضيحة الغزلان من لفتاتها (٦٠)

والشاعر فى الابيات السابقة يمزج بين جمال الطبيعة فى الليـــالى القمرية وبين الخمر وصاحبته ٠

وقد لاحظنا ان الخمريات كانت مرتبطة أشد الارتباط بألوان الموبقات

---

(٥٨) فوات الوفيات ٢/٥٠٢ ٠
(٥٩) عصر الدول والامارات : ٣٢٩ ٠
(٦٠) ترجمته : طبقات الشافعين ٩/٣١٤ ــ ٣٣١ ، الدور الكامنة ٢/ ٣٢ ٠

واللهو فى هذا المجتمع كما عنى الشعراء بوصف آدابها وندمائها وتأثيرها على نفوس شاربيها ... الخ .

أما أسباب انتشار الخمر فى هذا العصر فيرجع الى أكثر من سبب منهـا :

بؤس الناس وكثرة المحن والازمات وعدم التكيف مع المجتمع والرغبة فى الهروب أو العزلة عن المشاكل يقول صدر الدين الوكيل واصفا الخمر بكيمياء السعادة .

ليست الكيمياء فى غيرها وجدت　　وكل ما قيل فى أبوابهـا كـذب
قيراط خمر على قنطار من حـزن　　يعود فى الحال أفراحا وينقلب(٦١)

ويرى بدر الدين البشتكى ان الخمر تزيل الهموم ولذا يطلق عليهـا صابون الهموم يقول :

وكنت اذا الحـوادث دنستنى　　فزعت الى المـدامة والنـديم
لأغسـل بالكئوس الهـم عنى　　لأن الخمر صـابون الهموم (٦٢)

مجاراة ذوق العصر الذى يميل الى اللهو ووصف الخمر .
ويرى كثيرون من مؤرخى الأدب أنه كان من أسباب شيوع الخمريات على السنة بعض الشيوخ أيام المماليك أنها شاعت على ألسنة الصوفية من أمثال ابن الفارض وابن عربى متخذين من نشوتها رمزا لنشـوة الحب الالهى (٦٣) .

---

(٦١) حلبة الكميت . شمس الدين النواجى ط الاميرية ١٢٧٦ هـ ص ١٠٦ .
(٦٢) ن. المصدر السابق ١١٠ .
(٦٣) عصر الدول والامارات : ٣٣١ .

وقد عنى الشعراء فى هـ ذا العصر بوصف المصائب والكوارث التى حلت بالبلاد من زلازل ومجاعات وحروب واستيلاء على الأوطان ٠

يقول أسامة بن منقذ قبل عصرنا بقليل فى وصف نتائج الزلازل :

يا أرحم الراحمين ارحم عبادك من ... هذه الزلازل فهى الهلك والعطب
ماجت بهم أرضهم حتى كأنهم ... ركابها بحر بها الانفاس تضطرب
فنصفهم هلكوا فيها ونصفهم ... لمصرع السلف الباقين يرتقب
تعرضوا من مشيدات المنازل بالأكو ... واخ فهى قبور سقفها خشب
كأنها سفن قد أقبلت ، وهم ... فيها فلا ملجأ منها ولا هرب (٦٤)

وكتب الأديب زين الدين بن الوردى من أدباء العصر المملوكى يصف فيها طاعون جارف قيل انه لبث خمسة عشر عاما طوافا من نواحى الصين الى غرب آسيا جوالا فى أرجاء كثير من البلاد يزهق الأرواح ويقضى على النفوس وقد وصف ابن الوردى هذا الطواف والتجوال مبينا أثر الوباء وما أنزله من الأضرار بالناس مشيرا الى حيرتهم فى طريقة دفعه والى انكباب أعيانهم على كتب الطب لعلهم يقفون على وسيلة لعلاجه والى اقبالهم على تبخير بيوتهم وتختمهم باليواقيت واصطناعتهم البصل والخل ونحوهما فى عداد أطعمتهم واقلالهم من تعاطى المرق والفاكهة زعما منهم أن ذلك كله يدفع عنهم المكروه ٠

وأشار كذلك الى تعدد الوفيات وكثرة الجنائز اليومية وما تردد فى كل ناحية وصقع من عويل ونحيب ومن توقع الاحياء أن ينزل بهم هذا البلاء عما قريب فيقضى عليهم ٠ وما كان من أثر هذا التوقع فى نفوسهم من اشاعة

---

(٦٤) ديوان أسامة بن منقذ نقلا عن الحياة الأمية فى عصر الحروب الصليبية ص ٩٠ ٠

الخوف والنوم على وجل والعجلة الى التوصية بالأولاد وترتيب بقية أموالهم وانهاء المتخلف من أعمالهم والاقتصاد من آمالهم وأشار الى أثر ذلك فى تغير أخلاقهم وفى اقبال بعضهم على بعض يتلاطفون ويتسامحون ويتصافون ... الخ .

وهذه الرسالة هامة من ناحيتها الاجتماعية اذ صورت حالة المجتمع حين دهمه الوباء وسجلت الاضطراب النفسى الذى شاع بين أهله والقلق الذى أصابهم والوداعة المفاجئة الطارئة عليهم التى حولتهم الى حملان هادئة مستسلمة غير أن أسلوب الرسالة يشوبه الضعف وركاكة النسيج (٦٥) .

وهذا على عكس ما نجده فى أكثر الرسائل التى كتبت فى هذا العصر حيث كان للنثر مكانة عالية راقية وتفوق على الشعر فأصبح الكاتب هو رجل العصر .

ومما جاء فى رسالة ابن الوردى قال يذكر طواف الطاعون من قطر الى قطر اخر وقد اصطنع فى ذلك ألوانا من الجناس والطباق :

طاعون روع وأمات وابتدأ خبره من الظلمات ياله من زائر من خمس عشرة سنة دائر ماضين عنه الصين ولا منع منه حصن حصين سل هنديا فى الهند واستند على السند وقبض بلغيه وشبك على بلاد أزبك . وكم قصم من ظهر فيما وراء النهر ثم ارتفع ونجم وهجم على بلاد العجم وأوسع الخطا الى أرض الخطا وقرم القرم ورمى الروم بجمر مضطرم وجر الجرائر الى قبرص والجزائر ثم قهر خلقا بالقاهة وتنبهت عينه لمصر فاذا هم بالساهرة (٦٦) .

---

(٦٥) عصر سلاطين المماليك ج ٥ ص ٢١٧ .

(٦٦) عصر سلاطين المماليك ٢٤٨/٥ نقلا ديوان ابن الوردى ص ١٨١ .

وقال يذكر انكباب أعيان حلب على كتب الطب ويصف اعتمادهم على البصل والخل وتقليلهم الفاكهة وكثرة الجنائز ... الخ .

(فلو رأيت الأعيان بحلب وهم يطالعـــون من كتب الطب الغوامض ويكثرون فى علاجه من أكل النواشف والحوامض قد تنغص عيشهم الهنى بملاطخة سلم الطينة الطين الأرمنى وقد لاطف كل منهم مزاجه وعدل وبخروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسعد والصندل وتختموا باليقاوت وجعلوا البصل والخل والصحنا من جملة الأدم والقت .

وأقلوا من الامراق والفاكهة وقربوا اليهم الاترج وما شابهه . ولــو شاهدت كثرة النعوش وحملة الموتى وسمعت بكل قطر من حلب نعيا وصوتا لوليت منهم فرار ولابيت فيهم قرارا فلقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية فلا رزقوا وعاشوا بهذا الموسم وعرقوا من الحمل فلا عاشوا ولا عرقوا فهم يلهون ويلعبون ويتقاعدون عن الزبون .

أســــــودت الشـــهباء فى عيـــــنى من هـــــم وغـــش
كاد بنـــــــو نعش بهـــــا أن يحلقوا بنــــــات نعش (٦٧)

وهكذا كان باب الوصف من أكبر أبواب الأدب فى العصر المملوكى وقد عنى به الشعراء والكتاب على السواء ولم يتركوا صغيرة ولا كبيرة فى مجتمعهم الا عنوا بتصويرها وان وصف البيئة من أهم الموضوعات التى لاقت عناية من الأدباء فوصف أهل كل بيئة أو اقليم بيئتهم وبالغوا فى تصوير جمالها المخلوق والمصنوع كما عنى المهاجرون والرحالة بوصف البيئات التى نزحوا اليهــا وقد عكست أوصافهم دخائل نفوسهم وشعورهم تجاه تلك البيئات .

---

(٦٧) ن. السابق .

الفصــل الثالث

التشوق والحنين الى الاوطان

التشوق والحنين لفظتان ارتبطتا وعبرتا عن نفس المعنى تقريبا فالشوق هو نزوع النفس الى الشيء والحنين هو الشوق (١) والحنين وليد الشوق أيضا والشوق من أقوى دواعي الأدب شعره ونثره لأنه ناتج عن الحب والحب لا يكون الا عاطفة صادقة وجدانية تمس المشاعر والاحاسيس فالشعر ما يشعر به والشعر ما اتصل بالوجدان وعبر عن مكنون النفوس والشوق ينتج عن أثم الوجد الذه يسببه الفراق مما يؤدى الى فرط الصبابة ٠

يقول ابن قتيبة (وللشعر دواع تحث البطيء وتبعث المتكلف منها الطمع ومنها الشوق) (٢) ٠

ويقول (ان مقصد القصيد انما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها اذ كانت نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم من ماء الى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق) (٣) ٠

فالشوق مترتب على ترك الديار والهجرة من مكان الى مكان ولذا فهو يكثر عند البدو لاضطرارهم الى كثرة الرحيل والتنقل من ماء الى ماء أما الحضر فحياتهم تعتمد على الاستقرار وعدم الانتقال الا فى النادر من الأحوال ٠

والشوق يكون للاهل وللاحباب وللاوطان والشوق يكون للاحياء

---

(١) لسان العرب مادتى شوق وحنن ٠

(٢) مقدمة الشعر والشعراء : ٧٥ تحقيق وشرح احمد محمد شاكر ٠

(٣) ن٠ السابق والصفحة ٠

وللاموات والشرط فيه هو الاغتراب أو البعد والفراق فذلك هو ما يولد الحنين ٠

والشوق والحنين الى الأوطان عاطفة انسانية عامة لا يستطيع التجرد منها انسان مهما بلغ رقيه الحضارى وتطوره المادى وسموه الروحى الا فى حالات شاذة والشاذ لا يقاس عليه والشوق للوطن أعم من الشوق الى الأهل والاحباب فالوطن هو الأم وهو مسقط الرأس والمنبت الاول الذى أنشأ وربى وغذى ووهب وحمى وأمن ٠ واذا ذكر الشوق الى الأوطان عنى به الشوق الى كل ما فيها يقول الثعالبى (٤) (واذا تذكرت الوطن خنقتنى العبرة واستولت على الزفرة حنينا الى أرض أنشأتنى تربتها وغـذانى هـواها وربانى نسيمها وحلت عنى التمائم فيها وتأسفا على بلدة بها اخضرار شاربى واقتبال شبابى وفيها مجمع أترابى واخوانى وأحبابى ٠ وقد كانت الاقامة بها مع الاعسار أحب الى من استيطان سواها على اليسار ولكن قضاء الله لا دفاع دونه ولا احتجاز ولا امتناع ولا احتراز ٠٠ فيارحمتى للغريب المبتلى بكربة الغربة وحرقة الفرقة ٠ المقيم بالبلد البعيد عن وطنه النائى عن سكنه ويالهفى على ما صنع بنفسه وقطع من أنسه حين فارق أحبابه الأخصين واخوانه الاخلصين فلاهم ينتفعون بالعيش من بعده ويستريحون من التألم لبعده ولا هو يتمتع بحياته ويفرق بينه وبينهم مماته وما على الله بعزيز أن يرد غربته وييسر الى أحبابه أوبته) (٥) ٠

وحب الاوطان غريزة طبيعية فطر الله تعالى عليها خلقه ومما يؤكد

---

(٤) أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبى النيسابورى ، ولد ٣٥٠ ت ٤٢٩ هـ والثعالبى نسبة الى خياطة جلود الثعالب وعملها ومن أهم مصنفاته يتيمة الدهر (وفيات الاعيان لابن خلكان) ٠

(٥) نثر النظم وحل العقد فى كراهية الغربة : ١٣٦ ٠

(٦) سورة البلد آية ١

ذلك قوله تعالى (لا أقسم بهذا البلد) (٦) ، (وهذا البلد الأمين) (٧) فالله تعالى يقسم بالبلد والمراد به مكة وطن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

ولمكانة الوطن جعل سبحانه وتعالى الخروج منه شيئا عظيما وذكر كراهية الناس للنزوح عن أوطانهم فيقول سبحانه جلت قدرته « ولو كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم »(٨) فسوى بين قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم وجعل الاخراج من الديار سببا قويا للقتال قاله تعالى :

« ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وابنائنا) (٩) ووعد الله الذين أخرجوا من ديارهم وهاجروا فى سبيل الله أجرا عظيما قال تعالى (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب) (١٠) ويعاقب الله الكافرين باخراجهم من ديارهم وتشتيت شملهم قال تعالى (هو الذى اخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر)(١١) ٠

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم محبا لوطنه يحزن لفراقه وكان يقول عليه السلام : اذا سافر عن وطنه (اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل اللهم انى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء

---

(٧) سورة التين آية ٣ ٠
(٨) سورة النساء آية ٦٦ ٠
(٩) سورة البقرة آية ٢٤٦ ٠
(١٠) سورة آل عمران : ١٩٥ ٠
(١١) سورة الحشر آية : ٢ ٠

المنظر فى الاهل والمال اللهم أطو لنا الأرض وهون علينا السفر • واذا رجع قالهن وزاد فيها آيبون تائبون عابدون اربنا حامدون) (١٢) •

ولأن ظاهرة حب الاوطان ظاهرة انسانية عامة فقد تحدثت عنها كل الأمم وفى كل العصور من أقدم العصور البشرية وحفظت كثير من الأقوال التى تدل على أصالة هذه الظاهرة عند البشر فى كل البقاع وفى كل العصور•

والوطن عند العرب يعنى فى أصل وضعه اللغوى (١٣) مربض الابل والغنم ومنه تطور الى شمول الانسان به حين يتخذ منزلا أو يعيش فيه ونلاحظ أن اللغويين لم يشترطوا فى الوطن أن يكون مسقط رأس الانسان يقول ابن سيدة (الوطن حيث أقمت من بلد أو دار (١٤) • وعلى هذا يمكن أن يكون المكان الذى ينزله الانسان ويسكن فيه ويعده مستقرا له ومقاما • وقد اتسع هذا المفهوم بعد الاسلام فعد كل مكان يقف فيه الانسان وقفة زمنية موطنا ومنه جاء مواطن مكة • يقول ابن منظور (مواطن مكة مواقفها وهو من ذلك وطن بالمكان وأوطن أقام) (١٥) • ولم يشترط القدماء مدة معينة للاقامة يقول ابن منظور (أما المواطن فكل مقام أقام به الانســـــان لأمر فهـــو موطن له) (١٦) •

ومن تشعبات لفظة الوطن كانت الوطنية وهى وان اختلف مدلولها باختلاف المذاهب والاتجاهات السياســـية فهى تتصل بالوطن وحبـــه والاخلاص له •

---

(١٢) صحيح‌مسلم ٩ : ١١٢ ، سفن ابن ماجة ١٢٧٩/٢ ، سنن أبى داود١٣٢/٢ •
(١٣) جمهرة اللغة لابن دريد ١١٩/٣ ، وتهذيب اللغة للازهرى ٢٨/٤ ، معجم مقاييس اللغة لاحمد بن فارس ١٢٠/٢ •
(١٤) المخصص ١١٩/٤ •
(١٥) لسان العرب مادة وطنى •
(١٦) ن• السابق •

وكأن معنى الوطن فى الجاهلية ضيقا أريد به الحى الذى يقيم فيه الانسان مع عشيرته أو قبيلته وفى الاسلام اتسع هذا المدلول لأن أرض جميعها أرض الله · ومع ذلك أوضح القرآن قيمة الوطن بالنسبة لأهله ·

والوطن أو البيئة التى ينشأ فيها الانسان لها تأثير كبير فى شخصيته وأخلاقه وذوقه وفكره وتكوينه عامة ·

ومن هنا كان أهل البادية أصفى ذهنا من سكان المدن لصفاء أجواء البوادى عن أجواء المدن · وأهل البلاد الباردة أسرع حركة ونشاطا من أهل البلاد الحارة وفى البلد الواحدة يفضل أهل الجبال أهل السهول نشاطا وصفاء ذهن · وقد فطن الباحثون الى أثر البيئة وصلة الانسان بها فقالوا : ان صلة الانسان ببيئته وأرضه أكثر ارتباطا وتعقيدا من صلة الحيوان والنبات بالبيئة (١٧) ·

ولاحظ داروين أن العلاقة بين الكائن الحى والبيئة هى علاقة ملائمة وتكيف وأن هذه الملائمة عملية حتمية لا يملك الكائن الحى ازاءها شيئا بل ان البيئة تختار الأفراد الذين تتلائم صفاتهم مع ظروفها اختيارا طبيعيا وتترك غيرهم للفناء وأن البقاء للاصلح ملائمة مع البيئة (١٨) ·

ولاحظ كالرتر أن المحيط الذى يعيش فيه الانسان يفعل فعله فى كل عضو من أعضائه ولاحظ أن عيون التركمان الضيقة انما كانت صغيرة طولانية قد احيطت بجفن غليظ منتفخ نتيجة للبيئة الصحراوية التى يعيشون فيها · والبيئة كما أثرت فى خلقة الانسان وهيئته أثرت فى ملامحه فهى التى كست

---

(١٧) الحنين الى الوطن فى الادب العربى ١٢ ، ١٣ محمد ابراهيم حور دار نهضة مصر ·

(١٨) البيئة والمجتمع سيد غلاب : ٢٠ ·

أهل المناطق الاستوائية الحارة لونهم الأسود وكست جسم العربى هـذه السمرة النحاسية وكست أهل البلاد الباردة لونها الأبيض (١٩) ٠

وقد تحدث ابن خلدون فى مقدمته عن تأثير البيئة فى أهلها يقول :

(وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال فأهلها أبعد من الاعتدال فى جميع أحوالهم فبناؤهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود وأكثرهم عرايا من اللباس وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة الى الانحراف ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى لينقل عن الكثير من السودان أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وكذا الصقالبة والسبب فى ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الانسانية بمقدار ذلك ٠ وكذلك أحوالهم فى الديانة أيضا فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة الا من قرب منهم من جوانب الاعتدال ٠٠٠ الخ (٢٠) ٠

وقد اعترض ابن خلدون فى مقدمته على رأى المسعودى والقصاص والنسابين العرب الذين زعموا أن الزنج انما اسود لونهم ، لدعوة نوح على ابنه حام فقال (وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه وفيما جعل الله من الرق فى عقبه وينقلون فى ذلك حكاية من خرافات القصاص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة

---

(١٩) الوصف فى شعر العراق ٩٢ ــ ٩٣ ، د٠ جميل سعيد ٠

(٢٠) المقدمة ١٤٢ ، ١٤٣ ، المقدمة الثالثة فى المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتاثير الهواء فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم ٠

وليس فيه ذكر السواد وانما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد اخوته لا غيـر ٠

وفى القول بنسبة السواد الى حام غفلة من طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء وفيما يتكون من الحيوانات قال ابن سينا فى أرجوزته فى الطب :

بالزنج حـــر غيـــر الاجســـادا
حتى كســا جلـــودها ســـوادا
والصـــقلب اكتســـبت البيـــاضا
حتى غـدت جـلودها بضـاضا (٢١)

ولو تحرينا أثر البيئة فى كل جانب من جوانب حياتهم المادية والمعنوية لوجدناه واضحا جليا لا يخفى ولا يغمض وهذا يوضح سببا هاما قويا قد يعد من أقوى أسباب ارتباط الانسان بوطنه وائتلافه مع بنيه ٠

وقد ظهر حب الانسان لوطنه وتعلقه به فى آداب الأمم المختلفة القديمة والحديثة ولعل أقدم هذه الآثار ما وصـــــلنا عن الأدب المصرى القديم أو الفرعونى وفى الشوق الى منف يقدم لنا الأدب الفرعونى قطعة أدبية زاخرة بالعاطفة الصادقة والحنين الشديد الى الوطن وفيها :

تأمل ان قلبى قد ذهب خلسة ، وانه ليسرع الى مكان يعرفه وأنه يسبح منحدرا مع التيار ليرى منف ولم تصلنى اية رسالة ولذلك يخفق قلبى فى مكانه ، تعال الى يا بتاح لتأخـــذنى الى منف ودعنى انظـــر اليك على عجل (٢٢) ٠

---

(٢١) اقدمة ١٤٤ ، ١٤٥ فى تاثير الهواء وانواع الاقاليم ٠
(٢٢) الادب المصرى القديم او أدب الفراعنة لسليم حسن ٣٦٧/١ ٠

وكما ذكرنا فان هذه الظاهرة موجودة فى آداب الأمم المختلفة مما يضيق المقـــام بذكرها ٠

أما ما نعتنى به فهو تعلق العرب بوطنهم وولوعهم به وحنينهم اليـــه وقد بدأ ذلك واضحا فى الأدب العربى منذ العصر الجاهلى حيث عبر عن الحنين الى الديار والأطلال ومنازل المحبوبة تلك الأشياء التى جعلها الشعراء الجاهليون قسما أساسيا ودعامة من دعائم القصيدة العربية واستمرت بعد العصر الجاهلى عصورا طويلة ٠ يقول عنترة متشوقا الى وطنه وواصفا ألمه الذى نتج عن فراقه اياه ٠

أحرقتنى نار الجـــوى والبعـــاد
بعـــد فقـــد الأوطان والأولاد (٢٣)

ويقول عمر بن أبى ربيعة :

قد هاج قلبك بعـــد الســـلوة الوطن
والشوق يحدثه للنـــازح الشجن (٢٤)

ويقول أبو تمام :

نقـل فؤادك حيث شئت من الهـــوى
ما الحـــب الا للحبيـــب الأول
كـم منـــزل فى الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبدا لأول منـــزل (٢٥)

---

(٢٣) ديوان عنترة : ٦٧ ٠
(٢٤) الديوان : ٤٣٥ ٠
(٢٥) الديوان ٤٥٧ وأخبار أبى تمام للصولى ٢٦٢ ٠

ويقول ابن الرومى من قصيدة فى المدح :

ولى وطـــن آليت ألا أبيعــــه
وألا أرى غيـــرى لــه الدهــر مالكا
عهـدت به شرخ الشــباب ونعمـــة
كنعمـــة قــوم أصبحـوا فى ظلالكا
فقــد ألفتــه النفس حتى كـــأنه
لهــا جســد ان غاب غودر هالكا
وحبب أوطـان الرجـــال اليهـم
مآرب قضـــاها الشــباب هنـــالكا
اذا ذكروا أوطـــانهم ذكـــرتهم
عهود الصبا فيهـا فحنوا لذالكا (٢٦)

وللجاحظ رسالة فى الحنين الى الأوطان يذكر فيها أن سبب الحنين يرجع الى الاغتراب ويرى أن هذه النزعة طبيعية عند كل الأمم وينقل مـا قالته كل أمة من الشعر والنثر وفى ذلك يقول : (٢٧) ٠

قالت العجم من علامة الرشد أن تكون النفس الى مولدها مشتاقة والى مسقط رأسها تواقة ٠ وقالت الهند : حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبويك لأن غذاءك منهما وغذاءهما منه ٠ وقال آخر : احفظ بلدا رشحك غذاؤه وارع حمى أكنك فناؤه ٠ وأولى البلدان بصبابتك اليه بلد وضعت ماءه وطعمت غذاءه ٠ وكان يقال : رض الرجل ظئره ودار مهده ، والغريب النائى عن بلده المتنحى عن أهله كالثور الناء عن وطنه الذى هو لكل رام قنيصة ٠ وقال آخر : الكريم

---

(٢٦) الديوان : ٤٥٧
(٢٧) رسائل الجاحظ ج ٢ ، ص ٣٨٥ ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ٠

يحن الى جنابه كما يحن الأسد الى غابة ، وقال آخر : عسرك فى دارك اعز لك من يسرك فى غربتك وأنشد :

لقـــرب الـدار فى الاقتـــار خير
من العيش الموســـع فى اغتراب

وقال آخر : الغريب كالغرس الذى زايل أرضه وفقد شربه فهو ذاو لا يثمر وذابل لا ينضر ، وقال بعض الفلاسفة :

فطرة الرجل معجونة بحب الوطن والناس بأوطانهم أقنع منهم بأرزاقهم

وقال آخر من امارات العاقل بره لاخوانه وحنينه لأوطانة ومداراته لأهل زمانه وقيل الغربة كربة والقلة ذلة وقالت العرب حماك أحمى لك وأهلك أحفى بك وقيل :

لا ترغبـــوا اخوتى فى غـــربة أبـــدا
ان الغـــريب ذليل حيثمـــا كانا

وقال : شبهت الحكماء الغريب باليتيم اللطيم الذى ثكل أبويه فلا أم ترأمه ولا أب يحدبه (٢٨) ٠

ظاهرة التشوق والحنين الى الاوطان اذن ظاهرة انسانية أصيلة وليست عارضة وهى تعبر عن تعلق الانسان بموطنه وموطن أحبائه الذى شهد أجمل ذكرياته ٠ وقد اتسعت هذه الظاهرة فى الأدب العربى مع مرور الزمان واتساع رقعة البلاد بالفتوحات والحروب وكثرة الهجرات الاختيارية والقهرية كالدمار

---

(٢٨) السابق ٣٨٥ وما بعدها ٠

والتخريب أو الاحتلال أو الطرد والنفى من البلاد أو الرغبة فى التعلم أو الوصول الى نفوذ كبير أو تحقيق جاه أو كسب مال أو حياة أفضل ٠ وكانت هذه الأسباب مجتمعة موجودة فى العهد المملوكى فكثرت الهجرات من الأوطان الأصلية الى أوطان أخرى وعلى الرغم من طول الاقامة فى الوطن الثانى فان عهود الوطن الأول كانت لا تفارق مخيلة الأدباء فتشوقوا اليها وتحدثوا عن ذكرياتهم فيها وعددوا مناقب أوطانهم ومزاياها وذموا الغربة ومنهم من أحب الوطن الثانى أيضا فأصبح له وطنان يتشوق اليهما كلما ترك أحدهما الى الآخر ٠ ومن أمثلة هؤلاء الشعراء البهاء أبو الفضل زهير محمد بن على بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عاصم المهلبى العتكى الأزدى المكى ثم القوصى (٥٨١ ـ ٦٥٦ هـ) (٢٩) والبهاء زهير ولد بالحجاز وقضى شطرا من طفولته وصباه فيه ثم انتقل الى قوص بصعيد مصر وعشق البهاء وطنه الأولى الحجاز ثم تعلق بوطنه الثانى مصر وتشوق اليهما فى شعره يقول متشوقا الى الحجـاز :

أحن الى عهد المحصب من منى
وعيش به كانت ترف ظلاله
ويا حبذا أمواهه ونسيمه
ويا حبذا حصباؤه ورماله
ويا أسفى اذا شط عنى مزاره
ويا حزنى اذا غاب عنى غزاله
وكم لى بين المروتين لبانة
وبدر تمامه قد حوته حجاله
مقيم بقلبى حيث كنت حديثه
وباد لعينى حيث سرت خياله

(٢٩) وفيات الاعيان ٢/٨١ ـ ٨٥ ٠

وأذكر أيـــام الحجـــــاز وانثنى
كأنى صـــريع يعتـــريه خياله (٣٠)

ويقول فى مسقط رأسه متذكرا أيام صباه داعيا لوطنه بالسقيا :

سقى الله ارضـــا لست انسى عهودها
ويا طـــول شوقى نحـــوها وحنينى
منـــازل كانت لى بهـــن منـــازل
وكان الصـــبا الفى بهـــا وقرينى
تذكـــرت عهودا بالمحصب من منى
وما دونـــه من أبطـــح وحجـــون
وأيامنـــا بين المقـــام وزمـــزم
واخـــواننا من وافـــد وقطين
زمـــان عهـــدت الوقت لى فيه واسعا
كمـــا شئت من جـــدبه ومجـــون
اذ العيش نضـــر فيـــه للعين منظـــر
واذ وجهـــه غضن بغير غضون (٣١)

فالشاعر فى الأبيات السابقة يتشوق الى وطنه الأول ويتجرع الألم لفراقه اياه وشدة حنينه اليه وهو يحن الى ذكريات صباه ومنازله وملاعب لهوه • ويذكر اسماء تلك الأماكن التى كانت موطن ذكرياته وما تتميز به من سمات فمنها المحصب ومنى وأبطح وحجون وهو يحن الى بعض فصوله ومواسمه مثل موسم الحج وما يتميز به من كثرة الوافدين الى جـــانب ازدحامه بالمقيمين وهنا يتذكر هذه الأماكن الطاهرة فيذكر المقام وبئر زمزم

---

(٣٠) الديوان : ٢١٠ •
(٣١) الديوان : ٢٧٥ •

ويتحسر على عدم دوام هذه الأيام التى تمثل صباه فهو يتشوق الى شبابه مع تشوقه لوطنه ٠

ثم هاجر الى وطنه الثانى مصر ونسب اليه وانتقل الى مدينة قوص لأسباب لا يذكرها التاريخ قد يكون منها رغبة الأسرة فى تثقيف ابنها واعداده لمنصب هام من مناصب الدولة ، أما زمن انتقاله الى قوص فهو غير معروف٠ ونلاحظ انه تأثر بوطنه الثانى تأثرا كبيرا فى حياته وثقافته وحتى مفردات لغته وروحه التى تتميز بخفة الظل والطرافة ٠

يقول عندما اضطر الى الرحيل عن مصر يتشوق اليها :

أيــام مصـــر ليتهـــا	فـــديت بأيامى البـــواقى
وبجـانب الفســطاط لى	قمـر يعـــزله فـــراقى
لـــو تشرفـــون رأيتـــم	من مصر نيران اشتياقى (٣٢)

وقد أنشأ الكثير من القصائد التى تصرخ بألمه وشدة حنينه وغربته بعيدا عن مصر يقول :

ليت شـــعرى ليت شـــعرى	أى أرض هى قبـــــرى
ضـــاع عمـــرى فى اغتراب	ورحيـــــل مســـــتمر
ومتى يـــــوم وفـــاتى	ليتنى لـــــو كنت أدرى
ليس لى فى كـــــل أرض	جئتهـــــا من مســـــتقر
بعـــد هــذا ليتنى أعـــ	ـرف ما آخـــر عمـــــرى
ومتى أخـــلص ممـــا	أنا فيـــه ليت شعرى (٣٣)

---

(٣٢) الديوان : ١٨٦ ٠
(٣٣) الديوان : ١١٩ ٠

ويقول متشوقا إلى الصعيد وذكرياته به ويذكر النيل :

ويرتاح قلبى للصعيد وأهله ... وعيش مضى لى عندكم ومقامى
وأهوى ورود النيل من أجل أنه ... يمر على قوم كرام (٣٤)

ويتشوق الى مصر بكل ما فيها من متنزهات ونيل ورياض ويبكى متحسرا على فراقها فيقول :

فرعى الله عهد مصر ، وحيا ... ما مضى لى بمصر من أوقات
حبذا النيل والمراكب فيه ... مصعدات بنا ومنحدرات
هات زدنى من الحديث عن النيل ... ودعنى من دجلة والفرات
وليال بالجزيرة والجيزة ... فيما اشتهيت من لذات
بين روض حكى ظهور الطواويس ... وجو حكى بطون البزاة
يا زمانى الذى مضى يا زمانى ... لك منى تواتر الزفرات (٣٥)

وهو يدعو لوطنه الثانى بالسقيا على عادة الشعراء الجاهليين يقول متشوقا الى وديانها ونسيمها وترابها وحصبانها وأهلها :

سقى واديا بين العريش وبرقة
من الغيث هطال وهتان
وحيا النسيم الرطب اذا سرى
هنالك أوطان اذا قيل أوطان
بلاد اذا ما جئتها جئت جنة
لعينيك منها كلما شئت رضوان

---

(٣٤) الديوان : ٢٣٦ .
(٣٥) الديوان : ٤٨ .

تمثـــل لى الأشـــواق أن ترابها
وحصـباءها مسـك يفـوح وعقيان
فيا سـاكنى مصر تراكـم علمتم
بأنى مالى عنـكم الدهر سـلوان
وما فى فـؤادى موضـع لسـواكم
ومن أين وهـو بالشـوق ملآن
عسى الله يطـوى شـقة البعد بيننا
فتهـدأ أحشـاء وترقأ أجفـان
على لذاك اليـوم صـوم نذرته
وعندى على رأى التصوف شكران (٣٦)

والشاعر ينفث عن شدة حبه وصدق عواطفه تجاه هذا الوطن فيترنم بترديد أسماء أماكنه ونسيمه ووديانه وترابه ويشبهه بالجنة ٠ ويشتد شوقه وألمه لفراق وطنه فيناجيه مناجاة الحبيب لمحبوبه ويبثه وجده وهواه وهو فى الكثير من شعره يكثر عن الحديث عن كراهيته للغربة وهنا يدعو الله أن ينهى غربته ليعود الى وطنه وينعم بالأمن والاسقرار وينذر ليوم العودة صياما وشكرا لله على أوبته ٠

وحب الوطن هادىء أصيل غير قابل لعوامل الغدر وتقلب الأمزجة والشاعر كأى محب يحزن ويتألم لفراقه ويشعر بمرارة الحياة ويكابد طول السهر والسهاد يقول :

الى كم حياتى بالفـراق مريرة ... فلم أر فيهـا ما يسر وما يرضى
ولم أر مصر ا مثل مصر تروقنى ... ولا مثل ما فيها من العيش والخفض

---

(٣٦) الديوان ٢٦٤ ، ٢٦٥ العريش وبرقة : اسمان لمكانين – الغيث المطر هطال وهتان : استمرار المطر وهتان هو من المطر فوق الهطل والمراد كثرته رضوان المقصود الرضا – ترقا : رقأت الدمعة اذا جفت وانقطعت (لسان العرب) ٠

وبعد بلادى فالبلاد جميعا سواء فلا أختار بعضها على بعض
اذا لم يكن فى الدار لى من أحبة فلا فرق بين الدار وسائر الأرض (٣٧)

ومن البيت الأخير نرى أن الحنين الى الأوطان يدخل تحته الحنين الى الأهل والأحباب وان وطن المرء هو ما أهل بأهله وأحبابه والأبيات السابقة تعكس لنا صورة مصر فى عصر الشاعر أو كما يراها أبناؤها وقد يكون هناك فرق بين ما يراه الشاعر وبين الواقع لأن الانسان يحب وطنه ويعشقه بوجدانه وقد يكون هذا الوجدان لا يصور حقيقة الواقع والشاعر غير مطالب بسرد الحقائق حين يتكلم عن عشقه وانما المهم هو صدق عاطفته وعمق احاسيسه . ومع ذلك فهو لم يجانبه الصواب حين وصف مصر بالعيش والخفض ذلك أن مصر فى هذا العصر كانت قلب العالم الاسلامى النابض وكانت تمثل الرخاء والأمن والاستقلال والاستقرار فقد انتصرت على الصليبيين فى وقت كثر فيه تدمير البلدان وخرابها واشاعة الذعر والخوف فى قلوب سكانها ولذا كثر حديث الشعراء عن هذه المميزات التى انفردت بها . والشاعر مولع بوطنه يحن فى غربته الى كل ما فيه ومن فيه يقول البهاء زهير متشوقا الى مصر وأهلها :

أأرحل عن مصر وطيب نعيمها فأى مكان بعدها لى شائق
وأترك أوطانا ثراها لناشق هو الطيب لا ما ضمته المفارق
وكيف وقد أضحت من الحسن جنة زرابيها مبثوثة والنمارق
بلاد تروق العين والقلب بهجة وتجمع ما يهوى تقى وفاسق
أسكان مصر ان قضر الله بالنوى فثم عهود بيننا ومواثق (٣٨)

---

(٣٧) الديوان : ١٤٩ .

(٣٨) الديوان : الزرابى : البسط وقيل ما بسط واتكى وزرابى النبت اذا أصفر وأحمر وفيه خضرة فلما رأوا الالوان فى البسط والفرش شبهوها بزرابى النبت (اللسان) النمارق : واحدتها نمرقة وهى الوسادة الصغيرة ويقال فى الصحاح أن الزرابى هى النمارق .

والشاعر فى البيت الثالث يقتبس من القرآن الكريم وصفه الجنة التى وعد الله بها عباده المؤمنين حيث قال تعالى (فيها سرر مرفوعـــة واكواب موضوعه ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة) (٣٩) ٠

ومن الشعراء الذين اضطرتهم ظروف حياتهم الى الرحيل عن الوطن جمال الدين ابن نباته (٦٨٦ ـ ٧٦٨ هـ) وهو أديب مصر الكبير الذى رحل الى الشام واستقر فى كنف العالم الأديب أبى الفدا على بن اسماعيل الأيوبى ملك حماة والف باسمه اكثر كتبه ونظم فيه شعرا كثيرا ٠ وكانت مدة اقامته فى حماه من أجمل الأيام وأحلاها ولذا أكثر الشاعر من مديح هـــذا الملك والسناء على ما قام به نحو الشاعر يقول فيه :

لولاك مـــا أمســـت قريـــ	ـحتى الكـــليلة شـــاعرة
انت الـــذى روت غمـــا	ئمـــه ربـــاى العـــاطرة
فلقـــد وجـــدت ديـــار ملـ	ـكك بالســعادة عـــامرة
قهرت حمـــاة لى العـــدا	فحمـــاة عنـــدى القاهرة (٤٠)

ويتضح من البيت الأخير مكانة حماة عند الشاعر لما ناله فيها من عزة ومكانة عالية والبيت فيه تورية ٠

ومع هذه المكانة التى نالها والتى جعلته يعد حماة وطنه كالقاهرة ومع ما رأى الشاعر فى مصر من عذاب وآلام وضيق فى الرزق وحسد من الحساد فهو يتشوق اليها ويحن الى ذكريات صباه فيها يقول :

---

(٣٩) سورة الغاشية اية ١٣ ـ ١٦ ٠

(٤٠) الديوان : ١٨٧ ٠

أبرق لى بالشـامع نيل مدامعهـا
يجـريه ذكر منـازل المقياس
سـقيا لمصر منـازلا معمورة
بنجـوم أفق أو ظبـاء كنـاسى
وفدى لهـا بلـده كـم نثرة
فيهـا لأسراب الدمـوع أقاسى
وطن له سـهرت وشـابت لمتى
ونعـم على عينى هـواه ورأسى
من لى بـه والحال ليس بآسـن
كـدر وعطف الدهر ليس بقاسى
والعيش حلى طالمـا خطـرت به
أعطـاف كل مهفهف ميـاسى
ثم انقضى ذاك الـزمان وما بقى
من حليـه عندى سوى الوسواس (٤١)

والشاعر يذكر النيل ومنازل المقياس ويدعو لمصر بالسقيا ويتشوق الى أيامه فى وطنه ويتحسر على فراقه ويتمنى أن يعود اليه وهو يتشوق الى أحبائه فى هذا الوطن ٠

ونلاحظ عنايته بالبديع واستخدامه للامثال الشعبية المصرية مثل على عينى هواه وراسى وسهولة اللغة ووضوح الألفاظ وقربها من لغة الحيـاة اليومية ٠

وابن نباتة يتشوق الى أرض مصر وذكريات شبابه فيها فيقول :

---

(٤١) الديوان : ٢٦٥ ٠

بأبى الخدود العاريات من البـكا
اللابسـات من الحـرير جلاببا
النـابتات بأرض مصر أزاهرا
والزاهـرات بأرض مصر كواكبا
آهـا لمصر وأين مصر ، وكيف لى
بديار مصر مراتعـا وملاعبـا
حيث الشـبيبة والحبيبة والوفا
فى الاعر بين مشاربا وأصاحبا(٤٢)

ويظهر فى الأبيات السابقة قلق الشاعر وحزنه وحيرته وشدة تفكيره فى كيفية الذهاب الى مصر حيث ذكريات الصبا والشباب وحيث الحبيبـة والأصدقاء الأوفياء الذين يوافقونه فى الصفات والأخلاق والعادات والتقاليد. ذلك أنه مهما بعد عن وطنه ومهما آسى فيه فهو ابنه وفيه أهله الذين يتفقون مع فى المشارب والأهواء وهو مهما لاقى من ترحيب فى البلد الآخر فهو غريب والغريب ذليل كما يقولون .

وتراه يقول حانا الى داره وأهله حوله فى وطنه :
وحبذا العيش والأيام مسـعفة
ومصر دارى وأحبـابى بها حولى
يا بارقا من نواحى مصر مبتسما
بلغ تحية هامى الدمع منهمل (٤٣)

ونلاحظ أن دموعه لا تجف فى غربته تشوقا وحنينا الى وطنـه وتحسرا على فراق أهله . وهو فى حزنه وشدة بكائه وألمه يتحدث عن معالم وطنه

---

(٤٢) السابق : ٣١ .
(٤٣) المصدر السابق .

وآثاره فيذكر النيل والأهرام يقول ابن نباتة محدثا البرق السارى فى آفاق مصر :

يا سارى البرق فى آفاق مصر لقد
أذكرتنى من زمان النيل ما عذبا
حدث عن البحر أو دمعى ولا حرج
وانقل عن النار أو قلبى ولا كذبا
واندب على الهرم الغربى لى عمرا
فحبذا هرم فارقته وصبا(٤٤)

ونشعر فى تشوق الشاعر الى وطنه بنبضات قلبه قوية صادقة تكشف عن قلبه الذى يحترق شوقا ولهفة لوطنه الذى اضطر الى تركه اضطرارا ٠

ويشتد التشوق الى الأوطان بعد تدميرها وخرابها فيبكيها أبناؤها ويرسلون آهاتهم وحسراتهم على فراقها ومناقبها ومعالمها وذكرياتهم بها والمعروف أن شعر الرثاء من أصدق أنواع الشعر وأقواه عاطفة خاصة ما كان منه فى رثاء الأقارب الأقربين والوطن أقرب الأقربين فهو الأم التى انجبت وحنت وهو الأب الذى أعطى وحمى وضحى لذا كان رثاء الأوطان التى دمرت نتيجة للغزو الخارجى الصليبى والتترى والافرنجى زفرات نار صادرة عن قلوب حزينة وهو يبين شوق الشاعر وحبه لوطنه الذى ما كان ليغدر به أو يهجره فحب الأوطان حب أصيل ثابت غير متقلب لا يشوبه تغيير ولا تحول ولذا استعرت عاطفة الشوق والحنين من الشعراء الذين تركوا أوطانهم قهرا بعد دمارها ومن أمثلة ذلك بكاء علاء الدين الغزولى دمشق بعد تخريبها وهو فى هذا البكاء يتشوق اليها ويحن الى طيب عيشه فيها يقول :

---

(٤٤) المصدر السابق ٠

اجـريت جمر الدمع مع أجفانى — حزنا على الشـــقراء والميـــدان
لهفى على وادى دمشق ولطفـــه — وتبدل الغـــزلان بالثيـــران
واحسرتاه على دمشق وقولهـــا — ســـبحان من بالمغـــل قد أبلانى
لهفى عليك محاســـنا لهفى عليـ — ـك عرائسا لهفى عليـــك مغانى
أدمشق آهاتى عليـــك كثـــيرة — كالدمع فى جفن الكئيب العـــانى
لى أنـة لى حـــرقه لى لهفة — لى حسرة لى لوعـــة وكفـــانى
ما كان أهنى العيش فى ساحاتها — والدار دارى والزمان زمانى(٤٥)

ومن التشوق الى الأوطان التشوق الى وطن الاسلام الأول · التشوق الى الأراضى المقدسة بالحجاز وطن المسلمين فى كل أنحاء الأرض شرقا وغربا شمالا وجنوبا ·

وقد انتشر هذا الفن منذ العصر الفاطمى عند أمثال المهذب بن زبير وأخيه الرشيد وعند بنى عرام (٤٦) وازداد اتساعا فى العصر المملوكى · وأما أسباب هذه الظاهرة فترجع فى أغلب الظن الى :

ـ كثرة الحروبفقد شهد هذا العصر الحروبالصليبية والحروب التترية وحروب الفرنجة التى أدت الى سقوط الأندلس · ومن المعروف بل من المؤكد أن الحروب من أشد المحن والشدائد · وفى الشدائد يهرب الانســـان الى الملجأ الآمن ·

ـ تفشى الظلم والاضطهاد والسخرة من الحكام الأجانب لأبناء الشعب البؤساء ·

---

(٤٥) الوطن فى الادب العربى ـ ابراهيم الابيارى ـ دار المعارف ٧٨ ، ٧٩ ·
(٤٦) ابن دقيق العيد : ١٠٨ ·

– الفقر وكثرة المجاعات والأمراض والطواعين والكوارث الطبيعية ٠
– انتشار الفساد فى كافة جوانب المجتمع واستشراء الموبقات ٠
– التدين والزهد فى الدنيا ومتاعها كرد فعل للفساد الشديد ٠

– الاحساس بالغربة فى الوطن الأصلى٠ ويقول د٠ محمد زغلول سلام عن ظاهرة الاغتراب فى هذا العصر (ونحن نحس فى شعر هذا العصر بروح غريبة تسرى فى أوصاله وتتمشى خافته بين جنباته حينا وصارخة أحيانا تلك هى روح الغربة ، شعور الشاعر بالاغتراب فى عصره وبين قومه وعلى أرض بلده) (٤٧) ٠

وهو يرى أن هذا الاحساس هو الذى أملى على الشعراء كثيرا من معانى أشعارهم وموضوعاتهم مثل موضوعات التصوف والغزل الروحى والمديح النبوى والابتهال والحنين والشكوى (٤٨) ٠

وقد أدى كل ما سبق الى انتشار ظاهرة الهروب الجسدى أو النفسى أما الأولى فكانت بالهجرة الى الأراضى المقدسة لمجاورة أحد الحرمين وأما الثانية فكانت بالانفصال عن المجتمع ومشكلاته والحياة فى الماضى حيث عهود الاسلام الأولى ومحاولة تأصيل الانتماء الى تلك الديار ونتج عن ذلك كثرة التشوق والحنين الى وطن الاسلام الأول ٠ أما أهم من تشوقوا الى تلك الديار فهم شعراء الصوفية ومنهم عفيف الدين التلمسانى الشـــاعر الصوفى المغربى الأصل الذى رحل الى مصر والشام وتوفى بمصر حوالى ٦٩٠ هـ ٠ وظهر هذا التشوق عنده أما فى مقطوعات منفردة أو من خـلال الغزل الصوفى يقول : متشوقا الى تلك الأراضى معلنا عشقه لها وحنينه اليها:

---

(٤٧) الادب فى العصر المملوكى ٢/١٠٧ ٠
(٤٨) ن٠ السابق والصفحة ٠

ما هب من نحوكم نسيم صـــبا ... الا وأذكى بمهجتى لهبـــا
ولا شـــدا مطرب بذكـــركم ... الا ونادى المشـــوق وأطـــربا
ولا تذكـــرت عيشـــة سلفت ... بالخيف الا وقلـــت واحـــربا
لا نال منـــك المشـــوق بغيته ... ان كان يوما الى سواك صبا(٤٩)

والشاعر لا ينسى هذه الأماكن وكل شيء يمر به يذكره بها ويزيد من شوقه وحنينه اليها وهو يتشوق أيضا الى أهلها يقول متشوقا الى المدينة المنـــورة :

يا حبذا لوعتى عليـــك ويـــا ... بشراى ان مت فيـــك مكتئبـــا
أحبابنا هـــل لقربكم أمـــل ... أم هل أرى لوصـــلكم ســـببا
آهـــا لأيامنـــا بقـــربكم ... وطيب عيش بوصـــلكم ذهبـــا
يا سائق العيسى نحـــو كاظمـــة ... أبلغ سـلامى لسـاكنين قبـــا
وهـــل قضى ذلك المشوق بكـــم ... وما قضى من وصـالكم أربا (٥٠)

ويقول :

قفا بالمطـــايا بين نجد وشـــعبه ... نؤدى تحيات الغـــرام لصـــبه
فبين ربا تلـــك الربوع منـــازل ... لعـــلوة ماء الـــدمع أكثر شربه
اذا ما لتثمنا بالنواظـــر تربه ... تمسـكت الأجفـــان منا بقـــربة
أحن اليها وهى قلبى وهـــل ترى ... سواى أخو وجد يحن لقلبه (٥١)

---

(٤٩) الديوان قصيدة ٢١ .
(٥٠) نفس السابق ٢١ .
(٥١) ن. السابق قصيدة ٢٢ .

ويقول :

نسيم الصبا أذكرتنى العهد بالوادى
وهيجت أشواقا شـــقفن فـؤادى
فان كنت تحى ميت الهجــر والجوى
قتيل الهـــوى احييتنى بمـــرادى
فانى مذ فارقـــت أحبـــاب مهجتى
وعوضـــت من قرب لهم ببعـــادى
جفونى جفت نوم الدجى لمضــاجعى
وصرت جليسا للســـها بســـهادى
فيا ذلك الـــدانى الى ذلك الحمى
اذا ما أنخت العيس فى ذلك الـــوادى
فناد به السكان أسكنتم الحشـــا
وقود لظى فالحجر صـــار مهـــادى
فلم أستطع من الليل ميلا لمضـــجعى
الهجع والنيران حشـــو وســـادى
رعـى الله أياما بمنعـــرج اللوى
وليلا نفى فيه الوصال رقادى (٥٢)

ويقول متشوقا الى يثرب :

عيون الحيا جودى لتربة يثرب
بدمـع هتـــون ودق متصـــوب
وعودى يطيب من سلامى طيبة
نسيم الصبا النجدى يا خير طيب

---

(٥٢) الديوان : ٣٦ .

بلاد بها للوحـــــى مربى ومربع
ومنتجع الغفران عن كل مذنب (٥٣)

والحنين الى الأماكن المقدسة دليل عاطفة دينية قوية عند المسلمين عامة والصوفية خاصة .

وقد تصبو نفس الشاعر الى الأراضى المقدسة لسببين أحدهما أنها وطنه الأول الذى نبت ونشأ فيه وثانيهما أنها مهد الاســـلام وشعائره ومكانتها لا تخفى على كل مسلم يقول ابن دقيق العيد فى التشوق الى نجد :

فى أرض نجد منـــزل الفـــؤاد
عمرته شـــوقى وصـــدق ودادى
ما كان أقربه على من رامـــــه
بمسرة لولا اعتراض عــــوادى
أصـــبو اليه مع الزمان فكيف لا
أصـــبو وتلك منـــزلى وبـــلادى
أرض بهـــا الشرف الرفيع وغاية الـ
عز المنيع ومســـكن الأجـــواء
أوطنتها فخـــرجت منهـــا عنـــوة
بمكائد الأعداء والحســـاد (٥٤)

فالشاعر فى الأبيات السابقة يتشوق الى هذه الديار لأنها وطنه كما أنها وطن الاسلام وهو يتحدث عن مزايا هذه الديار وكيف أخرج منها عنوة وهذا مما يزيد حزنه ويستثير شوقه والملاحظة الجديرة بالذكر أن شعراء الصعيد كانوا من أسبق شعراء مصر حنينا الى الأماكن المقدسة وذكرا لها

---

(٥٣) الديوان : ٣٦ .
(٥٤) طبقات الشافعية ١٢/٦ .

فى قصدائدهم ولا سيما شعراء قوص وأسوان وادفو ولعل السبب فى ذلك راجع الى أن قوص وما جاورها كانت تزخر بالذاهبين الى مكة والمدينة والآيبين منها فتلك البلاد كانت طريق الحج الآمن ولا شك أن رؤية الحـاج وهو متوجه الى أراضى الحجـاز أو استقباله وهو راجع عنهـا تثير فى نفوس المسلمين حنينا الى تلك البقاع المباركة ، فلا غرابة أن يكثر شعراء الصعيد من التشوق والحنين الى الاماكن المقدسة هذا بالاضافة الى أن من بين أهل الصعيد عددا كبيرا من أحفاد العرب الحجازيين الذين نزحوا الى صعيد مصر فى العصور السابقة فرارا مما كانوا يلاقونه من اضطهاد الولاة وعسف الحاكمين وهم حين تركوا أرضهم وديارهم واستقروا بالصعيد كانوا دون شك يحملون فى جوانبهم وبين أحشائهم نفسا كئيبة حزينة تفيض بالشوق الى أرضهم وديارهم التى خرجوا منها مكرهين وعلماء النفس يعترفون بأن العواطف والانفعالات اذا كانت مكينة فى النفس متوغلة فى أعماق القلب تورث كما يورث غيرها من الصفات البدنية أو الجسمية الأخرى (٥٥) .

والتشوق الى الأراضى الحجازية يتضمن الحنين الى مواســم الحج والعمرة يقول ابن دقيق العيد :

يهيم قلبى طــــربا عندمـــا	استملح البــرق الحجـــازيا
ويستخف الوجـد عقلى وقــد	أصبح لى حســـن الحجازيا
يا هل أقضى حـــاجتى من منى	وانحر البـــزل المهـــاريا
وأرتوى من زمـــزم فهى لى	ألذ من ريـق المهـاريا (٥٦)

ومن التشوق الى مهد الاسلام الاول ووطن رسول الله صلى الله عليه وسلم التشوق الى رسول الله عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم والتشوق

---

(٥٥) ابن دقيق العيد : د. على صافى حسين ١١٨ بتصرف دار المعارف .
(٥٦) السابق ١٥٤ ، ٢٠٠ ، فوات الوفيات ٣/٤٤٤ .

الى اثاره وعهده يقول ابن دقيق العيد محدثا الحجاج المتوجهين الى هذه الأماكن المقدسة ونفسه تجيش بالشوق والحنين :

يا سائرا نحو الحـــجاز مشمرا	أجهد قديتك فى السير وفى السرى
وتذرع الصبر الجميل ولا تكن	فى مطلب المجـــد الأثيل مقصرا
أقصد الى حيث المكارم والنـدى	يلقاك وجههـــا مضـــيئا مقمرا
واذا سهرت الليل فى طلب العـلا	فحذار ثم حذار من خداع الكرى
ان كلت النجب الركائب تارة	فأعدلها ذكـــر الحبيب مكـــررا
قف بالمنازل والمناهـــل من لدن	وادى قباء الى حمى أم القـــرى
وتوخ آثار النبى فضـــع بهـــا	متشرفا خديك فى عفر الثرى(٥٧)

والشاعر فى أبياته السابقة يصدر عن عاطفة دينية قوية ونفس محبة متشوقة وهى أيضا تسدى النصيحة المخلصة لمن وافاه الحظ ونال شرف الحج وزيارة تلك الأماكن الطاهرة وفيها يتحدث عن الركائب التى كان يركبها حجاج بيت الله لتوصلهم الى هذه البقاع الطاهرة كما يقف على المنازل ويذكر أسماء الأماكن حبا لها وشوقا اليها ٠

وقد وجدت فى هذا العصر مقطوعات مستقلة بالحنين والتشوق الى مهد الاسلام الأول كما كثر التشوق والحنين من خلال المدائح النبوية وقصائد الصوفية ٠

أما التشوق الى الأوطان عامة فقد خصه بعض الشعراء بمقطوعات خاصة مثل البهاء زهير وابن نباتة ولكن الظاهرة الغالبة هى عدم افراد قصائد خاصة به وانما جاء مبثوثا خـلال القصائد الغزلية والمدائح النبوية ورثاء المدن ٠

---

(٥٧) ابن دقيق العيد د٠ على صافى حسين ١٣٩ ، فوات الوفيات ٤٤٤/٣ ٠

كما لاحظنا أن بعض الشعراء المحافظين قد استهلوا قصائدهم بالوقوف على اثار الاوطان والحديث عن معالمها وبث شوقهم وحرقتهم لفراقها ٠

ووجدنا الشاعر فى هذا الموضوع يكثر من البكاء والدموع والتحسر والاهات كما يعنى بذكر أسماء الأماكن موطن الذكريات وربما كان تكرار هذه الاسماء يريح نفسه الوالهة المتشوقة وقد أخذ هذه الظاهرة من الوقوف على الأطلال وذكر الأماكن التى حلت بها المحبوبة والتشوق اليها فى الشعر الجاهلى ٠

ودائما نجد الشاعر يفضل وطنه على سائر الأوطان ويربط بين التشوق الى الأوطان والتشوق الى الأهل والاصحاب والأحباب ٠

أما المعانى التى تناولها الشعراء فأكثرها مكررا تناوله السابقون وان توسع فيه شعراء هذا العصر ٠ ولكن البواعث والدوافع التى وجهتهم الى الاكثار من هذا اللون كانت تختلف عن بواعث السابقين ودوافعهم ٠

والعاطفة فى هذا اللون من الشعر عاطفة متجددة قوية لا تضعف ولا تهن ٠

ومع قوة العاطفة وصدق الاحاسيس والتعبير عن نفسية الشاعر صور هذا الشعر عصره بطريقة غير مباشرة ووصف قلقه وحيرته وعدم استقراره وما حل به من خراب ودمار مادى ومعنوى ٠

الفصـــل الرابع
الشـــكوى في الشـــعر المملوكي

لم يرض الناس عن حياتهم فى أى عصر من عصور البشرية ذلك أن النفس أمارة بالسوء وأن الانسان شغوف الى ما ليس فى حيازته طموح الى الكثير يريد الغنى والجاه وكثرة العيال والمنصب وربما نال كل هذا وطمع فى المزيد وشعر بقلة ما عنده وكثرة ما عند الآخرين وحينئذ تتعالى شكواه من جور الزمان ونكد الجدود ٠

واذا كانت الشكوى طبيعة فى كثير من النفوس البشرية فان ظهورها فى الأدب كان بمثابة رد الفعل الطبعى لوجودها فى الحياة ٠ وعلى الرغم من أن بعض البشر مولعون بالشكوى نتيجة للطمع والجشع وعدم القناعة والجرى وراء هوى النفس فانه فى أغلب الأحيان تكون هناك مبررات قوية للشكوى قد تكون خاصة بالانسان المشتكى لظروف خاصة ألمت به كفقر أو عوز أو مرض أو مصيبة ٠ كما قد تكون الشكوى عامة ترجع الى فساد المجتمع كله أو أحد جوانبه كسوء الحالة السياسية أو سوء الحالة الاقتصادية أو كثرة الكوارث والمحن الطبيعية أو الفساد الأخلاقى وتفشى الأمراض الاجتماعية كالنفاق والرياء والطمع والرشوة والخيانة والغدر فيقل الوفاء ويندر الخل الوفى وربما يتفاقم أمر الشكوى فتشمل الناس جميعا والمجتمع والدهر وتقلب الزمان ٠ وهذه عادة تكون شكوى قاتمة سوداء ممتزجة أشد الامتزاج بروح التشاؤم التى تتوقع المزيد من الآلام والكوارث والأحزان ٠

وسواء أكانت الشكوى عامة أم كانتخاصة فهى انعكاس لشقاء النفوس وبؤسها ٠ فعندما يعتصر الألم النفوس ويفيض حزنها على حالها وحال الزمان معها يجد ذوو النفوس المرهقة دافعا قويا الى القول والابداع والتعبير عن نفوسهم التى مزقها الألم ٠

الشكوى اذن دليل الاحساس بالألم والألم لا ينتج الا عن عاطفة صادقة

لا رياء فيها ولا تصنع وهذه الأحاسيس الصادقة التى هى ثمرة المعاناة تخلق الشعر الجيد · وكما يقول أحد الشعراء (١) :

فما هو ألفاظا عنيت بجمعها
وان هو الا شعبة من فؤاديا

والشكوى تتعدد صورها فقد تكون عتابا رقيقا أو ذما هجاءا أو سخرية لاذعة · ولأن الشكوى ثمرة معاناة وتجارب فقد يصاغ منها حكم رائعة تعد خلاصة ما استفاده صاحبها من دهره وناسه وزمانه · وقد تعنى بتصوير عواطف المشتكى وآلامه وكفى أو تهدف الى النقد الاجتماعى والاصلاح ·

ولأن الشكوى نزعة انسانية خالصة فقد وجدت فى الأدب منذ العصر الجاهلى واستمرت الى عصرنا الحاضر وبطبيعة الحال نجد أن أساليبها تختلف من عصر الى آخر وأن معانيها تتنوع ودواعيها تتعدد ·

وكانت الشكوى منذ العصر الجاهلى والى العصر العباسى تكاد أن تكون ظاهرة فردية تناولها الشعراء فى خلال موضوعات شعرهم التقليدى فعبروا عن آلامهم وبثوا شكواهم من الفقر وسوء الحظ وقلة الوفاء وحب المال وجشع البشر وجور الزمان · واستخرج الشعراء الجاهليون ومن بعدهم من تلك التجارب كثيرا من الحكم الرائعة التى كانت ثمرة عنائهم وشكواهم يقول عبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلى المعمر :

من يسأل الناس يحرموه
وسائل الله لا يخيب

---

(١) بيت أعجبنى من كتاب مهمة الشاعر فى الحياة / سيد قطب

افلــح بمــا شئت قــد يبــلغ
بالضــعف وقد يخـدع الأريب (٢)

ويقول زهير بن أبى سلمى الشاعر الجــاهلى الكبير الذى شهد له عمر بن الخطـــاب :

ومن يجعل المعروف فى غيــر أهــله
يكن حمـــده ذما عليــه وينـــدم
ومن يغتــرب يحسب عــدوا صــديقه
ومن لا يكرم نفســـه لا يكــرم (٣)

ويقول أوس بن حجـــر وكان عاقلا فى شـــعره كثير الوصف لمكارم الأخـــلاق (٤) :

فانى رأيت النــــاس الا اقلهــم
خفاف العهـود يكثرون التنقـــلا
بنى أم ذى المـــال الكثير يرونه
وان كان عبـــدا سيد الأمر جحفـــلا
وهم لمقـــل المـــال أولاد عـــلة
وان كان محضا فى العمومة مخولا (٥)

ونستشف من هذه الحكم معاناة الشاعر فى علاقاته بالمجتمع والناس

---

(٢) الشعر والشعراء ٢٦٩/١ والقصيدة أولها (اقفر من أهلها ملحوب) ٠ وهى اجود شعره وقد الحقها التبريزى بالمعلقات فكانت آخر القصائد العشر التى شرح ٠
(٣) معلقة زهير بن أبى سلمى ، الشعر والشعراء ١٣٧/١ ترجمته ٠
(٤) الشعر والشـعراء ٢٠٢/١ ٠
(٥) ديوان أوس بن حجر ٩١ ـ ٩٢ تحقيق محمد يوسف نجم ٠

وفيها تبدو روح السخط على أخـــلاق الناس وتلونهم وغـــدرهم والزمان ولهوه ٠

ومنذ العصر العباسى كثرت الشكوى فى شعر الشعراء (٦) ٠ وكانت الحكمة فى هذا العصر ثمرة تجارب الشعراء ومعاناتهم وشكواهم ودستورهم الذى وضعوه فى التعامل مع الناس نلمح ذلك فى قول صالح بن عبد القدوس :

واحـــذر معـــاشرة الدنىء فانهـــا
تعـدى كمـــا يعدى الصحيح الأجرب
يلقــــاك يحلف أنه بـك واثـق
واذا توارى عنـــك فهـــو العقرب
يعطيك من طـرف اللســان حــلاوة
ويروغ منـــك كمـــا يروغ الثعلب
واختــر قرينـــك واصطفيه تفـــاخرا
ان القـــرين الى المقـــارن ينشب (٧)

ويقول بشار بن برد فى تقلب الزمان وغدره :

ودهـــــر المـــرء منقلب عليـــه
فنـــونه والنعيـــم الى انقلاب (٨)
رأيت الدهـــر يشـــــعب كل الف
ولا يبقى لوحــــــدته الوحيـــدا (٩)

وكان أبو تمام يستهل بعض قصائده بشكوى الزمان وخطوبه ٠ يقــول

---

(٦) رسالة الدكتوراه للمؤلفة بعنوان شعر الحكمة والفلسفة الى نهاية القــرن الرابع الهجرى ٠

(٧) معجم الادباء ٩/١٢

(٨) الديوان ٢٤٨/١ ٠

(٩) ن٠ السابق ١٨/١ ٠

د· شوقى ضيف (وهو كثير الحكم فى مدائحه يستهل بعض قصـــائده بشكوى الزمن وخطوبه بحيث تعد مقدمة قوية لابن الرومى والمتنبى وهو يمزج شكواه بمغالبة عاتية للدهر (١٠) يقول أبو تمام :

وغـربت حتى لـم أجـد ذكر مشرق
وشرقت حتى قـد نسيت المغـاربا
خطـــوب اذا لاقيتهـــــم رددننى
جريحـــا كأنى قـد لاقيت الكتائبا
وقد يكهـــم السيف المسمى منيـــه
وقد يرجع المرء المظفر خائبا (١١)

ومنذ العصر العباسى الثانى أصبحت الشكوى ظاهرة عامة فى أدب العصر وكان من أهم أسبابها سوء الحالة الاقتصادية وعدم التـــوازن الاجتماعى ومن آثارها فن المقامات وغيره منأدب التكدى· وقد أكثر الشعراء من شكوى الزمان وذم الدنيا يقول ابن لنكك البصرى ذاما زمانه :

يا زمانا ألبس الأحــــرار ... ذلا ومهـــــــــــــانة
لســـــت عنــــدى بزمان ... وانمـــــا أنت زمــــــانه
كيف نرجـــــو منـــك خيرا ... والعـــــلا فيـــك مهــانه
أجنـــــــــون ما نــــــراه ... منـــك يبدو أم مجانه (١٢)

ويقـــول :

جار الزمان علينا فى تصـــرفه ... وأى دهر على الأحرار لم يجـــر

---

(١٠) العصر العباسى الاول ١٦٦ ·
(١١) الديوان ١/١٤٣ ·
(١٢) تييمة الدهر ٢/٣٥٠ ·

عندى من الدهـر مالو أن أيسره يلقى على الفلك الدوار لم يدر(١٣)

ويقـــــول :

نحن والله فى زمـــان غشـــــوم لو رأينـــاه فى المنـام فزعنـــا
يصبح الناس فيــه من سوء حــال حق من مات فيـــه يهنـا (١٤)

وكثرت شكوى الحال والزمان والأصدقاء فى شعر أبى فراس الحمدانى نتيجة لظروفه الخاصة وقسوة معاناته وتخلى القريب والصديق عنه · كما وجدنا المتنبى يبث فى شعره شكوى زمانه وناسه وأخلاقهم ·

وكان أبو العلاء المعرى من أشهر شعراء الشكوى · ويطول بنا المقام اذا حاولنا استقصاء كل الشعراء الذين قالوا فى الشكوى وهذا ليس المراد من البحث بل المراد التدليل على أن الشكوى ظاهرة انسانية طبيعية فى البشر وأن الشعراء تناولوها وتحدثوا عنها فى العصر المملوكى فبعضهم أوجـــز وبعضهم أطال · وفى كل عصر توجد مبررات تستدعى استمرار الظاهرة كما توجد معان جزئية أو تفصيلية جديدة تضاف الى ما كان معروفا نتيجـة لتجدد وجه الحياة وتنوع أحداثها · ولأن مشـــكلات الحيـــاة لا تنتهى وصعوباتها وأزماتها تشتد فقد استمرت الشكوى فى أدب الدولة الفاطمية والأيوبية ·

واذا ما وصلنا الى العصر المملوكى وجدنا أن هذه الظاهرة تمكنت فى النفوس أكثر من ذى قبل وانتشرت انتشارا واسعا وتجددت فى بعض معانيها

(١٣) ن· السابق ٣٤٨ ، ٣٤٩ ·
(١٤) ن· الســـابق ·

وأساليبها ومالت الى الشعبية فى تعبيراتها واختيار ألفاظها كما جدت عليها معان أكثر جدة وطرافة ٠

أما دوافع الشكوى وبواعثها فى هذا العصر فأهمها فساد الحياة العامة وكثرة الكوارث الطبيعية وفساد الأخلاق وندرة الصديق وانتشار الفقـــر والجوع والاحساس بالغربة فى الوطن وعدم الشعور بالأمان والاستقرار وبالنسبة للشعراء سبب عدم فهم الحكام للشعر الجيد وبالتالى عدم تقـديره ازمة نفسية أدت الى هجرهم لبلاط الملوك فانصرفوا الى الشعب يعبـرون عن مشكلاته وآلامه وأحزانه التى هى أحزانهم ٠ يقول الشاعر الغـــزى (٧٠٦ ـ ٧٥٣ هـ) متحسرا على كساد سوق الشعر فى عصره :

قالوا هجــرت الشعر قلت لهم نعــم
باب الدواعى والبواعث مغــلق
خلت الديـــار فلا كـــريم يرتجى
منــــه النــوال ولا مليح يعشق
ومن العجـــائب أنه يشـــترى
ويخان فيه مع الكساد ويسرق (١٥)

والشاعر يعتمد فىأسلوب شكواه علىالتورية وهى أهمالمحسنات البديعية المعنوية التى راجت سوقها فى العصر المملوكى لا سيما عند المصريين والشاعر فيها يطلق لفظا له معنيان أحدهما قريب غير مراد والآخر بعيد هو المراد ويدل عليه بقرينة يغلب أن تكون حقيقية لا يدركها الا الفطن (١٦) ٠

والشاعر فى الأبيات السابقة يجد أن دواعى الشعر وبواعثه انقطعت

---

(١٥) الغيث المسجم فى شرح لامية العجم ١/٥٩ ٠

فى زمانه فلا داعى لمدح أو لعشق كما يشكو من ظاهرة السرقات الشعرية التى انتشرت انتشارا واسعا ٠

ويقول السراج الوراق شاكيا من عدم تقدير الشعر والشعراء مستخدما التورية أيضا :

مالى ونظـــم الشـــعر بانت صبوتى
والنـــاس قـــد رغبوا عن الآداب
أأقـــوله عبثـــا بلا ســـبب
والشـــعر مبنى على الأسباب (١٧)

ومن الشكوى من كساد سوق الشعر وعدم التمكن من التكسب به وشعور الشاعر بالمهانة اذا زاول هذه الصناعة قول أبى الحسين الجزار حين عاتبه أحد أصدقائه ــ واسمه شرف الدين ــ فى انصرافه عن الشعر :

لا تلمنى يا سيدى شرف الديــ
ــن اذا ما رأيتنى قصـــابا
كيف لا أشـــكر الجـزارة ما عشـ
ـت حفـــاظا وأرفض الآدابـــا
وبهـــا أضحت الكـــلاب ترجيــ
ــنى وبالشعر كنت أرجو الكلابا (١٨)

وكما نقم بعض الشعراء على حرفة الأدب وصناعة الشعر وجد آخرون ينقمون على سوء الدهر ويحسنون الظن بالأدب ٠

---

(١٧) الغيث المسجم ١/٥٩ ٠

(١٨) جمال الدين أبى الحسين الجزار من ص ٢٧٧ ٠ فوات الوفيات جـ ٤ ترجمة

يقول ابن نباته يشكو بؤسه وشقاءه وآلامه وهو مع ذلك يخالف غيره من الشعراء فلا ينقم على الأدب وانما يشكو من الدهر وسوء تصاريفه :

لا عــار فى أدبى ان لم ينل رتبـــا
وانمـــا العار فى دهرى وفى بلدى
هذا كلامى وذا حظى فيا عجبـــا
منى لثروة لفظ وافتقـــار يد (١٩)

أما ابن الوردى فقد حنق على الأدب حنقا لا مزيد له فشكا حاله وبؤسه وحال الأدب فى زمانه وقد خلص من هذه النزعات الى ظهور فلسفة خاصة به تدور حول الزهد فى المناصب وفى حياة النباهة والصيت وقد ردد ذلك فى شعره مرارا ٠ وهو يؤمن بالحظ ويعتقد أن سعادة المرء موقوفة على حظـه المقسوم له لا على شىء آخر من ذكاء عقل أو سعة علم أو حـــذق أدب وكانت هذه الفلسفة ثمرة معاناته وشكواه يقول :

لا تحـــرصن على فضـــــل ولا أدب
فقـــد يضر الفتى عـــــلم وتحقيـــق
ولا تعـــد من العقـــال بينهـــم
فـــان كل قليـــل العقـــل مرزوق
والحظ أنفـــــع من خط تزوقـــه
فمـــا يفيـــد قليـــل الحظ تزويق
والعـــلم يحسب من رزق الفتى ولـــه
بكـل متســع فى الفضـــــل تضييق
أهل الفضـــائل والآداب قد كسدوا
والجاهلون فقد قامت لهـــم ســـوق

---

(١٩) ديوان ابن نباته : [illegible]

والناس أعداء من سـارت فضـائله
وان تعمـــق قالوا عنـه زنديق (٢٠)

ويقول ابن النقيب الحسن بن شاور الكنانى المولود بالفسطاط (٦٨٠ – ٦٧٨) فى كساد سوق الشعر نتيجة لقسوة الدهــر :

ولا تطلبن ســحر البيان بأرضنا
فكم فيها موسى مبطـل آية السـحر
ولا رقـــة الشعر الذى كان أولا
وكيف رقيــق الشعر مع قسوة الدهر (٢١)

والفقر وقلة الأرزاق مشكلة كبيرة آلمت الشعراء فشكوا منهـا يقـول ابن النقيب :

يا قفـــل باب الرزق ياذا الـذى
ما زال عنـــد الفتـــح قفـــلا عسر
أفـــرط فى العسر ولابـــد أن
تنفش أو تنـــدق أو تنكسر (٢٢)

فهو يشعر كأن باب الرزق أغلق من دونه وهو يعالج فتحه ولا ينفتح ويشكو ما يلقاه من عسر وضيق وييأس من فتح هذا القفل بأى مفتاح من مفاتيح الرزق فيأمل أن يفش ويفتح اغلاقه أو يندق أو ينكسر والأبيـــات توضح مدى ضيق الرجل وسخطه من ضيق رزقه ، وتجتمع عليه الشيخوخة مع شدة الفقر فيقول :

---

(٢٠) الديوان ط الجوائب ١٢٠٠ هـ ٠ وعصر سلاطين المماليك ٥/٣٧٩ ٠
(٢١) المغرب فى حلى أهل المغرب ٢٥٨ قسم الفسطاط ، فوات الوفيات حـ ٢٣٢/١
(٢٢ ، ٢٣) عصر الدول والامارات ، شوقى ضيف ٢٣٤ ٠

وجردت مع فقرى وشيخوختى التى
تراها فنومى عن جفونى مشرد
فلا يدعى غيرى ثيابى فاننى
أنا ذلك الشيخ الفقير المجرد (٢٣)

فهو شيخ فقير نزع البؤس ثيابه فأصبح شيخا فقيرا عريانا مسهدا لا ينام وهى مبالغة تدل على مبلغ بؤسه وشقائه ٠

وقد تعددت أساليب وطرق شكوى الحال فى هذا العصر تبعا لشخصية الشاعر ومزاجه فمنهم من سلك الطريق الجادة فى شكواه فذكر ألمه لما حل به من دهره وخوفه من امتهان حياته وكبريائه وحيرته وقلقه فى الوصول الى السبيل الذى يجمع بين ما يحتاج اليه لحياته وما يحتاج اليه لحفظ كرامته يقول ابن نباته :

لعمرى لقد قاسيت بالفقر شدة
وقعت بها فى حيرة وشتات
فان بحت بالشكوى هتكت مروتى
وان لم أبح بالضر خفت مماتى
فأعظم به من نازل بملمة
يزيل حيائى أو يزيل حياتى (٢٤)

ومنهم من مزج شكواه بروح الفكاهة ٠ وقد شاع هذا الأسلوب عند الشعراء المصريين خاصة ذلك أن المصريين احتفظوا منذ أقدم العصور بتلك الروح الفكهة حتى فى أحلك المواقف وأشدها ٠ وحتى أنه لينطبق عليهم قول القائل انهم كالطير مذبوحا يرقص من شدة الألم ٠

---

(٢٤) الغيث المسجم فى شرح لامية العجم ٤٧/١ ٠

ويرى بعض مؤرخى الأدب أن هذا الأسلوب سمة بارزة وغالبة على الشعب المصرى خاصة .

يقول د. شوقى ضيف فى معرض حديثه عن المصريين وما يتسمون به شخصية متميزة يغلب عليها الفكاهة والسخرية :

فمنذ برزوا على صفحة الزمن وهم يضحكون ويسخرون ويتهكمون ألهمهم ذلك عصور الشدة والرخاء منذ كانوا يحملون صخور الأهرامات على كواهلهم ويرفعونها بصدورهم وسواعدهم ويحنو عليهم واديهم فيلقى فى جحرهم بحبه وثماره) (٢٥) .

ويرجع د. مصطفى الصاوى الجوينى هذا الأسلوب الى محاولة التغلب على الآلام والخروج من الأحزان التى عانى منها الشعب المصرى فيقول ان المصريين اتخذوا هذا الأسلوب (استعلاء على ما صادف شعب مصر من محن فهو لم يرسب فى أعماقه الكوارث كى تعقد من شخصيته أو تجعلها متزمتة كدرة وانما حاول بالنادرة والنكتة أن يفرج عن كربه وأن ينفس عن حزنه) (٢٦) .

ومن أشهر الشعراء الذين نظموا فى شكوى الحال شمس الدين بن دانيال الحكيم الكحال الذى ولد بالموصل ونزل القاهرة منذ سن تسع سنوات وتوفى بها حوالى ٧١٠ هـ وكان يمزج شكواه بالتهكم والفكاهة مع سهولة الألفاظ وشعبية اللغة واستخدام للتورية . يقول فى شرح حياله وشكوى زوجته (٢٧) :

---

(٢٥) الفكاهة فى مصر ٧ .

(٢٦) فوات الوفيات ٣/٣٣٦ وما بعدها

بك اشكو من زوجة صيرتنى … غائبا بين سائر العضار
غيبتنى عنى بما اطعمتنى … فانا الدهر مفكر فى انتظار
غبت حتى لو انهم صفعونى … قلت كفوا بالله عن صفع جارى
فنهارى من البلادة ليل … فى التساوى والليل مثل النهار
دار راسى عن باب دارى فبالله … اخبرونى يا سادتى اين دارى
ملكتنى عيارة وعيارا … حين زادت بالدر دبيس عيارى
أين مخ الجمال من طبع مخى … فى التساوى وأين مخ الحمار
غفر الله لى بما رحت للبحـ … ـر من البرد اصطلى بالنار
وتجردت للسباحة فى الآ … ل لظنى به الزلال الجارى
ولكم قد عصبت رجلى برؤيا … أوطأتنى حلما على مسمار
ولقد رمت قلع ضرس ضروب … بعد ما أضر غيابه الاضرار
فاذا بى قلعت بعد عنائى … واجتهادى القوى من أوزارى
ورحى حزتها لطحن فما زلـ … ـت ضلالا أدور حول المدار
وأنادى وقد سئمت من الركـ … ـض الى أين منتهى مضمارى
أنا أختار لو قعدت من الجهـ … ـد ولكن أمشى بغير اختيار
أنا أنسى أنى نسيت فلا يخـ … ـشى سميرى اذاعة الأسرار
أنا سطل الشرائحى بما او … دعت من عجة ومن أبزار
ولكم قد رأيت فى الماء شيخا … وهو جاث فى الجب كالعيار
شيخ سوء كالثلج ذقنا ولكن … وجهه فى سواده كالقار
أشبه الناس بى وقد يشبه التيـ … ـس أخاه فى حومة الجزار
فاعترانى رعب وناديت ما كنـ … ـت اخال اللصوص فى الأزيار
أين ترسى وأين درعى الحقينى … أم عمرو بصارمى البتار
ان أمت كنت فى الغزاة شهيدا … أو أعش كنت شاطر الشطار
ثم أثخنت ذلك الزير ضربا … بحسامى حتى هوى لانكسار
وجرى الماء فاختشيت والا … كدت اقفو الآثار فى التيار
أنا كالبان فى قوامى وان أفـ … ـردتنى كنت فى التهارش ضارى
أنا مثل الخروف قرنا وان أسـ … ـقط فانى أعد فى الأقذار

(العصر المملوكى)

أنا لو رمت للعلاج طبيبا ... ما تعديت دكة البيطار
بعد ما كنت من ذكائى أدرى ... أن بابى من صنعة النجار
أحزر البيض قبل ما يكسروه ... أن فيه البياض فوق الصفار
وبعينى نظرت كوز نحاس ... كان عندى أقوى من الفخار
وكثير منى على شيب راسى ... حفظ هذى الأشياء مثل الكبار

ولم يك (هذا الأسلوب) وقفا على جماعة دون جماعة أخرى من شعراء العصر بل أقول انهم جميعا مارسوا ذلك الفن سواء من غلبت عليه صفة الشعر والأدب أو من اصطبغوا بالتدين فقهاء أو متصوفين (٢٨) .

يقول الشيخ عبد العزيز الدرينى يشكو حال زوج الاثنين :

تزوجت اثنتين لفرط جهلى ... عسى بزواجهن تسر عينى
فقلت أعيش بينهما خروفا ... أنعم بين أكرم نعجتين
فجاء الحال عكس الحال دوما ... عذاب مؤلم بين اثنتين
رضى هذه يحرك سخط هذى ... فلا أخلو من احدى الساخطتين
لهذى ليلة ولتلك أخرى ... نقار دائم فى الليلتين
اذا ما شئت أن تحيا سعيدا ... من الخيرات مملوء اليدين
فعش عذبا وان لم تستطعه ... فواحدة تكفى عسكرين (٢٩)

وهم فى مزجهم شكواهم بالفكاهة كانوا يحاولون التخفيف عن أنفسهم وتيسير العسير من أمرهم (فيخففون بها وقع الأحداث وينفسون بها عن مرارة الحياة أو قسوة الطغاة الذين لا يستطيعون أن يصرحوا بحقيقة مشاعرهم نحوهم فكانوا يلجأون الى الرمز والتورية . والترويح عن النفس

---

(٢٨) التصوف فى القرن السابع : ١٨٢ .
(٢٩) وفيات الأعيان ٨٢/١ .

حاجة من حاجات النفس البشرية التى تتطلب السلو ومن مقتضيات الحياة التى تتطلب التسرية حينا بعد حين حتى يستطيع الانسان مواصلة السعى فيما هيأته له الأقدار من عمل يستنفذ العزم ويستهلك النشاط وقد جاء فى صحيح الأخبار روحوا القلوب ساعة بعد ساعة وقال الامام على رضى الله عنه أريحوا قلوبكم من الجد فأن القلوب اذا ملت عميت واذا عميت لم تفقه شيئا) (٣٠) ٠

يقول أبو الحسين الجزار شاكيا حاله مازجا شكواه بروح الفكاهة وكان كما سبق أن ذكرنا يحترف الجزارة ولا يحصل منها على رزق يرضيه:

حسبى حرافا بحرفتى حسبى ... أصبحت منها معذب القلب
موسخ الثوب والصحيفة من ... طول اكتسابى ذنبا بلا ذنب
أعمل فى اللحم للعشاء ولا ... أنال منه العشا فما ذنبى
خلا فؤادى وفى فمى وسخ ... كأننى فى جزارتى كلبى (٣١)

ويقول شاكيا فقره متهكما بامتلاكه لثوب واحد وما يلاقيه من برد الشتاء :

لبست بيتى وقد زررت أبوابى ... على حتى غسلت اليوم أثوابى
وقد أزال الشتا ما كان من حمقى ... دعنى فمستوقد الحمام أولى بى
أنام فى الزبل قد يدفا به جسدى ... ما بين جمر به ما بين أصحابى
أو فوق قدر هريس بت أحرسها ... مع الكلاب على دكان علابى
وما تراقصت الأعضاء فى جسدى ... الا وقد صفقت بالبرد أنيابى (٣٢)

---

(٣٠) نظرات فى أصول الادب والنقد بدوى طبانه ٢٤٩ ــ ٢٥٩ بتصرف ٠
(٣١) فوات الوفيات ٢ ، ٢٩٢ ٠
(٣٢،٣٣) ن٠ السابق ٠

ويقول متهكما بسوء حظه وفقره مضمنا شعره مصطلحات علم النحو :

قـــرأت النحـــو تبيـــانا وفهما ... الى أن كعت منـــه وضـــاق صدرى
فما استنبطت منـــه سوى محـــال ... بحـــال به على زيـــد وعمـــــرو
فكان النصب فيـــه على نصبا ... وكان الرفع فيـــه لغيرى قدرى
وكان الخفض فيه جل حظى ... وكان الجزم فيه لقطع ذكرى (٣٦)

ويقول نصير الدين الحمامى يشكو فقره وما يلاقيه فى داره الخربة :

ودار خـــــراب نزلت بهـــــا ... ولكن نزلت الى الســــــابعة
طريق من الطـــرق مسلوكة ... محجتهـــا للورى شـــــاسعة
فلا فرق ما بين أن اكـــــو ... ن بها أو اكون على القارعة
تســـاورها هفـــوات النســـــيم ... فتصغى بـــلا اذان ســـــامعة
وأخشى بهـــا أن أقيـــم الصلا ... ة فتسجد حيطانها الراكعـــة
اذا ما قـــرأت اذا زلـــزلت ... خشيت بأن تقرأ الواقعـــة (٣٤)

والشاعر فى الأبيات السابقة يصور داره هابطة وطريقا عاما للنـــاس فكأنه يقيم فى الطريق لا فى دار وهو يصورها متداعية الأركان حتى أنهـا لا تحتمل هبات النسيم ولا تحتمـل أن يرفع فيها صوته باقامة الصلاة لأنهـا تتداعى من ترديد صوته ويخاف أن يقرأ بها سورة الزلزلة فيصيبها الرعب فترد بسورة الواقعة وهو فى فكاهاته خفيف الروح طريف التصوير ماهـر فى مراعاة النظير بين اقامة الصلاة والسجود وسورة الزلزلة والواقعة .

ويقول شمس الدين بن الدانيال عن فقره مســـتعملا التـــورية عن حرفته (٣٥) :

---

(٣٤) فوات الوفيات ٤/٢٨٥ .
(٣٥) الفكاهة فى الادب العربى / د. أحمد محمد الحوفى .

يا سائلي عن حرفتي في الورى وضيعتي فيهم وافلاسي
ما حال من درهم انفاقه يأخذه من اعين الناس (٣٦)

ويقول عن حظه :

ما عاينت عيناي في عطلتي أقل من حظي ولا بختي
قد بعت عبدي وحماري وأصبحت لا فوقي ولا تحتي (٣٧)

ويقول ناعيا حظ العقلاء في زمانه :

قد عقلنا والعقل أي وثاق وصبرنا والصبر مر المذاق
كل من كان فاضلا كان مثلي فاضلا عند قسمة الارزاق (٣٨)

ويقول متهكما بفقره شاكيا حاله وشدة بؤسه واصفا داره وأثاثها وملابسه وكلها تبين عن حاله :

أصبحت أفقر من يروح ويغتدي ما في يدي من فاقتي غير يدي
في منزلي لم يبق غيري قاعدا فاذا رقدت رقدت غير ممدد
لم يبق فيه سوى حصيرة ومخدة كانت لأم المهتدي
ملقى على طراحة في حشوها قمل كمثل السمسم المتبدد
والفار يركض كالخيول تسابقت من كل جرداء الأديم وأجرد
هذا ولي ثوب تراه مرقعا من كل لون مثل ريش الهدهد(٣٩)

---

(٣٦) فوات الوفيات ٣/٣٣٣ .
(٣٧) ن. السابق والصفحة .
(٣٨) ن. السابق والصفحة .
(٣٩) ن. السابق ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

والشكوى من الفقر تتضمن الشكوى من كثرة العيال مع قلة الارزاق، وقد نظم الشعراء المقطوعات والقصائد فى الشكوى كما تضمنت قصائد المدح كثيرا من ألوان الشكوى على طريقة التكدى حيث يصف الشاعر للممدوح مدى بؤسه وشدة فقره وسوء حظه وكثرة عياله ليعطف قلبه عليه وينال عطاءه ومن أمثلة ذلك شكوى البهاء زهير الى ممدوحه حيث وصف له شظف عيشه وشدة هوانه وفقره وحال أسرته ورجاه أن يعينه على حوادث الأيام يقول مازجا شكواه بعزة نفسه وابائه وراجيا عطاء ممدوحه :

ووالله انى فى ولائك مخلص ... ووالله ما احتاج انى أحلف
أجلك أن أنهى اليك شكيتى ... فها أنا فيها مقدم متوقف
ولولا أمور ليس يحسن ذكرها ... لكنت عند الشكوى أضن وأصرف
اذا كنت فالمال أهون ذاهب ... يعوضه الاحسان منك ويخلف
ولا ابتغى الا اقامة حرمتى ... ولست لشىء غيرها أتأسف
ونفسى بحمد الله نفس أبية ... فها هى لا تهفو ولا تتلهف
ولكن أطفالا صغارا ونسوة ... ولا أحد غيرى بهم يتلطف
أغار اذا هب النسيم عليهم ... وقلبى لهم من رحمة يترجف
سرورى أن يبدو عليهم تنعم ... وحزنى أن يبدو عليهم وتشغف
أكلف شعرى حين أشكو مشقة ... كأنى أدعوه لما ليس يألف
شكوت وما الشكوى اليك مذلة ... وان كنت منها دائما أتأنف (٤٠)

واستجداء الشاعر وبثه شكواه للممدوح والأمل من عطائه من أجل صغاره يذكرنا بشكوى الشاعر الأموى جرير فقره وبؤس بنيه الى الخليفة عبد الملك بن مروان ومنها :

---

(٤٠) ديوان البهاء زهير : ١٧١ ط دار المعارف .

اغثنى فــــداك أبى وأمى	بسبب منك انك ذو ارتيـاح
فانى قد رأيت على حقـا	زيارتى الخليفـة وامتـداحى
سأشــكر ان رددت علـى ريشى	وأثبت القوادم فى جنـاحى (٤١)

وقد شاع هذا اللون فى شكوى البوصيرى مثال ذلك قوله شاكيا حاله وجوع عياله وجور زمانه وخيانة خلانه من خلال مدحه لأحد الوزراء :

وكزغب القطـا ورائى فـراخ	من اناث أعــولهم وذكـــور
يتعـاوون كالذئاب وينقضــون	من فرط جــوعهم كالنســور
وفتـاة ما جهـزت بجهـاز	خطبت للدخول بعـد شـهور
واقتضى الشوار بغيا على من	بيتـه ليس فيـه غير حصـير
هذه الســورة التى أقعــدتنى	عنــك أياتهــا قعــود حسير
كل يوم منغص بطعــام	أو رفيق أو منغص بشرور (٤٢)

وهذا اللون من الشكوى يمثل الخصائص الاقليمية للادب فهو يستخدم لغة قريبة من العامية المصرية كما يصف عادات وتقاليد مصرية مثل الشوار جهــاز العــروس ٠

ويقول أيضا من قصيدة فى مدح أحد الوزراء مستخدما أسلوب القصة فى بث شكواه للممدوح واصفا بؤسه وشقاء حاله :

يا أيهـا المولى الوزير الــذى	أيامــه طائعـــة أمــره
ومن لــه منــزلة فى العـلا	تكل عن أوصــافها الفكــره
اليك نشــكو حالنا اننــا	حاشــاك من قوم أولى عسره

---

(٤١) ديوان جرير ٩٧ ، ٩٨ ط بيروت ٠

(٤٢) ديوان البوصيرى : ١٠٩ ٠

فى قلة نحن ولكن لنا ... عائلة فى غاية الكثره
صاموا مع الناس ولكنهم ... كانوا لمن أبصرهم عبره
ان شربوا فالبئر زير لهم ... ما برحت ، والشربة الجره
وأقبل العيد وما عندهم ... قمح ولا خبز ولا فطره
فارحمهمو ان عاينوا كعكة ... فى كف طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها ... بشهقة تتبعها زفره
كم قائل يا أبتا منهمو ... قطعت عنا الخير فى كره
وأنت فى خدمة قوم فهل ... تخدمهم يا أبتى سخره
ويوم زارت أمهم أختها ... والأخت فى الغيرة كالضره
وأقبلت تشكو حالها ... وصبرها منى على العشره
قالت لها كيف تكون النسا ... مع الأزواج يا عره
قومى اطلبى حقك منه بلا ... تخلف منك ولا فتره
وان تأبى فخذى ذقنه ... أو انتفيها شعرة شعره
قالت لها ما هكذا عادتى ... فان زوجى عنده ضجره
أخاف ان كلمته كلمه ... طلقنى قالت لها بعره
وهونت قدرى فى نفسها ... فجائت الزوجه مجتره
فقاتلتنى فهددتها ... فاستقبلت رأسى بآجره
وحق من حالته هذه ... أن ينظر المولى فى أمره (٤٣)

والأبيات السابقة كما ذكرنا من قصيدة فى مديح أحد الوزراء ومعانى المديح فيها بسيطة لا جديد فيها ولا ابتكار والشاعر يتخلص من المدح سريعا ليشكو حاله ويستجدى الممدوح الذى يتمتع بمكانة عالية عله يستطيع أن يفرج كربه ويحل مشكلته فيبثه شكواه من فقره وكثرة عياله مع ضيق يده وحرمانهم ثم يصف له ما نجم عن هذا الفقر من مشكلات مع زوجه وأهلها

(٤٣) ن· السابق ، الادب من الانحدار الى الازدهار ١٧٧ ، ١٧٨ ، فوات الوفيات ٣/٣٦٥ ، ٣٦٦ ·

وما أصابه من جراء هذا ٠ والشكوى كما نرى ممتزجة بروح التهكم والفكاهة التى تقطر مرارة وألما ٠ وهو يسرد شكواه بأسلوب بالقص الذى انتشر انتشارا واسعا فى شعر هذا العصر وهو يلائم موضوع الشكوى تماما ٠

ومن استخدام فن القصة فى شكوى الحال هذه القصة التى سردها البهاء زهير يداعب صديقا له بغداديا كان أتى الى مصر فأقام بها الى أن نفد جميع ما معه فأنشد هذه الأبيات على لسان حاله شاكيا من مصر معرضا بها يقول :

دخلت مصر غنيا	وليس حالى يخافى
عشرون حمل حرير	ومثل ذاك نصافى
وجملة من لآل	وجوهر شفاف
ولى مماليك ترك	من الملاح النظاف
فرحت أبسط كفى	وبالجميل أكافى
وصرت أجمع شملى	بسالف وسلاف
ولا أزال أواخى	ولا أزال أصافى
وصار لى حرفاء	كانوا تمام حرافى
وكل يوم خوان	من الجدى والخراف
فبعت كل ثمين	معى من الأصناف
واستهلك البيع حتى	طراحتى ولحافى
صرفت ذاك جميعا	بمصر قبل انصرافى
وصرت فيها فقيرا	من ثروتى وعفافى
وذا خروجى منها	جوعان عريان حافى (٤٤)

وكما شكا الشعراء الفقر وقلة الارزاق وسوء الحظ وجور الزمان ومعاملة الزوجات تعرضوا بالشكوى للحياة السياسية وجور الحكام

---

(٤٤) ديوان البهاء زهير ١٧٣/١٧٤ ٠

وفساد الحكم واستخدموا السخرية والتهكم فى شكواهم من فساد هـذه الحياة . ومن ذلك تهكم الشعراء من حكامهم من المماليك الذين اشتروا بالمال واسترقوا أهل البلاد الأصليين وتناسوا أصلهم ومن أمثلة ذلك شـكوى بعض الشعراء من شراء المماليك واعتاقهم وتوليهم الوظائف والامارة قال أحدهم :

الصالح المرتضى أيوب اكثر من ـ ترك بدولتـه يا شر مجلوب
قد أخـذ الله أيوبا بفعلتـه فالناس كلهم فى ضر أيوب (٤٥)

وتهكم الشاعر المصرى ابراهيم المعمار بالأمير طشتمر الذى كان يلقب حمص أخضر فقـال :

أوردت نفسـك ذلا ورد النفـوس المهـانة
وبالدنا حـزت مالا مـلأت منـه الخـزانه
وكـم عليـك قـلوب يا حمص أخضر مـلانه (٤٦)

والشاعر يعتمد فى تهكمه على التورية وهو الأسلوب الذى ولع به العصر المملوكى . كما سخر الشعب من ساسته حينما كان يتولى الملك طفل ويصرف شئونها قيم يصور ذلك بعض الشعراء حين ولى ابن الملك الناصر سنة ٧٤١ هـ وعمره أقل من ست سنوات فيقول :

سـلطاننا اليـوم طفـل والأكابر فى
خلف وبينهـم الشـيطان قد نزعـا

---

(٤٥) حسن المحاضرة ٣٨/٢ .
(٤٦) حسن المحاضرة ٨٦/٢ .

فكيف يطمع من تغشــاه مظلمة
أن يبلغ السؤل والسلطان ما بلغا (٤٧)

وقد تهكم أبو الحسين الجزار بالحكام المماليك الذين لا يفهمون اللغـة العربية وآدابها يقول :

وكـم قابلت تركيــا بمدحى فكان لمــا أحــاول يحنــق
ويلطمنى اذا ما قلت ألطــن ويرمقنى اذا ما قلت يرمــق
وتســقط حــرمتى أبدا لديه فلو أنى عطست لقال يشمق (٤٨)

والسخرية هنا واضحة فى وصف الحكام الأتراك بالغباء والجهــل والشكوى من جهلهم بجمــال الأدب العربى فالتركى يغتاظ حينما يمدحــه شاعر بشعر رصين لأنه لا يفرق بين المدح والهجــاء واذا ما طلب منه الشاعر عطاء لطمه وهنا جناس بين يلطم وألطن وبراعة فى الجمع بين كلمة عربية وأخرى تركية ومعناهما يكاد يكون متضادا ٠ واذا ما شكا الشاعر من سوء المكافأة نظر اليه التركى فى غضب وحنق وهنا تلاعب بكلمــة عربية يرمق وأخرى تركية يرمك وجناس بينهما ثم اذا ما عطس الشاعر لم يشمته الممدوح كما اعتاد المسلمون وانما لامه وأمره أن يغطى فمه (٤٩) ٠

وكما تعرض الشعراء للحياة السياسية وجهل الحكام شكوا من الفساد

---

(٤٧) ن٠ السابق ٠
(٤٨) فوات الوفيات حـ ٤ ص ٢٩٠ ، الطن : كلمة تركية أصلها التن ومعناها ذهب خالص أى أنه يلطمه اذا ما طلب منه عطاء ومالا ٠ يرمق : أصلها التــركى يرمك ومن معانيها الاتعاب وسوء المكافأة ٠ ويشمق أصلها التركى يشمك ومعناها غط وجهك (الفكاهة فى الادب د٠ أحمد الحوفى) ٠
(٤٩) ن٠ السابق ٠

فى كافة جوانب المجتمع وكان البوصيرى يعانى صناعة الكتابة والتصرف وباشر الشرقية ببلبيس (٥٠) · وله هذه القصيدة المشهورة التى نظمها فى الشكوى من طوائف المستخدمين من موظفى الشرقية وفيها ينبه المسئولين الى ذهبهم لأموال الدولة وفساد ضمائرهم يقول فيها :

فقدت طوائف المستخدمينا ... فلم ار فيهم رجلا امينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم ... مع التجريب من عمرى سنينا
فكتاب الشمال هم جميعا ... فلا صبحت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا ... بهم فكأنما سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا ... ولا شربوا خمور الاندرينا
ولا ربوا من المردان مردا ... كاغصان يقمن وينحنينا
وقد طلعت لبعضهم ذقون ... ولكن بعد ما نتفوا ذقونا
وأقلام الجماعة جائلات ... كأسياف بأيدى لاعبينا
وقد ساوقتهم حرفا بحرف ... وكل اسم يخطوا منه سينا
أمولاى الوزير غفلت عما ... يتم من اللئام الكاتبينا
تنسك معشر منهم وعدوا ... من الزهاد والمتورعينا
وقيل لهم دعاء مستجاب ... وقد ملأوا من السحت البطونا
تفقهت القضاة فخان كل ... أمانته وسموه الأمينا
وما أخشى على أموال مصر ... سوى من معشر يتأولونا
يقول المسلمون لنا حقوق ... بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط نحن ملوك مصر ... وان سواهم هم غاصبونا
وحللت اليهود بحفظ سبت ... لهم مال الطوائف أجمعينا
وما ابن قطيبة الا شريك ... لهم فى كل ما يتخطفونا
أغار على قرى فاقوس منه ... بجور يمنع النوم الجفونا
وصير عينها حملا ولكن ... لمنزله وغلتها خزينا

---

(٥٠) فوات الوفيات ٣٦٢/٣ ·

وأصبح شغله تحصيل تبر ... وكانت راؤه من قبل نونا
وقدمه الذين لهم وصول ... فتمم نقصه صلة الذينا
وفى دار الوكالة أى نهب ... فليتك لو نهبت الناهبينا
فقام بها يهودى خبيث ... يسوم المسلمين أذى وهونا
اذا ألقى بها موسى عصاه ... تلقفت القوافل والسفينا (٥١)

والقصيدة طويلة جدا أوردها ابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات وهى بسيطة فى تعبيرها يخونه فيها البناء السوى احيانا ولكنها تصور شكوى الشاعر من فساد طائفة المستخدمين فى زمانه وقد جرت على كل لسان • ويلاحظ أن ضيقه باليهود قد جاوز الحد فهم قد تلقفوا القوافل والسفينا والمراد أن سرقاتهم وخياناتهم ونهبهم فاق كل طوائف المستخدمين•

وللبوصيرى أكثر من قصيدة يشكو فيها من فساد الديانتين المسيحية واليهودية وتعدد الفرق والمذاهب الدينية وخلطها بين الصالح والطالح •

ويشكو ابن دقيق العيد من أخلاق الناس فى زمانه ويبدى يأسه من صلاحهم ولذا يختم شكواه بالحث على اعتزال الناس والدعوة الى الزهد يقول :

لقد جرحتنا يد أيامنا ... وليس غير الله من آسى
فلا ترج الناس فى حاجة ... ليسوا بأهل لسوى الياس
ولا ترد شكوى اليهم ... فلا معنى لشكواك الى قاسى
ولا تقس بالعقل افعالهم ... ما مذهب القوم بمنقاسى
لا يعدم الآتى لأموالهم ... من ذلة الكلب سوى الحاسى
وان تجالس منهم معشرا ... هويت فى الذنب على الراسى
ياكل بعض لحم بعض ولا ... يحسب فى الغيبة من باسى

---

(٥١) ديوان البوصيرى ٢١٨ ، فوات الوفيات ٣٦٢/٣ – ٣٦٤ •

لا رغبــة فى الدين تحميهــم   عنهــم ولا حشــمة جلاسى
فاهرب من الخلق الى ربهــم   لا خير فى الخلطة بالناس (٥٢)

ونلاحظ أنه يمزج شكواه ومعاناته بالحكم التى اكتسبها من خبـرته بالناس وأخـلاقهم ٠

ومما سبق نتبين أن نتائج الشكوى قد اختلفت باختلاف شـخصية الشعراء ونفسياتهم فالبعض امتزجت شكواه بالتشاؤم الشديد واليـأس من التخلص مما يسبب الألم والبعض امتزجت شكواه بالفكاهة ، كما أن هناك من كان متفائلا يستقبل صروف الأيام استقبال الواثق من انقاضها ، وهذا القسم كان يرى أن نعم الحياة أكثر من شدائدها وأن الدنيا تعطى أضعاف ما تأخذ ، يقول البهـاء زهير :

لا تعتب الدهــر فى خطب رماك به
ان اســترد فقدما طالما وهبـا
حاسب زمانك فى حالى تصــرفه
تجــده أعطـاك أضعاف الذى سلبا
والله قــد جعــل الأيـام دائـرة
فلا نرى راحــة تبقى ولا تعبـا
ورأس مالك وهى الروح قد سلمت
لا تأسفن لشىء بعــدها ذهبـا
ما كنت أول مفــدوح بحـادثة
كذا مضى الزمان لا بدعا ولا عجبا (٥٣)

---

(٥٢) طبقات الشافعية ٢٢٨/٩ ، ٢٢٩ ٠
(٥٣) ديوان البهــاء زهير : ٢٠ ٠

ويقـــول :

ايهـــا الحـــــامل همـــــا	ان هــــــذا لا يــــــدوم
مثـــــل ما تفنى المسرات	كـــذا تفنى الهمــــــوم
ان قســـا الدهـــــر فان الله	بالنـــــــاس رحيـــم
أو تــرى الخطب عظيمـــــا	فلك الأجـــــر العظيم (٥٤)

ونلاحظ أن الشاعر يتقبل حوادث الدهر ومصائبه بروح متفـــائلة وثقة كبيرة فى رحمة الله وثوابه وهذا ما يصـــبره على احتمـــال البلاء ٠

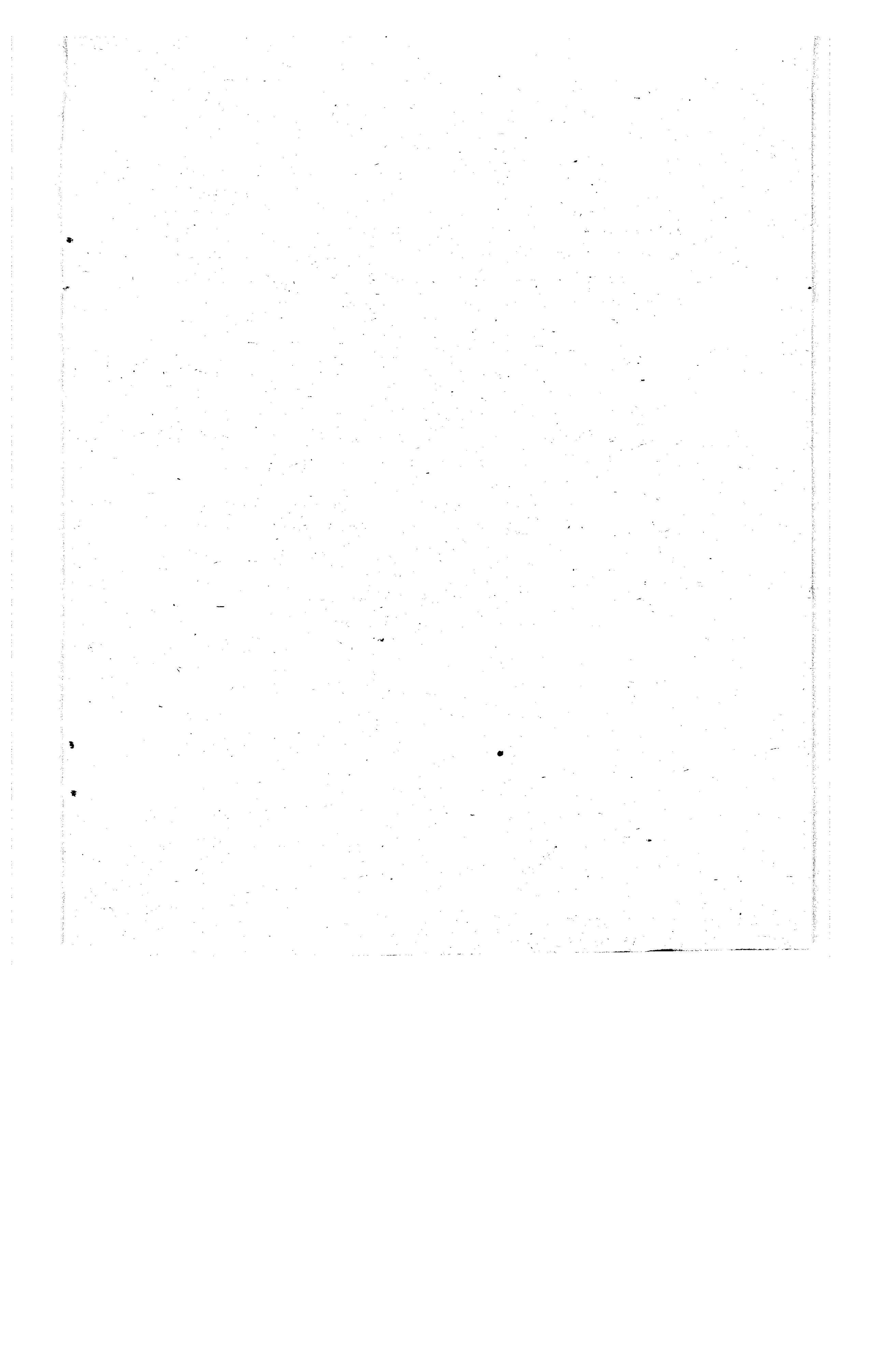
ومع ذلك فيجب أن ننبه الى أن هذه النظـرة المتفائلة فى شعر الشكوى كانت قليلة جدا وأن أسلوب السخرية الممتزجة بالمرارة غلب عما سواه وتفوق على العصور السابقة وجدت به أفكار ومعان لم تطرق من قبـل ٠

وقد وجدت قصائد كاملة وقفت على الشكوى هذا بالاضافة الى اشـــتمال المدح والهجاء والرثاء على كثير من ألوان الشكوى ويلاحظ أن شكوى الحال مالت الى الطابع الشـــعبى ٠

وهذا الموضوع صور معاناة الشعب وآلامه ابان هذه الفترة وكان ثمرة عواطف صادقة اتسمت بالمرارة والألم ٠

---

(٥٤) ديوان البهاء زهير : ٢٣٧ ٠



الفصـــل الخـــامس

المقامة فى العصر المملوكى

فن عرف وشاع وذاع صيته فى الأدب العربى منذ العصر العباسى الثانى وتأثرت به الآداب الشرقية والغربية فحاكته وصاغت على منواله ٠

وعلى الرغم من شيوع هذا الفن منذ القرن الرابع الهجرى وتأصل أركانه وقواعده فاننا يمكن أن نعده من الفنون المستحدثة فى العصر المملوكى ذلك أنه لبس ثوبا جديدا واتسع اتساعا عظيما فتغيرت معالمه ثم انه لم يكد يخلو أدب أديب كبير منه ولكى نلمس هذا التغير ونقف على هذا التطور علينا أولا بعرض صورة موجزة للمقامة وأصولها وموضوعاتها وأسلوبها قبل العصر المملوكى ثم التعرف على المقامات فى العصر المملوكى ٠

ولنبدأ فى البداية بمعنى المقامة فنرى أنها وردت فى كتب اللغة (١) : بفتح الميم بمعنى المجلس والجماعة من الناس ٠ وأما المقام والمقام بالفتح وبالضم فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الاقامة وقد يكون بمعنى موضع القيام ومن ذلك قوله تعالى (لا مقام لكم) أى لا موضع لكم وقرىء بالضم أى لا اقامة لكم وذلك فى قوله تعالى (وحسنت مستقرا ومقاما) أى موضعا٠ وقال لبيد :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

يعنى الاقامة وقوله عز وجل (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم) قيل المقام الكريم هو المنبر وقيل المنزلة الحسنة ٠

وقد استعملت هذه اللفظة منذ العصر الجاهلى وجاءت على معنيين فى شعر الجاهليين وهما المجلس أو من يكونون فيه ومن ذلك قول سلامة بن جندل :

---

(١) مادة قوم لسان العرب ٥/٣٧٨١ دار المعارف ٠

يومان يوم مقـــامات وأندية   يوم مسير الى الأعداء تأويب (٢)

ومنه قـــول زهير بن أبى ســلمى :

وفيهم مقـامات حسان وجوههم   وأندية ينتابها القـول والفعل (٣)

أما استعمالها بمعنى الجماعة التى تقيم بالمكان فيمثله قول لبيـد :

ومقامة غلب الرقاب كأنهـــم   جن لدى باب الحصـير قيام (٤)

ثم اتسعوا فى هذا المعنى فأطلقوا اسم لمقامة على ما يقام فى المجلس من خطبـة أو موعظـة ونحوهما فقالوا مقامات الخطباء ومجالس القصاص وهو مجـاز باعتبـار المجاورة والاتصال كتسمية السحاب سـماء فى قوله تعـالى : « وأنزلنا من السماء ماءا طهورا » (٥) .

وهذا يفسر قول الجاحظ ان سليمان عليه السلام اتخذ العصا لخطبته وموعظته ومقاماته وطول صلاته (٦) .

وكذلك تسمية ابن قتيبة لأحد فصول كتابه عيون الأخبار (مقـــامات الزهاد عند الخلفاء والملوك) وقد أورد فيه بعض ما أثر عن أصحاب الرأى

---

(٢) المفضليات ت ١٢٠ .

(٣) شرح ديوان زهير بن أبى سلمى ٢١٣ .

(٤) المقامة : شوقى ضيف : ٧ ، غلب : جمع أغلب وهو الغليظ الرقبة ، الحصير: الملك .

(٥) الادب العربى وتاريخه تأليف الاستاذ أحمد الشعراوى : ١٣٤ ط المحمدية.

(٦) البيان والتبيين ٣/٣٠ تحقيق عبد السلام هارون .

والشجاعة من الزهاد فى الرد على الملوك والخلفاء وزجرهم عن اتبـــاع الأهــواء (٧) ·

ومثل هذا ما جاء فى كتابه الشعر والشعراء (وللشعر تارات يبعـد فيها قريبه ويستصعب فيها ريضه وكذلك الكلام المنثور فى الرسائل والمقامات والجوابات فقد يتعذر على الكاتب الأديب وعلى البديع الخطيب ولا يعـرف لذلك سبب) (٨) · وسمى بها الشريف المرتضى دروسه التى كان يلقيهـا على تلاميذه ودونها فى أماليه فصولا سمى كل واحد منها مجلسا على هـذا الاستعمال الأخير (٩) · وأصرح منه فى الاستعمال بهذا المعنى قول بديع الزمان الهمذانى فى واعظ سئل عنه : (رجل لا أعرفه فاصبر عليه الى آخر مقامته لعله ينبىء بعلامته (١٠) ·

وبعد ذلك صار اسم المقامات مصطلحا للفن الانشائى المنمق الذى يروى على لسان امرىء خيالى يحكى قصة وقعت لانسان أو أكثر يتخيلهم الكاتب ويضع على ألسنتهم عبارات يتفصح فيها ما قدر فيلتزم السجع غالبا ويزينها بما استطاع من حلى البديع ويودعها ما شاء من طرفة أدبية او مسالة علمية أو ملحة غرامية ، أو تصوير لحالة اجتماعية مع ما يتبع ذلك من وصف الأماكن والأشخاص والأخلاق (١١) ·

والمقامة وان بدت فيها روح القصة من حيث الشخوص والحـوار والأحداث فانها تفتقد فى الغالب الى العقدة والحبكة وتتميز بقلة شخوصها

---

(٧) عيون الاخبار ٢/٢٢٢ ـ ٣٣٤ ، ط القاهرة الهيئة العامة للكتاب ·
(٨) الشعر والشعراء ١/٨٠ تحقيق أحمد محمد شاكر ·
(٩) مقامات الزمخشرى ·
(١٠) الادب العربى وتاريخه : ١٣٤ ·
(١١) الادب العربى وتاريخه ، الاستاذ أحمد الشعراوى ١٣٤ ، ١٣٥ ·

وبأنها تتناول حادثة واحدة فى زمن وجيز وهى بذلك تشبه الأقصوصة أو القصة القصيرة وان لم تكن قصة قصيرة فالأصح لها والأصوب أن يطلق عليها اسمها الذى يميز جنسها عن ما عداه ٠ وأهم الأركان التى قامت عليهـــا المقامة وجود شخصيتين أساسيتين هما شخصية الراوى وشخصية البطـل الذى كان فى أغلب الأحوال أديبا محتالا يجوب الآفاق ويتفنن فى ابتكـار الحيل من أجل كسب العيش حيث ساءت الحالة الاقتصادية وانتشر الفقر وكسدت سوق الأدب ٠ يقول الحريرى ت ٥١٦ وهو ثانى أهم المشهورين بصناعة المقامات فى الأدب العربى ـ ملخصا فلسفة هذه الطائفة بما أورده على لسان أبى زيد السروجى بطل مقاماته فى آخر المقامة الحرامية :

عش بالخـــــداع فانت فى دهـــر بنـــوه كأسـد بيشه
وأدر قنـــــاة المـــكر حتى تســـتدير رحى المعيشـــه
وصد النســور فان تعـذ ر صـــيدها فاقنــع بريشــه
واجن الثمــار فان تفتـك فرض نفســـك بالحشـــيشه
وأرح فـــؤادك ان نبــا دهــر من الفـــكر المطيشه
فتغـــاير الأحـــداث يؤ ذن باستحالة كل عيشه (١٢)

وقد لجأت هذه الطائفة الى هذه الحيل لأســباب توضحها المقـــامة الاسكندرانية للحريرى يقول على لسان بطل مقاماته :

اســـمع حديثى فانــه عجب يضحك من شـــرحه وينتحب
أنا امرؤ ليس فى خصـــائصه عيب ولا فى فخـــاره ريب
سروج دارى التى ولـــدت بها والأصل غسان حين انتســب
وشغلى الدرس والتبحر فى العـ ـلم طـــلابى وحبـــذا الطلب

---

(١٢) المقامة الحرامية ٠

وراس مالى سحر الكلام الذى ... منه يصاغ القريض والخطب
أغوص فى لجة البيان فاختـ ... ـار اللآلى منها وانتخب
واجتنى اليانع الجنى من القو ... ل وغيرى للعود يحتطب
وآخذ اللفظ فضة فاذا ... ما صغته قيل انه ذهب
وكنت من قبل امترى نشبا ... بالأدب المنتقى واجتاب
ويمتطى أخمصى لحرمته ... مراتبا ليس فوقها رتب
وطالما زفت الصلات الى ... ربعى فلم أرض كل من يهب
فاليوم من يعلق الرجاء به ... اكسد شىء فى سوقه الأدب
لا عرض أبنائه يصان ولا ... ولا يرقب فيهم آل ولا نسب (١٣)
كأنهم فى عراصهم جيف ... يبعد من نتنها ويجتنب
فحار لبى لما منيت به ... من الليالى وصرفها عجب
وضاق ذرعى لضيق ذات يدى ... وساوتنى الهموم والكرب
وقادنى دهرى المليم الى ... سلوك ما يستشينه الحسب
فبعت حتى لم يبق لى لبد ... ولا بنات اليه انقلب (١٤)
وادنت حتى أثقلت سالفتى ... بحمل دين من دونه العطب
ثم طويت الحشا على سغب ... خمسا فلما أمضنى السغب
لم أر الا جهازها عرضا ... أجول فى بيعه واضطرب
فجلت فيه والنفس كارهة ... والعين عبرى والقلب مكتئب
وما تجاوزت أن عبثت به ... حد التراضى فيحدث الغضب
فلا يكن غاظها توهما ... أن بنانى بالنظم تكتسب
أو أننى اذ عزمت خطبتها ... زخرفت قولى لينجح الأرب
فوالذى سارت الرفاق الى ... كعبته تستحثها النجب
ما المكر بالمحصنات من خلقى ... ولا شعارى التمويه والكذب
ولا يدى مذ نشأت نيط بها ... الا مواضع اليراع والكتب

---

(١٣) الال : العهد والقرابة والجوار ·
(١٤) البتات : المتاع والزاد ·

بل فكرنى تنظم القـــلائد لا كفى وشعرى المنظوم لا السخب
فهــذه الحـرفة المشـــار الى ما كنت أحــوى وأجتلب (١٥)

وأما أول من نسب اليــه هذا الفن فهو بديع الزمان الهمذانى ت ٣٩٨ هـ وان سبق بعدة محاولات منها حديث الجاحظ عن المكدين فى أوائل كتـــابه البخــــلاء وكذلك حديث البيهقى عنهم فى كتابه المحاسن والمساوىء ويعرض كلاهما لأساليبهم وحيلهم فى استخلاص الطعـــــام والدراهم والدنانير من الناس ٠ وكذلك أحاديث ابن دريد ت ٣٢١ هـ وابن فارس ت ٣٩٠ هـ ٠

يقول الحصرى فى وصف فن بديع الزمان : (ولما رأى (يعنى البديع) أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثا وذكر أنــه استنبطها من ينابيع صدره واستنتجها من معان فكره وأبداها للابصـــــار والبصائر وأهداها للافكار والضمائر فى معارض أعجمية وألفاظ حوشية فجاءت مما نبا عن قبوله الطباع ولا ترفع لها حجبها الأســماع وتوسع فيها اذ صرف أكثر ألفاظها ومعانيها فى وجوه مختلفة وضروب متصرفة عارضها (البديع) بأربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا وتقطر حسنا) (١٦) ٠

وأما أول من نسب هذا العمل الى بديع الزمان فكان الحريرى ت ٥١٦ هـ الذى قال فى مقدمة مقاماته (فانه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحه وخبت مصابيحه ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان علامة همذان رحمه الله تعالى ٠ وعزا الى أبى الفتح الاسكندرى نشأتها والى عيسى بن هشام روايتها وكلاهما مجهول لا يعرف ونكرة لا تتعرف فأشـــار من اشارته حكم وطاعته غنم الى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البـديع وان لم يدرك الظالع شأو الضليع ، وقوله : (هذا مع اعترافى بأن البديع

(١٥) المقامة الاسكندانية للحريرى ٠

(١٦) زهر الاداب الحصرى ٠

رحمه الله سباق غايات وصاحب آيات وأن المتصدى بعده لانشاء مقـــامة ولو أوتى بلاغة قدامه لا يغترف الا من فضالته ولا يسرى ذلك المسرى الا بدلالته) ٠

وموضوعات المقامات عند البديع تدور أكثرها حول الاستجداء والكدية والاحتيال والقليل منها يدور حول المـــديح أو التعليم او الوعظ الدينى او التاريخ الماضى أو النقد الأدبى ٠

وكان البديع يطلق على مقاماته أسماء البلدان التى ألم بها وأكثـــرها فارسية أو أسماء الحيوان الذى وصفه فيها مثل المقامة الأسدية أو اسم الأكلة مثل المقامة المضيرية نسبة الى طعام المضيرة ٠ وقد تسمى باسم موضوعها مثل المقامة الوعظية أو الابليسية أو الجاحظية أو القريضية وهكذا ٠

وقد احتذى مؤلفو المقامات فى العصـــــور التالية منواله فى تسمية مقاماتهم كما احتذوا أسلوبه المرصع بألوان البديع وصنوفه ٠ ويبدو فى كثير من تلك المقامات عنايته بالمجتمع وذلك على عكس مقامات الحريرى التى خلت من جانب العناية بالمجتمع وتركز جل اهتمامها على العناية باللغـــة العربية وآدابها ، يقول الحريرى (وأنشأت خمسين مقامة تحتوى على جـد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله وغرر البيان ودرره وملح الأدب ونوادره الى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ووضعته فيها من الأمثـــال العربية والطرائف الأدبية والأحاجى النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المميزة والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية) (١٨) ٠

وبعد البديع حاول كثير من الأدباء تأليف مقامات يحتذون فيها طريقته

---

(١٧) مقدمة مقامات الحريرى ٠

(١٨) مقدمة مقامات الحريرى ٠

ومن هؤلاء وأسبقهم ابن نباته السعدى ت ٤٠٥ هـ وأبو القاسم عبد الله بن ناقيا ت ٤٨٥ هـ وطبعت له تسع مقامات ومن يقرؤها يراه يتخذ بطلها شخصا يسميه اليشكرى أما الرواة فمتعددون وهى تدور فى أكثرها على الكدية ولكن ليس فيها جمال اللفظ الذى نجده عند البديع أو الحريرى ولعلها من أجل ذلك لم تشتهر فى الناس (١٩) ٠ ومنهم السرقسطى ت ٥٣٨ هـ الذى اطلع على مقامت الحريرى فأنشأ خمسين مقامة معارضة لها أتعب فيها خاطره وكد ذهنه وأسهر ناظره وصعب على نفسه المسالك فيها فالتزم فى نثرها ونظمها ما ل يلزم من تعدد القوافى واشترط أن تكون على حرفين فأكثر واتخذ راويته فيها المنذر بن حمام وجعل بطلها السائب ابن تمام وسقطت هذه المقامات من يد الزمن فلم تصل الينا (٢٠) ٠

وفى نفس هذه الفترة يؤلف الزمخشرى مقامات ليس فيها راو ولا بطل وتدور كلها حول الوعظ الدينى ويبؤها بخطاب نفسه وهذه تختلف عن مقامات الحريرى والمقامات التى كتبت فى عصره ٠

وفى القرن السادس يؤلف الحسن بن صافى الملقب ملك النحاة مقامات على نسق المقامات الحريرية ويصنع صنيعه أبو العباس يحيى بن سعيد بن مارى النصرانى الطبيب واشتهرت مقاماته باسم المقامات المسيحية ٠ وفى نهاية القرن يؤلف ابن الجوزى خمسين مقامة فى موضوعات أدبية مختلفة يهدف من ورائها الى الوعظ كما يؤلف أبو العلاء أحمد بن أبى بكر بن أحمد الرازى الحنفى ثلاثين مقامة نراه يقول فى مقدمتها انه ألفها لقاضى القضاة أبى حامد محمد بن محمد بن القاسم الشهروزى وانه سيحتذى فيها طريقة بديع الزمان والحريرى ونراه يقلد الحريرى فى بعض ألعابه الأدبية كأن ينظم شعرا كل ألفاظه من ذوات الشين أو الصاد أو العين أو ينظم مقامة كل ألفاظها

---

(١٩) المقامة د٠ شوقى ضيف ٧٦ ٠

(٢٠) ن٠ السابق ٧٦ ٠

من ذوات الطاء وقد يجعل المقامة فى وصف حمام أو محبرة أو دواة أو قلم أو فرس أو معركة وهو فى ذلك يثقل على النفس والأذن بما يستخدم أحيانا من كلمات نابية أو موغلة فى الغرابة (٢١) ٠

واذا وصلنا الى العصر المملوكى نجد أن المقامات شاعت وكثر التـآليف فيها وأقبل عليها كل من عرف بصناعة الأدب فكثر كتابها وتنوعت معـانيها وأهدافها ٠ ويجد الدارس للمقامة المملوكية وجوه اختلاف تقل حينا وتكثر فى أحيان أخرى عن المقامة التى كتبت فى العصور السابقة ٠

وقد اشتركت المقامتان فى العناية الكبيرة بالمحسنات البديعية وترصيع الأسلوب وتجميله والعناية الكبيرة بتقسيم الفقرات الى جمل قصار ملتزمة السجع كما ظهر فيهما التكلف الذى يثقل على النفس فى الكثير من الأحيان٠ وكانت المقامات السابقة تتسم بالغرابة ووحشية الألفاظ فى كثير من الأحيان وهذه ظاهرة لم تصبح عامة فى مقامات العصر المملوكى وانما اختلفت من مؤلف الى آخر حسب شخصيته وثقافته وموضوع مقامته ونلاحظ أن المقامات قبل العصر المملوكى عنيت بحشد الكثير من ألفاظ اللغة وهذه الظاهرة لـم تصبح على نفس الدرجة فى العصر المملوكى وان حشدت بعض مقامات العصر بمصطلحات العلوم المختلفة حين تعرضت لأحد العلوم مثل علم الكيمياء أو الفقه أو التصوف أو الزراعة أو النحو ٠٠٠ الخ ٠ وكان هذا الأسـلوب مناسبا لموضوعها وثقافة بطلها ٠

أما أهم وجوه الاختلاف بين المقامتين فهو أن المقامة فى هذا العصر الأخير خرجت عن ميدان الاستجداء والاحتيال فلم يصبح هدفها الشـحاذة بالأدب وانما تعددت أهدافها ومراميها من نواح تعليمية ووعظية وصـوفية وثقافية الى جانب استعراضها لمعارف مؤلفها ومقدرته على تطويع العـلوم

---

(٢١) المقـامة : ٧٧ ٠

المختلفة لانشائه الأدبى كما أنها عبرت عن وجدان مؤلفها وذاته فشكا فيها وبكا وتألم وعشق وتغزل وسعد وطرب ومـــدح وعاتب ووصف وبذا تكـــون المقـــامة قد أقحمت نفسها على الشعر وسلبت منه موضوعاته ومعانيه كما أنها عنيت بالمجتمع فوصفته وعبرت عن حوادثه وأحداثه وكوارثه وأمراضه وأوبئته وكل ذلك مع المحافظة على الشكل اللفظى المسجوع ذى الفقـــرات القصار ، والمقامة المملوكية بذلك تشبه الرسالة أكثر من شبهها للمقـــامة القـــديمة ٠

يقول د٠ شوقى ضيف عن المقامة المملوكية (والمقامة ليس فيها أديب شحاذ يروى حيلة وما يحسن من الأساليب الأدبية فقد تحولت من بعض الوجوه الى ما يشبه الرسائل اذ تتناول موضوعا يحل صاحبها فيه محـل أبى الفتح الاسكندرى عند بديع الزمان وأبى زيد السروجى عند الحريرى (٢٢) ومن ذلك مقامة للشباب الظريف واسمه شمس الدين محمد بن سليمان بن على وهو أحد شعراء مصر النابهين (٦٦١ ـ ٦٨٨ هـ) وكان مشهورا بالغـزل ومدح كثيرا من رجالات عصره وشعره يفيض بالعاطفة ٠ يقول الأستاذ محمود رزق سليم عن مقامته (هذه مقامة شاعرة أو هى قصيدة منثورة تماوجت فيها العاطفة واستطارت الوجدانات ومع غزلها الصارخ عف لفظها وظهر أسلوبها فلم يسف الى مجون ولم يسفل الى مبتذل) (٢٤) ٠

ويقول : وهى قصة قليلة الحوادث وأقرب الى المقالة الواصفة منهـا الى القصة ذات العقدة والحوار الذى يتخللها هادىء لا عنف فيه وهى تدور حول شاعر أحب أن يتفرج برؤية الرياض فوجد بينهم جماعة يتذاكرون الأدب ويروون الشعر والخطب وبينهم شاب بدت عليه امارات الغرام وكست جسمه

---

(٢٢) عصر الدول والامارات : ٤٤٤ ٠
(٢٣) فوات الوفيات ٢/٢٦٣ ٠
(٢٤) عصر سلاطين المماليك ٥/٣٧٣ ٠

حلل السقام يبكى بكاء مرا مما أصابه فيمم الشاعر نحوهم سائلا عن خبر هذا الشاب الباكى فيعلنونه بجهلهم به وبحاله فينظر الشاب اليهم شذرا ثم ينشد شعرا ويأخذ فى وصف حاله بين أبيات تسيل فيها كئوس الحب وتفيض اللوعة فهو شاب عاشق صد عنه معشوقه وجفاه فآذه الود وهده الصدر وقد أخذ يصف لهم معشوقه ويبين كيف لقيه وما امتاز به من محاسن ومفاتن جعلته له عبدا وأسيرا فطفق يتوسل اليه بشتى الوسائل ولكنه صد عنه. وقد أعجب الحاضرون بحديث الشاب وطربوا له ايما طرب حتى دبت حماسة الحب فى شاب آخر منهم فقام على الأثر يبكى على غراره وينتحب ويبث حديث حبه وهيامه ويبث قديم عشقه وغرامه حتى زاد وعم وفاق وسبق وطغى حديثه على حديث الأول وما زال سادرا فى كلامه مستمرا فى شكواه واصفا ما يعانى من هجران وما يلاقى من جفاء وما بذل من وسيلة وما قدم من حيلة فلم تنجح وسائله ولم تنفع حيله فأعلن بذهابه الى بيت الله حاجا فودعه عاشقه بدموع غزار وقلب هائم قتله اليأس ، ونفس ولهى هدها الجفاء ... الخ فأعجب به الحاضرون (٢٥) . ومن هذه المقامة ما قاله فى أولها على لسان الشاعر :

لم أزل مذ بلغت سن التمييز أولع بنظم الاراجيز ومذ شب عمرى عن الطوق معزى بالغرام والشوق اعتمد خلع العذار فى حب السالف والعذار وأهيم بالشمول والشمائل وأشرب فى زجاجة صفراء كالأصائل وأقدم على رشف ثغور البيض ولا أقدم حذرا من ضرب المرهقات البيض وأتوجه لضم أعطاف السمر ولا أتوجع لضيم انعطاف السمر واتنزه فى كل ناد وواد وأتنزه عن كل معاند ومعاد . فخرجت الأيام الى الغياض وولجت بين حياض ورياض قد ضاع نشرها وضاء بشرها وقبل خد الشقيق بها ثغر الأقاح وملأت قماريها تلك النواحى بالنواح فمن جدول يمثل كالأيم شكاه بالزهر فى الغيم فهو من صور الحباب كالجبل ومن طرب الاضطراب فى عباب

---

(٢٥) ن. السابق ٣٧٣/٥ ، ٣٧٤ .

تصفق غدرانها وترقص أغصانها وتفخر أزهارها ويشدو هزارها وتبكى عيون نرجسها بينبوع منبجسها ويميل طريا وسميها اذا أتاه نسميها ويحمــر شقيقها خجلا ويصفر بهارها وحلا :

ويبـــدو حســـنها خضـــرا	ويبـــدى زهرها خضـــلا
اذا ما الصـــب شـــاهده	صـــبا واســـتأنف الغـــزلا
وتحســـب جنـــة الفـــردو	س عنه حســنها نقلا) (٢٦)

والمقامة تعد من أجمل ما يقوله شاعر فى وصف الطبيعة ويظهر فيهـا خيال الشاعر وعاطفته المرهفة هذا مع شدة عنايته برونق الأسلوب وجماله والمحسنات البديعية والبيانية ونلاحظ أنه يمزج الشعر بالنثر فى مقامته وكان هذا من مميزات المقات العباسية فهو يعد ن وجوه الاتفاق بين المقامتين ومقامة الشباب الظريف قد حوت من فنون الشعر الوصف والغزل والعتاب والشكوى ووصف الآلام وهى قطعة من نفس صاحبها المرهقة الشاعرة .

ونجد بعض الأدباء يستغلون المقامة فى التعبير عن الأحداث الجارية فى زمانهم وفى بيئاتهم ومن ذلك ما نراه عند ابن الوردى أديب الشام المشهور ت ٧٤٩ هـ فعندما شب حريق دمشق سنة ٧٤٠ هـ وخرب المدينة وأهلك ألف مقامة سماها صفو الرحيق فى وصف الحريق وقد بدأها بقوله (حدث غياث بن سحاب عن ندى بن بحر قال : فبينما أنا ذات ليلة من سنة أربعين وقد أويت من دمشق الى ربوة ذات قرار ومعين واذا بضجيج أهلها قــد ملأ الآفاق والنيران فى أسافلها وأعاليها قد بلغت التخوم والطباق فبـادرت الى الجامع الأموى لأمنه ويمنه فوجدت العالم كأنهم قطعة لحم فى صحنه وقد أرسل على أحاسن دمشق شواظ من نار ونحاس وقربت النار من جامعها الأخضر حتى كاد يحصل منه اليأس وفارت النار لأخذ النار مسرعة فى كلبها وجاءت حمالة الحطب فتبت يدا أبى لهب .

---

(٢٦) ن. السابق ٥/٣٧٤ .

حمراء ساطعة الذوائب فى الدجى
تربى بكل شرارة كطراف)

وقال يصف بعض أسواق المدينة وآثار النار عليها وكيف اتلفت ما فيها:
(فيالسوق الكفت ما كفت النار عنه لسانا ولا ثنت عن سوابقها عنانا نعوذ بالله من نار علكت عليهم اللحم وسبكت مهجته حتى أفصح بالتأسف له الألسن العجم ووثبت اليه من بعيد ويالسوق الخيم كيف خيمت عليه وتجلد لها والنار بين جنبيه انها عليهم مؤصدة فى عمد ممدود فلولا اللطف ما مد له طنب ولا سلم لعروضه وتد ولا سبب ولكن تداركه من الماء والتراب برد وسلام وشكت خيامه الظمأ فقيل لها سقيت الغيث أيتها الخيام ، ويالسوق القسى كيف تبرأ منه قوس السحاب وسويت قسيه فكل نون تسبح فى ماء الذهب آلت الى الذهاب ورمى بها من النيران وقالت له النار قد دخلت فى باب أن من الأنين وستدخل فى باب كان فقد قست على قسيك نارى وطلبتها بأوتارى وجعلت نون الفا وقرأت لها فى ملحمة ابن عقب من مصارع القرون ما كفى هذا وقد أضاء الليل بالنار حتى صدق القائل وقال الدجى ياصبح لونك حائل فبينا الحنايا فى المرقب من اللهب وقلوب أصحابها فى المعرة وأعينهم فى حلب واذا بالنائبات قد أقبل وصبره مقلص ودمعه مسبل وقال وا أسفاه لمدينة عمرتها والهفا لأوقات ثمرتها كيف تصل النار الى محاسنها وتتمكن من أماكنها ، فقال له لسان القدر الصانع : هذه أول عقوبتك باخراج الكلاب والضفادع فالعجب أخبث سجية والكلاب كما قيل خطية) (٢٧) .

ونلاحظ أن ابن الوردى أكثر من استخدام الجناس والطباق والاقتباس والتضمين ومصطلحات العلوم كمصطلحات علم العروض وأبواب علم النحو وقد راعى النظير فى كتابته (قد دخلت فى باب أن من الأنين وستدخل

---

(٢٧) ديوان ابن الوردى ط الجوانب ١٢٠٠ هـ .

فى باب كان ...) كما أن نثره الأبيات الشعرية واقتباساته طريفة وملائمة للمناسبة . وان لم يخل أسلوبه من التكلف وهذه سمة بارزة من سمات المقامات .

كذلك تعرضت المقامات لحروب العصر ووقائعه ومن ذلك مقامة لابن الوردى فى وقعة حلب أطلق عليها اسم المرصعة لشدة عنايتها بألوان البديع والحلى وهى تشبه الرسالة أيضا ومنها : (هذا وقد نزلت فنون البلاء بالشام وهملت عيون العناء كالغمام وصار وشام الاسلام كالوشام وعرام الأنام فى غرام . وخفيت آثار المآثر ودرست وطفئت أنوار المنابر وطمست وحلبت العيون ماءها على حلب وسكبت الجفون دماءها من الصبب والتقى عليها الختل والاختلال واحتفى بها الفتل والوبال واختطفت من أعيانها عرائس الشموس والأقمار واقتطفت من أغصانها نفائس النفوس والأعمار فستر سفور السرور ونشر ستور الشرور وتخربت الدور والقصور ونحرت الحور فى النحور وجرت عيونها على أعيانها وهمت جفونها على شبانها وسما العدوان فى عش بيضة الاسلام ورفعت الصلبان على المساجد ووضعت الأديان والمعابد حتى بكا على الوجود الجلمد وشكا الى المعبود السرمد .

ولما تعظم العدد وتكبر وتقدم بالعتو وتجبر وبسط سيفه على الخافقين وهبط خوفه على المشرقين ، أطلع له طلائع اللواء المظفر ، وأبدع مطالع السناء الأنوار ، وخفقت الرايات والبنود ، وشرفت الآيات والسعود بانجذاب الكفار الى كنعان وانسحاب الفجار الى الهوان) (٢٨) .

وكما عنيت المقامة بأحداث العصر السياسية والاجتماعية عنيت بالناحية الدينية والعقدية وأنشئت أكثر من مقامة فى التصوف وأصوله وقواعده ومن أمثلة ذلك مقامة لابن الوردى فى وصف الصوفية وبيان مبادئهم ورموزهم

---

(٢٨) تاريخ ابن الوردى ٢/٢١٦ .

وأحوالهم وتتضمن حوارا بين انسان من معرة النعمان سافر الى القدس الشريف وبين من لقى فيه من الصوفية عشرة رجال فيهم شيخ وقور منها ما قاله على لسان شيخ الصوفية (وأما شرط الصوفى باستحقاق فان يتخلق بأخلاق الرسول ويفوز من سؤل رياضته بالشمول ويتنكب عما عنه نكب ويأخذ بما اليه ندب لا يتخذ محرمة ربيعه ولا يجرى كالعاصى الذى يزيد اعراضه عن الشريعة فقد صفا من الكدر ونحى عن الفكر ونجى من الغير ومن عدل عن سمته ونهجه وعول على حكم نفسه وهرجه وسعى لبطنه وفرجه كان من التصوف خاليا ، وفى التجاهل ساعيا ومن داخله فى ذلك مرية : فقد عطل عما ذكره الحافظ فى الحلية قال الحاكى : فلما سمعت ما قاله هذا الشيخ الجليل اكبرته وبالغت فى التبجيل وقلت : له يا سيدى لى زمان أحرص على مثلك فما ظفرت من قبلك فتمم العطاء واكشف الغطاء عن أشياء تعانيها متصوفة الوقت وميز لى منها ما يستحق المقة من المقت قال : سل عما تريد قلت أول بيت فى القصيدة لم حلقوا الرءوس وقصروا الثياب قال : موافقة لما فى الكتاب ... الـخ (٢٩) .

والمقامة تقوم كلها على سؤال الحاكى وجواب الشيخ ويتخلل ذلك بعض النقد لمتصوفة زمانه حيث يقول :

(ان متصوفة اليوم أصحاب أكل وشرب ونوم يروون الأقوال ولا يتبعون الأفعال وافقوهم ملبسا وخالفوهم انفسا يدعو ما ليس من رجاله ويخيرون الشخص بين عرضه وماله ويحبون الجاه والشهرة ويؤملون برد النعيم على فتره :

اعتزل الناس ومل	عنهم بنفس صادقة
صار الرباط كاسمه	والخانقاه خانقه

---

(٢٩) ديوان ابن الوردى ط الجوانب .

والنـــــاس وقـــد تصنعوا وليس فيهـــــم بارقـه
الا قليـــــلا قـــال عـن دنيـــــاه أنت طالقـــه (٣٠)

كذلك تعرض ابن الوردى فى مقامته المشهدية لبعض العادات والبدع التى عرفت فى العصر المملوكى كزيارة الأضرحة وقد أوضحت المقامة انهـا من البدع التى تدل على الضلال وانه ينبغى الا تشد الرحال الا الى ثـلاث . والمقامة تدور حول انسان مل المقام ورغب فـى السفر وزيارة المشاهد وبينما هو يجد فى رحيله اذ لقى أميرا كبيرا أخذ يوبخه لما عرف بوجهته ويبين له تحريم مثل هذه الزيارة ومن ذلك قوله مبينا أسباب تحريم السفر الى هذه المشاهد (فقلت أيها الأمير الجليل هل أبدى لهذا التحريم دليل فقـال : لقد ذكر لذلك أدلة تدع أعزة حاضريها أذلة منها شد رحالهم الى غير المسـاجد الثلاثة ومشاركتهم أهل الكتاب فى الأعياد والخباثة وتشبههم بالمجـــوس فى اضرام النار واضاعة المال المنهى عنه فى الأخبار واختلاط النســـاء بالرجال وركوب الأخطار والأوجال ولهوهم عن العبادة والجماعات واقبالهم على اللعب والسماعات ومحاكاتهم الجاهلية فى أسواقها واحداث أحداث العشيرة فى الشريعة بما ليس من قياسها ولا سياقها وزيادة عيد ما وردت به الرسالة وارتككابهم أمر مبتدع وكل بدعة ضلالة) (٣١) .

وكما عبرت المقامات عن العصر واحداثه ودقائقه ومعتقداته عبـــرت عن ثقافته واهتماماته وذوقه .

ومن ذلك مقامة شهاب الدين القلقشندى ت ٨٢١ هـ صاحب موسوعة صبح الأعشى وقد أطلق على مقامته اسم الكواكب الدرية فى المناقب البدرية وهى مقامة عظيمة القيمة فقد أرخ بها لأصول صناعة الكتابة وما ينبغى

---

(٣٠) ن. الســـابق .

لكاتب الانشاء أن يتحلى به من ضروب المعرفة فهى مقامة تعليمية تهذيبية ، ومع أن الموضوع الرئيسى للمقامة هو مدح صاحب ديوان الانشاء بدر الدين محمد بن يحيى بن فضل الله العمرى فقد أسهب القلقشندى فى الحديث عن صناعة الكتابة وأخذ يعلى من قدرها وجعلها أشرف الصناعات ٠

والمقامة طويلة تقع فى حوالى ٣٥٠ سطرا وهى كأكثر المقامات تقوم على الحكاية والحوار ولكن حوارها يسير وحكايتها أقرب الى الخيال ٠ بدأ القلقشندى مقامته بقوله (حكى الناثر بن نظام) ٠ والموضوع يدور حول حكاية الناثر بن نظام عن نفسه التى أخذها بطلب العلم والتأدب بالاطلاع على أفضل الكتب ولقاء خير الشيوخ ومصاحبة الطف الزملاء وما زال جادا حتى فتح الله عليه من العلم والمعرفة أبوابا واسعة غير أنه فاجأه من التكليف ومسئولية السعى لطلب الرزق فرأى أن ذلك يعوقه عن طلب العلم والطواف فى الآفاق جهادا فى سبيله واحتار بين أن يترك العلم فى سبيل الكسب أو يترك الكسب فى سبيل العلم وهذان شيئان أحلاهما مر وكلاهما عسير وشاق ثم رأى أن يجمع بين الاثنين العلم والتكسب وذلك بأن يلتمس حرفة للكسب يكون من شأنها تشجيعه على طلب العلم ومن طبيعتها أن تهيىء له الاستمرار فيه ٠ وما زال يتساءل حتى يلقى رجلا خبيرا فيشير عليه باحتراف الكتابة ومدحها له مبينا أنها أشرف المهن ودعم بيانه بآيات من القرآن الكريم منها (اقــرأ وربك الأكــرم الذى علم بالقــلم علم الانســان ما لم يعـلم) فان الله أخبــر فى هــذه الآيات الكريمــة أنــه علم بالقلم ومنهـا قوله تعالى (ن ٠٠ والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون) فانه تعالى أقسم هنا بالقلم وما سطر أرباب الأقلام الى غير ذلك وكان النبى صلى الله عليهوسلم راغبا فىالكتاب عاملا علىكثرتهم وقد اتخذ لوحيه أكثر من ثلاثين كاتبا ، ثم بين له أن الكتابة قانون السياسة ورتبها غاية الرياسة وأن الدولة كاتبا ، ثم بين له أن الكتابة قانون السياسة ورتبتها غاية الرياسة وأن الدول والملوك فى أشد الحاجة الى الكتاب ٠

وهكذا ظل الرجل يحبب اليه احتراف الكتابة حتى صمم الناثر بن نظام

على الاندماج فى صفوف الكتاب وهو بذلك يستطيع الجمع بين العلم والكسب ولكنه حار بين ضروب الكتابة والى أيها ينتسب وبأيها يحترف أبكتابة المال أم بكتابة الانشاء ، ففضل له صناعة الانشاء ومدح له كتاب الانشاء والخطابة بين قيمتهم ومميزاتهم وعلو مكانتهم وثم سأله الناثر بن نظام عما يحتاج اليه صاحب هذه الصناعة فأخبره بأن عليه معرفة جملة من العلوم منها : حفظ القرآن الكريم وتدبر معانيه وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم والاحاطة بالأحكام وقواعد الاسلام وأشعار العرب وكلام بلغائهم من قدماء ومحدثين وما فى ذلك من محاورات ومناقضات وخطب وأمثال وسير وأخبار وأيام العرب وحروبهم وتواريخ الدول والملوك وأحوال الممالك ومكايد الحروب هذا الى احاطة باللغة العربية وفنونها كالنحو والتصريف وعلوم البلاغة والى معرفة بالخط وقوانينه وآلاته والى خبرة تامة بمصطلحات الديوان واحاطة شاملة برسومه . ثم يبين له مزايا هذه المعرفة وما تؤديه من القدرة على التجويد والابداع .

وفى نهاية المقامة يسأل الناثرين نظام عمن يلم شتات هذه الصناعة فيتعجب الرجل من سؤاله ويخبره بأنه المقر البدرى الذى سميت المقامة باسمه ومن ثم يكيل له المدح كيلا ويفضله على كثير من المنشئين قبله ونجد القلقشندى قد التزم البديع فى مقامته كما فعل غيره من مؤلفى المقامات . ومما جاء فيها قوله يصف ولعه بطلب العلم (حكى الناثر بن نظام قال : لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمرى مركز التكليف ويتفرق جمع خاطرى بالمكلف بعد التأليف أنصب لاقتناص العلم اشراك التحصيل وأنزه توحيد الاشتغال عن اشراك التعطيل مشمرا عن ساق الجد ذيل الاجتهاد مستمرا على الوحدة وملازمة الانفراد انتهز فرصة الشباب قبل توليها واغتنم حالة الصحة قبل تجافيها قد حالف جفنى السهاد وخالف طيب الرقاد أمرن النفس على الاشتغال كى لا تمل فتنفر عن الطلب وتجمح مسيلا جانب قصدها عن ركوب الأهواء والميل اليها ... الخ) .

ومن علماء العصر وأدبائه ورجاله المبرزين فى كل مجال كان السيوطى

واسمه عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد الخضيرى الأسـيوطى (٨٤٩ _ ٩١١ هـ) ومقامات السيوطى طريفة متنوعة طرقت أكثر من مجـال وبأكثر من طريقة فقد لجأ الى المناظرات وكتب مقامته الوردية وهى مناظرة بين الأزهار ومقامته التفاحية حوارا بين ألوان الفاكهة ومقامته الزمردية فى وصف الخضروات وله مقامة سماها رشف الزلال من السحر الحلال كما أطلق عليها مقامة النساء وله مقامات تناولت بعض مسائل التاريخ والفقه والنحو٠ وقد استخدم الأسلوب البديعى فى نظم مقاماته ومزج الشعر بالنثر واعتمد على التوريات ومراعاة النظير ٠ ونورد على سبيل المثال جزءا من مقامته الوردية وهى مناظرة طريفة بين أنواع مختلفة من الأزهـار هى الورد والنرجس والياسمين والبان والنسرين والبنفسج والنيلوفر والآسى والريحان ٠

وقد بدأ الورد المناظرة فتكلم عن مزايا نفسه ومحاسنها وما يقدمه من النفع للناس وبعده قام النرجس فسفه رأى الورد ونعى عليه اعجابه بنفسه وكشف الستار عن كثير من مساوئه وأبان ما فى كلامه من مبالغة وافتراء ثم ذكر مزايا نفسه ومحاسنه ثم قام الياسمين بعد النرجس فنهج نهجه وهكذا ٠ قال الورد فى مطلعها (بسم الله المعين وبه نستعين أنا الورد ملك الرياحين والورد منعش للارواح ومتاع الى حين ونديم الخلفاء والسلاطين والمرفوع دائما على الأسرة لا من كل ريحان فخرا بأنى خلقت من المصطفى وجبريل والبراق ليلة الاسراء والمظفر بقوة الشوكة والصولة والمنصور على من ناوأنى لأنى صاحب الدولة والعزيز عند الناس والمودود بين الجلاس للايناس والعادل فى المزاج والصالح فى العلاج أسكن حرارة الصفراء وأقوى الباطن من الأعضاء وأطيب رائحة البدن ومن شم مائى وبه غش أو صداع حار سكن وأقوى المعد وأفتح من الكبد السدد وأنفع الأحشاء وأقوى الأعضاء وأنا ومائى ودهنى كيف أشاء وأبرد اللهب الكائن فى الرأس وربما استخرجتها منه بالعطاس وأنبت اللحم فى العروق العميقة ٠٠ الخ ٠

ومن كلام النرجس يرد على الورد ويذكر محاسن نفسه ٠

لقد تجاوزت الحد باورد وزعمت أنك جمع فرد وان اعتقدت ان لك بحمرتك فخر فانها منك فجر قلل النبى صلى الله عليه وسلم الشيطان يحب الحمرة فاياكم والحمرة ٠

وهكذا نرى أن مقامات العصر المملوكى اتخذت لها أسلوب المناظرات والمفاخرات الى جانب ما عرف من اساليبها ٠

ومما سبق يتضح لنا أن فن المقامات يعد من الفنون الجديدة التى ازدهرت ازدهارا عظيما فى العصر المملوكى ٠

الفصــل السادس

العلاقات الشخصية فى الادب المملوكى

لا يستطيع الانسان أن يعيش بمفرده فى الحياة مهما أوتى من قوة ومال وذكاء وجـاه ومنصب فالانسان شاء أو لم يشـأ يحتـاج الى الآخـرين ليتعاون معهم وليدبروا شئونه ويلبوا متطلبـاته واحتيـاجاته وليعاملهم ويتشاور معهم ولتكون الحياة حياة . والأخوة والمودة أجمل مظاهر الحياة فهى تشعر بالألفة كما تشعر بالقوة وبالقوة تنال الأمانى وتتحقق الرغبات وتنجح المقاصد ووجود المودة والترابط وروح الأخـوة بين الناس يعطى الاحساس بالأمن والأمان والكثرة وعدم الانفراد والوحدة أو العـزلة أمام مشكلات الحياة ..

والأخوة من أعظم نعم الله عز وجل قال تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا) (١) .

ووصف سبحانه نعيم الجنة وما أعد فيها لأوليائه من الكرامة اذ جعلهم اخوانا على سرر متقابلين (ونزعنا ما فى قلوبهم من غل اخوانا على سرر متقابلين) (٢) .

وقد وردت لفظة الأخوة فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة وعنيت المشاعر الصادقة والود والصفاء والقوة والتآزر ، قال تعالى (وان تخالطوهم فاخوانكم (٣) ـ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتو الزكاة فاخوانكم (٤) ـ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا (٥) ـ قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل

---

(١) آل عمران آية ١٠٣ .
(٢) الحجر آية ٤٧ .
(٣) البقرة آية ٢٢٠ .
(٤) سورة التوبة آية ١١ .
(٥) سورة مريم آية ٥٣ .

لكما سلطانا (٦) — قال انى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون (٧) — واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى) (٨) ٠

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الأخوة وآخى بين الصحابة رضى الله عنهم أجمعين وذكر الله تعالى أهل النار وما يلقون فيها من الألم اذ يقولون (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) (٩) — وقال (١٠) على ابن أبى طالب رضى الله عنه الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين وقال زياد : خير ما اكتسب المرء الاخوان فانهم معونة على حوادث الزمان ونوائب الحدثان وعون فى السراء والضراء ٠ وقال الأوزاعى : الصاحب للصاحب كالرقعة فى الثوب ان لم تكن مثله شانته ٠ وقال عبد الله بن طاهر : المال غاد ورائح والسلطان ظل زائل والاخوان كنوز وافرة ٠

وقيل لابن السماك أى الاخوان أحق ببقاء المودة قال : الوافر دينه الوافى عقله الذى لا يملك على القرب ولا ينساك على البعد اذا دنوت منه داناك وان بعدت عنه راعاك وان استعنت به عضدك وان احتجت اليه رفدك وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله وقيل لخالد بن صفوان أى اخوانك أحب اليك ؟ قال: الذى يسد خلتى ويغفر ذلتى ويقبل عثرتى ، وقيل من لا يؤاخى الا من لا عيب فيه قل صديقه ومن لم يرض من صديقه الا بايثاره على نفسه دام سخطه ومن عاتب على كل ذنب ضاع عتبه وكثر تعبه وقالوا : اذا رأيت من أخيك أمرا تكرهه أو خلة لا تحبها فلا تقطع حبله ولا تصرم وده ولكن داو كلمته واستر عورته وابقه وابرأ من عمله قال تعالى (فان عصوك فقل انى برىء مما

(٦) سورة القصص آية ٣٥ ٠
(٧) سورة يوسف آية ٦٩ ٠
(٨) سورة طه آية ٣٠ ٠
(٩) سورة الشعراء آية ١٠١ ٠
(١٠) الاقوال نقلا عن كتاب المستطرف الباب الرابع والعشرون ٠

تعملون) (١١) • وقال عليه الصلاة والسلام ان روحى المؤمنين ليلتقيا من مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه وقال أيضا الأرواح أجناد مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وأفضل الأخوة الأخوة فى الله وما تحاب اثنان فى الله الا كان أفضلهما عند الله أشدهما حبا لصاحبه • وما زار أخ أخا فى الله شوقا اليه ورغبة فى لقائه الا نادت ملائكة من ورائه وطابت له الجنة وقالوا ليس سرور يعدل لقاء الاخوان ولا غم يعدل فراقهم • وقالوا شر الاخوان الواصل فى الرخاء الخاذل عند الشدة وقالوا من الوفاء أن تكون لصديق صديقك صديقا ولعدو صديقك عدوا • وقالوا : أصحب من الاخوان من أولاك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة فنسى جمائله وبقى شاكرا ناشرا ذاكرا لجميلتك يوليك عليها الاحسان الكثير الجزيل ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل وقال ابن عائشة : لقاء الخليل شفاء الغليل وقال بعض الحكماء اذا وقع بصرك على شخص فكرهته فاحذره جهدك •

وهكذا كثرت الأقوال المأثورة والحكم فى الأخوة والصداقة وما يجب أن يتحلى به الصديق من صفات • وقد حفل الأدب منذ نشأته والى الآن بوجهات النظر التى تدور حول هذا الموضوع ويمكننا أن نقول ان أكثر الشعراء ان لم يكونوا كلهم قد نثروا آراءهم وثمرات خبراتهم حول هذا الموضوع وذلك لأهميته ولأنه من أهم مقومات الحياة فالانسان لا يستطيع أن يستغنى بنفسه عن الآخرين وعدم وجود الخل الوفى يبعث الكآبة والملل ومن ذلك قول أحد الشعراء :

وما المرء الا باخوانه
كما يقبض الكف بالمعصم

---

(١١) سورة الشعراء آيه ٢١٦ •

ولا خيــر في الكف مقطــوعة
ولا خير في الســاعد الأجـذم (١٢)

ومن كلام علي رضي الله عنه :

عليــك باخـوان الصــفاء فانهـم
عمـا اذا اســتنجدتهم وظهــور
وان قليــلا ألف خـل وصــاحب
وان عــدوا واحـدا لكثيــر (١٣)

وقالوا في معنى الأخوة :

ان أخــاك الصديق من يســعى معك
ومن يضر نفســك لينفعــك
ومن اذا ريب الزمــان صــدعك
شتت فيــك شمله ليجمعك (١٤)

وقال أحـد الشــعراء :

وليس أخي من ودني بلســانه
ولكن أخي من ودني وهو غائب
ومن مــاله مالي اذا كنت معــدما
ومالي له ان أعـوزته النوائب (١٥)

---

(١٢) المستطرف الباب الرابع والعشرون ١٤٠ في حسن المعاشر والمودة والاخوة والاجم : الابرص ٠
(١٣) ن٠ المصدر السابق والصفحة ٠
(١٤) ن٠ السابق والصفحة ٠
(١٥) ن٠ السابق والصفحة ٠

وقد أحس الشاعر الجاهلى بقيمة الصداقة ومكانتها فاستهل أكثر قصائده باستيفاف الأصحاب وذكر الأخلاء والحديث اليهم وبثهم شوقه ومعاناته وآلامه لفراق الأحبة . وعنى الشعر الاسلامى بالحديث عن الصديق يقول كثير عزة فى معاملة الصديق :

ومن لا يغمض عينه عن صديقه
وعن بعض ما فيه وهو عاتب
ومن يتبع كل عثرة
يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب (١٦)

ويقول المقنع الكندى عن الصداقة والصديق وكانت الحكمة عنده تتناول العلاقات بين الأفراد وما ينبغى أن تكون عليه فى ظل الاسلام :

وصاحب السوء كالداء العياء اذا
ما أرفض فى الجلد يجرى هاهنا وهنا
يبدى ويخبر عن عورات صاحبه
وما يرى عنده من صالح دفنا
ان يحيى ذاك فكن عنه بمعزلة
أو مات ذا فلا تشهد له جننا (١٧)

وفى العصر العباسى ازداد هذا الاتجاه فى الشعر فكثر الحديث عن الصديق ومميزاته ورآه البعض نادرا أو عده حلما أو معجزة يقول أبو تمام راسما صورة مثالية للصداقة والصديق ومتحدثا عن أخلاق الصديق وأدبه :

---

(١٦) الديوان ، الحلية ٤/١٨٨ ، ١٨٩ .
(١٧) الشعر والشعراء ٢/٧٤٠ ، الجنن : القبر ويريد لا تشهد جنازته .

من لى بانسان اذا أغضبته ... وجهلت كان الحلم رد جوابه
واذا صبوت الى المدام شربت من ... أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغى للحديث بطرفه ... وبقلبه ولعله أدرى به (١٨)

ويحث بشار على اختيار الصديق العاقل فيقول :

اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى نصيح أو نصيحة حازم (١٩)

ويقول فى معادلة الصديق :

اذا كنت فى كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحدا أوصل أخاك فانه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه (٢٠)
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

ويقول صالح بن عبد القدوس فى اختيار الصديق :

واحذر معاشرة الدنىء فانها ... تعدى كما يعدى الصحيح الأجرب
يلقاك يحلف أنه بك واثق ... واذا توارى عنك فهو العقرب
يعطيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب
واختر قرينك واصطفيه تفاخرا ... ان القرين الى المقارن ينشب (٢١)

---

(١٨) المستطرف ١٤٠/١ .
(١٩) الاغانى ١٥٦/٣ دار الكتب .
(٢٠) السابق والديوان ٧٧/١ .
(٢١) معجم الادباء ٩/١٢ .

هذا وقداختلفت الآراء فى امكانية وجود الخل الوفى فالبعض وجده والبعض رأى ندرته والبعض تعب من البحث عنه حتى يأس وفقد الأمل وكما يقول المتنبى :

خليلـــــك أنت لا من قلت خـــلى
وان كثـــر التجمـــل والكـــلام

واذا كانت الأخـــوة والود والصفاء هى الجانب المحمود فى العلاقات الشخصية بين الأفراد فهناك جانب آخر ينجـــم عن الاحتـــكاك والتنافس والتحاسد والتباغض وقد صور لنا الأدب العربى هذا الجانب فى شـــعر الهجاء والنقائض بين الشعراء منذ الجاهلية ·

والعلاقات الشخصية بين الأفراد بجانبيها المشرق والمظلم احتلت جزءا كبيرا من أدب العصر المملوكى شعره ونثره · كما أنها استغرقت موضوعات ومعانى كثيرة فمنها الحكمة ومنها الشوق ومنها التهنئة ومنها الشكر والعتاب والاعتذار والهجاء والرثاء ·

وهذا الأدب الناجم عن تلك العلاقات هو أدب ذاتى ينبع من نفس الأديب وردود الفعل التى تحدثها الاحتكاكات المختلفة بأفراد المجتمع وهو يشتمل على معان طريفة ونادرا ما يحتاج الى معان عميقة ، كما أنه يهدف الى التعبير عن النفس أكثر من جنوحه الى جانب الاختراع والابتـــكار · ويكثر فى المراسلات أو المعارضات الأدبية التى تكون بين الأصـــدقاء من الأدباء أو المتنافسين ·

والعلاقات الشخصية على اختلاف مظاهرها وأسبابها اذا وقعت بين أديبين أضافت الى الأدب نتاجا جديدا يشتمل على كافة العواطف والروابط الانسانية وهو يعكس الى جانب ذلك جانبا أو أكثر من المجتمع بعاداته وأخلاقه وتقاليده وحوادثه وفكره وثقافاته ودينه ··· الخ ·

والعلاقات الشخصية بين الأدباء والمؤرخين وولاة الأمر لعبت دورها بنشاط فى ميدان الأدب فى العصر المملوكى ٠

فالعـــلاقة بين السلطان جقمق (٢٢) والمؤرخ شهاب الدين بن عربشاه دفعته الى تأليف كتاب فى تاريخه سماه (التأليف الطاهر فى شيم الملك الظـــاهر) ٠

والكتاب ليس كتاب تاريخ صرفا بل يغلب عليه الناحية الأدبية فهـــو فصول أدبية ممتعة فيها أدب وحكمة وفيها خيال وحقيقة وفيها منطق وفلسفة وفيها أخلاق واجتمـــاع (٢٣) ٠

والكتاب يحتوى على خطبة بديعة يتصل بها فصلان ثم يأتى بعدهما عشرة فصول ٠ والخطبة تضمنت بعد التحميدات والصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم سطورا فى وصف الانسان وخلقه وبراعة تصويره وفى سيرته وسريرته وأخلاقه المحمودة والمذمومة وفى تفاوت الناس فى درجات الكمال٠ ثم أشار الى اختصاص عصره بدولة الظاهر جقمق لما أتاه الله من ضروب الفضل والكمال وأخذ فى الثناء عليه واطرائه وأما الفصلان الملحقان بالخطبة فقد ذكر فى الأول مبدأ أحوال السلطان الى أن صار اماما عادلا يتبوأ عرش السلطنة ٠

وفى الثانى أوضح ما اختصه الله تعالى به من الأوصاف المحمودة مما ميز الانسان حتى صار انسانا ٠

وأما الفصول العشرة :

---

(٢٢) أحد سلاطين مصر حكمها بين ٨٤٢ ـ ٨٥٧ ٠
(٢٣) عصر سلاطين المماليك المجلد الخامس ص ٣٢٠ ٠

فالأول فى ذكر النفس وماهيتها وما ذكره فى ذلك حكماء الاســـلام وغيرهم وفيه تحدث عن طبيعة النفس البشرية وكنهها وتعلقها بالبدن وعن تقسيم أفلاطون لها ٠

والثانى فى بيان الصفات الحميدة وقد أرجعها الى العقل ٠ والثالث فى حسن الخلق وفضله كما تحدث عن سوء الخلق وآثاره ثم أورد من محاسن أخلاق جقمق وفضائله وعاداته القويمة وتقاليده الدينية السليمة ما استحق عليه الثناء ٠ والرابع فى العلم وفضيلته ومزية أهله على سائر المخـلوقات ويلاحظ أنه قصد بالعلم فهم الشريعة الاسلامية والعمل بتعاليمها ٠ وفى الخامس تحدث عن التواضع وفى السادس عن الحكم والعفو والشفقة ولين الجانب وفى السابع عن شكر الله على نعمه وفى الثامن عن التوكل والتفويض وتحمل المشاق والصبر والثبات فى الأمور ٠ وفى التاسع عن العـدل وفضله وقد أسهب فى ذلك وأفاض وبين أن سلطانه قد تمتع بكل الصفات الواردة فى الآية الشريفة « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » ٠ وفى العاشر ذكر ما يحتاج اليه الملوك والسلاطين مما هو قوام السلطنة والملك وعماد الدولة كاتخـــاذ الوزراء والناصحين وغيرهم ٠

والعلاقة بين أبى حجلة المغربى ت ٧٧٦ هـ والسلطان الناصر حفيـــد قلاوون دفعته الى أن يؤلف له كتاب (سكردان السلطان) ومعنى ســكردان آنية السكر ٠ وموضوع الكتاب غريب اذ يتركز حول العدد سبعة فقد جمــع فيه مؤلفه ألوانا من المعارف والمصادفات والنوادر ذات الصلة الوثيقة بالحياة المصرية والتاريخ المصرى واتسمت كلها بهذا العدد سبعة وقد لا تجمع بينهـا جامعة فى نوعها أو موضوعها أو غير ذلك سوى هذه الجامعة ٠ وقد دلل المؤلف على أن العدد المذكور دون سائر الأعداد طابت له الاقامة فى مصر فاتخذها موطنا فجرى كثير من حوادثها وملابساتها متسما به دون سواه من الأعداد ومن ذلك مثلا : أن يوسف الصديق عليه السلام رأى الرؤيا بمصر

وهو ابن سبع سنين · ورأى ملك مصر فى أيامه رؤياه المشهورة وفيها سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات وقد تحققت الرؤيا وفق ما فسرها به يوسف عليه السلام ·

والكتاب يشتمل على مقدمة وسبعة أبواب ونتيجة ·

وفى المقدمة ذكر عدة حوادث مما وقع بمصر فى العدد سبعة وفى الباب الأول تحدث عن خصائصه وفى الثانى عن العلاقة بين السلطان حسن والعدد سبعة · وفى الثالث عن اقليم مصر الذى عاش فيه العدد سبعة ذاكرا بعض أخبار هذا الاقليم وحوادثه وفى الرابع عن السلطان حسن وأنه سابع من جلس على سرير الملك من اخوته مع نبذة يسيرة فى أخبار من تقدمه من ملوك الترك بمصر ، وفى الخامس تاريخ الناصر حسن واخوته وأبيه وعميه وجده وكلهم من أسرة قلاوون · وفى السادس نوه بجملة حوادث مختلفة مما وقع لهؤلاء السلاطين وفى السابع فسر ما أجمله من الخطبة وفى الثامن تكلم عن الآثار النبوية وهكذا ، والنتيجة شرح لكل ما ذكر من قبل وافاضة · والكتاب ملىء بالنوادر والطرائف ·

أما سبب اطلاق هذا الاسم عليه فهو اشتماله على أنواع مختلفة من جد وهزل وولاية وعزل ونصيحة ملوك وآداب وسلوك وسير وعبر وتغيير دول وانتحال ملل وقطع طريق وأفعال مكررة وأعمال سحره وبيان وتبيين ومدح وتأبين ويقظة ومنام وبر وآثام وأهرام ونيل وغرائب وعجائب مما تلقفه من أفواه الشيوخ الأجلاء وشاهده بعين الحقيقة واليقظة من التواريخ المعتمدة والتقاط الزهر من الحديقة) ·

وقد انتجت العلاقة الشخصية بين ابن حجة الحموى وناصر الدين البارزى رئيس ديوان الانشاء أثرين قيمين فدفعته الى انشاء قصيدته البديعية ثم شرحها فى كتاب خزانة الأدب ونلاحظ أن كثيرا من المؤلفات الأدبية والتاريخية كانت نتيجة للعلاقات الشخصية بين الأصدقاء من

الأدباء أو بين أديب واحد أولياء الأمر والنتيجة هى اثراء اللغة بالمؤلفات القيمة عظيمة الشأن ٠

كذلك نلاحظ كثرة ما ألف حول العلاقات الشخصية بين الناس من أخوة وصداقة وآدابها وما ينبغى للصديق على صديقه من حسن المعاشرة وآداب المسايرة والمنادمة والزيارة ، وأدى هذا الى الحديث عن صـــفات الأصدقاء قليلى الوفاء ٠

ومن أمثلة ذلك ما عقده الأبشيهى فى كتابه المستطرف لهذا الموضـــوع فقد ألف على طريقة معاصريه عدة فصول عن الأخوة وفضلها وما يرتبط بها من قريب أو بعيد (٢٤) ٠ قال فى آداب المعاشرة : وأما آداب المعاشرة فالبشاشة والبشر وحسن الخلق والأدب فعن جـابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة اذا تراءوا والمصافحة اذا تلاقوا ، وكان القعقاع بن شور الهذلى اذا جالسه رجل يجعل له نصيبا من ماله ويعينه على حوائجه ودخل يوما على معاوية فأمر له بألف دينار وكان هناك رجل قد فسح له فى المجلس فدفعها للذى فسح له فقال :

وكنت جليس قعقـــــاع بن شور
وما يشـــقى بقعقـــاع جليس
ضـــحوك السن ان نطقـــوا بخير
وعنـد الشر مطـــراق عبـــوس

وقال ابن عباس رضى الله عنهما لجليسى على ثلاث : أن أرمقه بطرفى اذا أقبل ، وأوسع له اذا جلس وأصغى له اذا حدث ٠ ويقال لكل شىء محل ،

---

(٢٤) الباب الرابع والعشرون فى حسن المعاشرة والمودة والاخوة والزيارة وما أشبه حـ ١ ص ١٤٠ ، ط بيروت ٠

ومحل العقل مجالسة الناس ، ومثل الجليس الحسن كالعطار ان لم يصبك من عطره أصابك من رائحته ومثل الجليس السوء مثل الكبريت ان لم يحرق ثوبك بناره آذاك بدخانه • وكانت تحية العرب صبحتك الأنعمة وطيب الأطعمة وتقول أيضا صبحتك الأفالج (٢٥) وكل طير صالح ووصف المأمون ثمامة بحسن المعاشرة فقال : انه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب • وقيل أول ما يتعين على الجليس الانصاف فى المجالسة بأن يلحظ بعين الأدب مكانة من مكان جليسه فيكون كل منهما فى محله • وقال صلى الله عليه وسلم (ذو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل) وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : اذا دخلت منزل أخيك فأقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس فى الصدر • وينبغى للانسان أن لا يقبل بحديثه على من لا يقبل عليه فقد قيل ان نشاط المتكلم بقدر اقبال السامع وعليه أن يحدث المستمع على قدر عقله ولا يبتدع كلاما لايليق بالمجلس فقد قيللكل مقاممقال وخير القول ماوافق الحال وأوجبوا على المستمع أنه اذا ورد عليه من المتكلم ما كان مر بسمعه أولا أن لا يقطع عليه ما يقوله بل يسكت الى أن يستوعب منه القول وعدوا ذلك من باب الأدب ولعله اذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن فى حفظه • وقيل ثمانية ان اهينوا فلا يلوموا الا انفسهم : الجالس فى مجلس ليس له بأهل ، والمقبل بحديثه على من لا يسمعه والداخل بين اثنين فى حديثهما ولم يدخلاه فيه والمتعرض لما لا يعنيه والمتآمر على رب البيت فى بيته والآتى الى مائدة بلا دعوة وطالب الخير من أعدائه والمستخف بقدر السلطان • ويتعين على الجليس أن يراعى ألفاظه ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصا اذا كان جليسه ذا هيبة فقد قيل رب كلمة سلبت نعمة •

وقال أبو العباس السفاح : ما رأيت أغزر من فكر أبى بكر الهذلى لم يعد على حديثا قط • وقيل ان أبا العباس كان يحدثه يوما اذا عصفت الريح فأرمت طستا من سطح الى المجلس فارتاع من حضر ولم يتحرك الهذلى ، ولم

---

(٢٥) أفلح الرجل : فاز وظفر •

تزل عينه مطابقة لعين السفاح فقال : ما أعجب شانك يا هذلى · فقـــال : ان الله يقول (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) وانما لى قلب واحـد فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال ، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها ولا وجمت لها · فقال السـفاح لئن بقيت لك لأرفعن مكانك ثم أمر له بمال جزيل وصلة كبيرة ·

وكان ابن خارجة يقول : ما غلبنى أحد قط غلبة رجل يصغى الى حديثى ·

وفى نوابغ الحـــكم اكـــرم حديث أخيك بانصاتك وصنه من وصمة التفاتك · وقيل من حق الملك اذا تثاءب أو ألقى المروحة من يده أو مد رجليه أو تمطى أو اتكأ أو فعل ما يدل على كسله أن يقوم من بحضرته ومن حـق الملك أن لا يعاد عليه حديث وان طال الدهر ·

وقال عطاء بن رباح ان الرجل ليحدثنى بالحديث فانصت له كأنى لـم أسمعه قط وقد سمعت به من قبل أن يولد ·

وقيـل المودة طلاقة الوجه والتودد الى الناس · وقال معاذ بن جبـل رضى الله عنه : ان المسلمين اذا التقيا فضحك كل واحد منهما فى وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت ذنوبهما كتحات ورق الشعر وقيل البشر يدل على السخاء كما يدل النور على الثمر · وقيل من السنة اذا حدثت القوم أن لا تقبل على واحد منهم ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيبا · وقالوا : اذا أردت المعاشرة فالق عدوك وصديقك بالطلاقة ووجه الرضا والبشاشة ولا تنظر فى عطفيك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات واذا جلست فلا تتكبر على أحـد وتحفظ من تشبيك أصابعك ومن العبث بلحيتك ومن اللعب بخاتمك وتخليل أسنانك وادخال أصبعك فى أنفك وكثرة بصاقك وكثرة التمطى والتثـــاؤب فى وجوه الناس وفى الصلاة ، وليكن مجلسك هادئا وحديثك منظوما مرتبا

واصغ الى كلام مجالسك واسكت عن المضاحك ولا تتصنع تصنع المرأة فى التزين ولا تلح فى الحاجات ولا تشجع أحدا على الظلم ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك عندهما ٠ واذا خاصمت فانصف وتحفظ من جهلك واذا قربك سلطان فكن منه على حذر واحذر انقلابه عليك وكلمه بما يشتهى ولا يحملنه لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه وان كنت لذلك مستحقا عنده ٠

وإياك وصديق العافية فانه أعدى الأعداء ٠ ولا تجعل مالك أكرم من عرضك ٠ ولا تجالس الملوك فانّ فعلت فالتزم ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والمذاكرة بأخلاق الملوك والحذر منهم وان ظهرت المودة ولا تتجشأ بحضرتهم ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم ٠ لا تجالس العامة فان فعلت فآداب ذلك ترك الخوض فى حديثهم وقلة الاصغاء الى أراجيفهم والتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم ٠ وإياك أن تمازح لبيبا أو سفيها فان اللبيب يحقد عليك والسفيه يتجرأ عليك ولأن المزاح يخرق الهيبة ويذهب بماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الايمان والود ويشين فقه الفقيه ويجرىء السفيه ويميت القلب ويباعد عن الرب تعالى ٠ ويكسب الغفلة والذلة ، ومن بلى فى مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه ٠ فقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم من جلس فى مجلس فكثر فيه لغط فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت استغفرك وأتوب اليك غفر له ما كان فى مجلسه من ذلك) (٢٦) ٠

وقال : (وأما ما جاء فى الاخوان القليلى الموافاة العديمى المكافاة الذين ليس عندهم لصديق مصافاة) فقال دهب بن منبه : صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلا غفر لى ذلة ولا أقال لى عثرة ولا ستر لى عورة وقال

---

(٢٦) المستطرف فى كل من مستظرف حـ ١ : ١٤٢ ، ١٤٣ ٠

علی بن أبی طالب : اذا كان الغدر طبعا فالثقة بكل أحد عجز · وقيل لبعضهم ما الصديق ؟ قال أسم وضع على غير مسمى وحيوان غير موجود ، وقال أبو الدرداء : كان النـــاس ورقا لا شـــوك فيه فصـــاروا أشواكا لا ورق فيـــه وقال جعفر الصادق لبعض اخوانه : أقلل من معرفة الناس وأنكر من عرفت منهم وان كان لك مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين وكن من الواحد على حذر · وقيل لبعض الولاة كم لك صديق فقال : أما فى حال الولاية فكثير وأنشـد :

النـــاس اخـــوان من دامت له نعم ·
والويل للمـــرء ان زلت به قـدم

ولما نكب على بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحد من أصحابه الذين كانوا يألفونه فى ولايته فلما ردت اليه الوزارة وقف أصحابه ببابه ثانيا فقال:

ما الناس الا مـع الدنيـا وصاحبها
فكلما انقلبت يومـا به انقلبـــوا
يعظمون أخـــا الدنيا فان وثبت
يوما عليه بما لا يشتهى وثبوا) (٢٧)

وقال فى الشفقة على خلق الله والرحمة بهم (قال النبى صلى الله عليه وسلم من لا يرحم لا يرحم ومن لا يغفر لا يغفر له) وقال صلى الله عليه وسلم (ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم) وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل (ان كنتم تريدون رحمتى فارحموا خلقى) رواه أبو محمد بن عدى فى كتاب الكامل · وقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم

---

(٢٧) ن· السابق : ١٤٣ ·

كمثل الجسد اذا اشتكى عضو فيه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)
وقال عليه السلام من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده نور
يوم القيامة ٠

ودخـــل عامل لعمر بن الخطـــاب رضى الله عنه فوجده مستلقيا على
ظهره وصبيانه يلعبون على بطنه فانكر ذلك عليه فقال له عمر : كيف أنت مع
أهلك ؟ قال : اذا دخلت سكت الناطق فقال له اعتزل فانك لا ترفق باهلك
وولدك فكيف ترفق بأمة محمد ٠ وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
انه قال (أن ابدال أمتى لن يدخلوا الجنة بالأعمال ولكن يدخلونها برحمة الله
وسخاوة النفس وسلامة الصدور الرحمة لجميع المسلمين) (٢٨) ٠

وكما عنى الأدباء بالتأليف فى العلاقات الشخصية وما ينبغى أن تكون
عليه كثر فى نتاج هذا العصر شعره ونثره الرسائل الأدبية بين الاخـوان
كما كثرت القصائد التى تبادلها الشعراء فى أكثر موضوعات الشعر من مديح
وتشوق وعتاب واعتذار وتهنئة ورثاء وهجاء الخ ٠

ومن الكتب التى ضمت الأدب الاخوانى فى العصر المملوكى كتاب
(ألحان السواجع لصـــلاح الدين الصفدى) وقـــد ملأه باخوانياته فى
الموضوعات المختلفة مما تبادله مع أصدقائه وخلصائه ٠

وأهم موضـــوعات الأدب الاخوانى المديح وقـــد كثر بين الأصدقاء
العلماء والكتاب والشعراء وحفل الأدب المملوكى بهذه المدائح الاخوانية وهى
تختلف عن المـدائح الرســمية التى تكتب فى سلطان أو ذى منصب أو جاه
فهذه الأخيرة يغلب عليها التملق والرياء أو الحذر من شر الخليفة أو الوزير
أو الرغبة فى عطائه ومنحه ولذا كثيرا ما يغلب عليها عاطفة الجشع والطمع

---

(٢٨) المستطرف ١/١٤٦ ٠

وهذه العاطفة أقل العواطف وأحطها قدرا لما تتميز به من أنانية وحب للذات أما مديح الاخوان فيغلب عليه روح المودة والتآلف وصدق العاطفة ، وقد وجد هذا اللون فى شعر العصر المملوكى بكثرة وفى الغالب أنه حل فى المكانة محل فن المديح الرسمى الذى كان له المكانة الأولى فى الشعر العربى القديم وتفاوت هذا المديح بين القوة والرصانة والاسفاف والركاكة وغلبت عليه الروح الذاتية والشعبية فى كثير من الأحيان · وهو دائما يلائم ممدوحه ويناسب مكانته ومنصبه ·

يقول جمال الدين بن نباته فى بنى فضل الله العمرى وكانت أسرة مشهورة تولت ديوان الانشاء لمدة طويلة وكان أكثرهم من الأدباء الموهوبين فنالوا مكانة عالية :

والفاتحين بأقلامهم لهم وطنا
مما لكا لم يحلها عزم فتاح
فان حموا بيضة الاسلام انهم
من سادة فى صميم العرب امحاح
أو كلموا بمواضيهم وألسنهم
فانهم أهل ابلاغ وافصاح (٢٩)

ويقول مادحا شهاب الدين بن فضل الله العمرى ومشيدا بالقلم ومفضلا له على السيف :

وذو القلم الذى ان قال أغنى
عن استسماع قعقعة السلاح (٣٠)

---

(٢٩) الديوان : ١٠٦ ·
(٣٠) الديوان : ١٠٣ ·

ونجد أن المديح الاخوانى قد يتضمن شوقا وحنينا الى الصديق او يشتمل على تهنئة أو شكر و عتاب و اعتذار او فكاهة او دعابة او مجون أو استدعاء ٠ والأديب دائما يلائم بين ممدوحه وما يمدح به من معان فاذا كان كاتبا مدح بالبراعة فى الانشاء والمقدرة على الخوض فى مجالات القول مع الافتنان فى استخدام ألوان البديع ووسائله واذا كان شاعرا مدح بسرعة البديهة والارتجال وطواعية القوافى ، واذا كان نحويا مدح بما أسداه الى اللغة من خدمات جليلة واذا كان فقيها أو متصوفا مدح بما يلائم هذا وذاك. وهكذا يقول أبو الحسين الجزار فى ابن دقيق العيد بعد أن سمعه يخطب بقوص مادحا :

يا سيد العلماء والأدباء والـ ... ـبلغاء والخطباء والحفـــاظ
شنفت أسماع الأنام بخطبـــة ... كست المعـــانى رونق الألفـاظ
أبكت عيـون السامعين فصولها ... فزكت على الخطباء والوعـاظ
وعجبت منهـا كيف حازت رقة ... مع أنهـــا فى غاية الاغـــلاظ
ستقول مصر اذ رأتك لغيـرها ... ما الدهـــر الا قسمة وأحـــاظ
ويقول قوم اذ رأوك خطيبهـــم ... أنسيتنا قسا بسوق عكاظ (٣١)

ونلاحظ فى مديح العلماء كثرة الاقتباس من مصطلحات العـــلوم التى تخصصوا فيها ٠ وقد غلب فى هذا اللون التقريظات ٠ والتقريظ يكون شعرا أو نثرا وهو يعنى ما يكتبه الأصدقاء لأصدقائهم يمتدحون بها شيئا من نتاج أقلامهم وثمار عقولهم مثل كتاب او قصيدة جيدة أو ديوان شعرى ٠ ومن ذلك مدح سعد الدين بن عربى للامام جمال الدين بن مالك الشافعى النحوى فقـــال :

ان الامام جمـال الدين جمـله ... رب العـلا ولنشر العلم أهله

---

(٣١) ابن دقيق العيد ١٢٢ ، طبقات الشافعية ١٢/٦ ٠

أملى كتابا له يسمى الفوائد لم يزل مقيدا لذوى لب تأملـــه
فكل مسألة فى النحـــو يجمعها ان الفـــوائد جمع لا نظير له

والأبيات فى تقـــريظ كتاب الفوائد (٣٢)

وقد راجت سوق التقاريظ فى العصر المملوكى لعوامل الصداقة بين الأدباء ورغبتهم فى اللعب البديعى وتمرين القريحة وحب المعارضة · ومن أمثلة الكتب التى عنيت بهذا اللون بين الأصدقاء الأدباء كتاب (سجع المطوق) لابن نباتة جمع فيه صاحبه تقاريظ الأدباء لكتابه مجمع الفرائد ، وقد أطلق عليه هذا الاسم لأن مقرظيه طوقوه بانعامهم ، ولذلك سجع بمحامدهم على غصون الأقلام ·

وابن نباته ترجم فى كتابه للمقرظين وسجل شيئا من مراسلاته اليهم ومدائحه فيهم من الشعر والنثر · والكتاب الى جانب أنه كتاب تقـــاريظ فهو كتاب أدب وفيه سجل ابن نباته عددا من الرسائل الاخوانية مما كتب الى اخوانه فى أغراض شتى منها العتاب والاستهداء والتشوق وغير ذلك ·

ومن ذلك مدحه لأحمد بن محمد بن سالم أبى المواهب بن صرصرى وكان قد حكم دمشق نيفا وعشرين سنة يصفح ويغضى ويمنح الجزيل ومن كلماته فيه (ما الغيث وان شجت سحبه وأسف فويق الأرض هيدبه ورمى المحل بسهامه وتبسم برده من لعس غمامه بأسمح من الغيث الذى يخرجه لناردنه وهو يدم المقبلة والسحب التى يجريها بأرزاق عفاته وهى أقلامه المؤملة ، كلا ولا البحر وان جاشت غواربه وهاجت عجائبه واستمدت من قطرات لجه الدائم الغزار وعلت كل موجة الى منال الشمس فكأنها على الحقيقة علم فى رأسه نار بأمد من مواهبه وما سقت وأعجب من علومه وما وسقت) — ومنهـــا

---

(٣٢) فوات الوفيات ٣/٣٩٩ ، ٤٠٠ ·
(٣٣) سجع المطوق مخطوط بدار الكتب رقم ١٧ آداب عربية ·

(ما شهدت الدروس أسرع من نقله ولا والله النفوس أبرع من عقله وما ظفر بمثله زمان وان حلف ليأتين بمثله) (٣٤) ومنها نظما :

أندى البـــرية والأنـــواء ما حــلة
وأسبق الناس والسادات تزدحـــم
حبـــر تجاوز قدر المدح من شـرف
كالصـــبح لا غــرة يحكى ولا رثم
لكنهـــا نفحــات من منـــــائحه
تكاد تحيــا بهــا فى رمسها الرمم
مجـرد العـــزم للعليــاء اذ عجــزت
عنها السراة وقالوا انهـــا قســم
فى كـل يوم ينادى جـــود راحتــه
هـــذا فتى النـــدى لا ما ادعى هــرم
لو أن للدهر جـــزءا من محاســـنه
لا يبقى فى الدهر لا ظلم ولا ظلم (٣٥)

وتكثر الرسائل الى الأصدقاء تعلن عن الشوق أو العتاب أو الإعتذار أو التهنئـــة ٠

كتب البهاء زهير الى صـــديق مظهرا شـــوقه :

وافى كتـــابك وهـــو بالـــ أشـــــواق عنى يعـــــرب
قلبى لـــديك أظنـــــــــــنه يمـــلى عليـــك وتكتب (٣٦)

---

(٣٤) طبقات الشافعية ٩/٢٠ ، ٢١ ٠
(٣٥) الســـابق ٠
(٣٦) الديوان : ٢٠ ٠

وكتب متشوقا الى صديق معترفا بجميله :

يا غائبـــــا وجميـــــله ... ما غـــاب فى بعـــد وقرب
اشكو لك الشـوق الـــذى ... لاقيتـــــه والـــذنب ذنبى
فعسى بفضـــل منـــك أن ... ترعى رفيقـــــك وهو قلبى
واســـاله عن أخبـــاره ... واستغن عن مضمون كتبى (٣٧)

ويقـــول :

يا صاحبى فيمـــا ينـــو ... ب وأين أين هنـــاك صحبى
لو كنت لم أعرف ســـوا ... ك من الأنام لكـــان حسبى
انى أدخــــرك للزمـــا ... ن وما عـــرا من كل خطب
يا نازحا يرضـــــيه مننى ... الـــود فى بعـــد وقـــرب
قلبى لديك فكيـــــف أنـ ... ـت على البعاد وكيف قلبى (٣٨)

كما تظهر الشكوى والعتاب فى هذا اللون من الأدب كتب البهـــاء زهير الى الوزير فخر الدين أبى الفتح عبد الله بن قاضى داريا يعاتبه ويشكو اليـه سوء بعض غلمانه يقول :

سواك الذى ودى لديه مضيع ... وغيـــرك من سعى اليه مخيب
وواله ما اتيـــك الا محبـــة ... وانى فى أهـل الفضيلة أرغب
ابث لك الشكر الذى طاب نشره ... وأطرى بما أثنى عليك وأطرب
فمالى ألقى دون بابك جفوة ... لغيـرك تعزى لا اليـــك وتنسب
ارد برد البـــاب ان جئت زائرا ... فيا ليت شعرى أين أهل ومرحب

---

(٣٧) الديوان : ٢١ .
(٣٨) نفسه والصفحة .

ولست بأوقات الزيارة جاهـلا ولا أنا مما قـــربه يتجنب
وقـد ذكروا فى خادم المرء أنه بمـا كان من أخــلاقه يتهذب
فهـلا سرت منك اللطائف فيهم وأعتـــدتهم آدابهــا فتأدبوا
ستصعب عندى حالة ما ألفتهـا على أن بعـدى من جنابك أصعب
وأمسك نفسى عن لقائك كارها أغالب فيك الشوق والشوق اغلب
وأغضب للفضـل الذى أنت ربه لأجلك لا أنى لنفسى أغضب (٣٩)

ومنه قول البهاء زهير وقد كتب الى صديقه الفقيه الحافظ النبيــه معتـذرا :

قالوا النبيـــه فقلت أهـــ ـــلا بالنبيـــه ومرحبــا
قالوا صـــديقك قلت أعـــ ـــرفه الصـــــديق المجتبى
قـــالوا اتى لك زائـــرا متـــــوددا متحببـــــا
قلت الكريـــم ومثـــله مولى تحـــل لـه الحبـــا
فنهضـت اكـــراما لـــه عجبــــا وقمت تـــأدبا
قالـــوا أقـــام هنيهـــة ثـــم انثنى متغضــــبا
فعجبت ممـــا قـــد سمعـــ ـــت وحـق لى أن أعجبـــا
ولعـــل أمـــرا ســاءه من جـــانبى فتجنبــــا
أولا فبغض الحاســـــديـــ ـــن ســـعى اليـــه فألبا
لا أم لى ان كـــــان ما نقـل الحســـود ولا أبا (٤٠)

وكما حفظ الأدب الرسائل المنفردة الى الأصدقاء حفظ الأدب الاخوانى الرسائل المتبادلة بين الأصـــدقاء ومن أمثلة ذلك ما كان بين ابن النقيب ناصر الدين الحسن بن شاور ت ٦٨٠ هـ والسراج الوراق الشاعر المعاصر

---

(٣٩) الديوان : ٢٧ .

(٤٠) الديوان : ٤١ الحبا جمع حبوة من الاحتباء وهو أن يقعد جامعا بطنه وساقيه بشىء يشده عليهما وهى قعدة العرب .

له وكانت تجمعهما صداقة وطيدة وكان السراج الوراق يسكن الروضة فبعث اليه ابن النقيب متشوقا :

يا ساكن الروضـــة أنت المشتهى — من هذه الدنيا وأنت المقتضى
ويا سرور النفس بين الشـــعرا — أنت الرضى فيهمو وأنت المرتضى
ويا سراجا لـم تـزل أنـــواره — تعيـد مســود الليـالى أبيضا
مالى أراك قاطعــا لواصــل — ومعرضا عن مقبل ما أعرضا (٤١)

فأجابه السراج :

يا ســـهم عتب جـــاء عن كنانه — أصبت من سواد قلبى الغرضـــا
لكن أسنوت ما جرحتـــه بمـــا — أعقبتـــه من العتـــاب بالرضـــا
يابن النقيب ما أرى منقبـــة — الا وأولئـــك الثناء الأبيضا
ان ولائى حسن فى حســـن — اذا ما أرى لعمران يرفضا (٤٢)

وأشار ابن النقيب الى ما كان بينهما من ود وتلازم وتزاور وكثـرة تردد كل منهما على دار صاحبه فقال :

لو فــر بغلى من اصطبلى لقلت لمن
يجرى وراه تمهـــل أيها الجـــارى
ففى زقاق سراج الدين موقفـــه
أو ذلك الخط أو فى حـــومة الدار (٤٣)

---

(٤١) فوات الوفيات ٢٥/١ .
(٤٢) نفسه ٢٥/١ .
(٤٣ ، ٤٤) فوات الوفيات ٢٥/١ .

فأجاب الوراق :

أفـدى خطاك ولو كانت على بصرى
لكان فى ذلك تشريف لمقـــدارى
وان دارك صـــان الله مالكهــا
أعز عندى من أهلى ومن دارى (٤٤)

وأرسل علاء الدين بن غانم ت ٧٣٧ بتبوك متشوقا الى العلامة شهاب الدين محمود واصـفا حاله وشدة ألمه لفراقه :

لقـد غبت عنا والذى غاب محسود
وأنت على ما اخترت من ذاك محمود
حللنا محـلا من بعدك ممحـــلا
به كل شىء ما خـــلا الشر مفقود
به البــاب مفتوح الى كل شـــقوة
ولكن به باب السـعادة مسدود (٤٥)

فرد عليـه شـــهاب الدين محمود :

أأحبـــابنا بنتم وشـــط مزاركم
برغمى وحـالت دون وصلكم البيـد
وروعتـــم روض الحمى بفـــراقكم
فشـــابت نواصى بانه وهـــو مولود
ومن لم تهجــه الورق وجـدا عليـكم
توهم أن النوح فى الدوح تغريد (٤٦)

(٤٥ ، ٤٦) فوات الوفيات ٣/٨١ ، ٨٢ .

كما كثرت المراسلات بين الأصدقاء فى مشكلات الحياة وكثر العتـاب والاعتذار والشكر . قال علاء الدين بن غانم عتبنى شهاب الدين محمود وهو صاحب الديوان وقال بلغنى أن جمـاعة من كتاب الانشاء يذموننى وأنت حاضر ما ترد غيبتى فكتبت اليه :

ومن قال ان القـوم ذموك كاذب
وما منـك الا الفضـل يوجد والجـود
وما أحـد الا لفضـلك حـامد
وهل عيب بين الناس أو ذم محمود (٤٧)

فأجاب بأبيـات منهـا :

علمت بأنى لـم أذم بمجـلس
وفيه كريم القـوم مثلك موجود
ولست أذكى النفس اذ ليس نافعى
اذا ذم منى الفعـل والاسم محمود
وما يكره الانسـان من أكل لحمـه
وقـد آن أن يبلى ويأكله الـدود (٤٨)

ومن مديح الاخـوان والمعنى فى غاية الروعة ما نظمه محيى الدين بن سراقة ت ٦٦٢ هـ الأندلسى الذى توفى بالقاهرة قوله :

وصـاحب كالـزلازل يمحـو
صـفاؤه الشـك باليقيـن

(٤٧ ، ٤٨) ن. السابقة والصفحة .

لم يحص الا الجميـــــــل منى
كائنــــه كـــاتب اليميـــن (٤٩)

وفى التشوق كتب بهـــاء الدين الأرزنى الى شمس الدين الرسعنى ت ٦٨٩ هـ حانا الى صديقه :

احن الى تلك الســـجايا وان نأت
حنين أخى ذكـــرى حبيب ومنزل
وأهدى اليهـــا من سلامى مشـــاكلا
نسيم الصبا جاءت بريا القـــرنقل (٥٠)

فأجابه شمس الدين :

على فتـــرة جاء الكتـــاب معطـــرا
بمسك ســـحيق لا بريا القـــرنفل
فاذكرنى ليـــلات وصـــل تصرمت
بـــدار حبيب لا بدارة جلجـــل
شكوت اليـــه صبرى اشتياقا فقال لى
ترفق ولا تهـــلك أسى وتجمـــل
فقلت لـــه انى عليـــك معـــول
وهل عند رسم دارس من معول (٥١)

والأبيات يكثر بها التضمين وتوضح مدى اهتمام الشعراء بحفظ ومدارسة الشـعر الجاهلى ٠

والصداقة بين الشعراء فى العصر المملوكى وكثرة زياراتهم ونزهاتهم

---

(٤٩) فوات الوفيات ٢٤٦/٣ ٠
(٥٠ ، ٥١) ن٠ السابق ٣٩٩/٣ ، ٤٠٠ ٠

ومجالسهم انتجت كثيرا من المعارضات فى فنون الشعر المختلفة (٥٢) ٠

وكثرت المداعبات بين الاخوان ٠ كتب ابن الأعمى الى صاحب أهدى اليه صحن حلاوة ولم يكن جيدا :

ان فى صحنك المسمى حلاوة
رقة تورث القلب قساوة
كم حفرنا فلم نجد غير أرض الـ
ـصحن يبسا كمثل أرض السماوه
لست أدرى من سكر كان أم من
عسل حين لم تشبه نداوه
غير أنى رأيت صحنا صغيرا
ما عليه من النعيم طلاوة (٥٣)

ومن المداعبات أرسل تاج الدين ابن حنا (محمد بن محمد بن على بن محمد بن سليم المصرى ت ٧٠٧ هـ) الى السراج الوراق فى حماره الذى سقط فى بئر فمات يعزيه :

يفديك جحشك اذ مضى متردديا
وبتالد يفدى الأديب وطارف
عدم الشعير فلم يجده ولا أرى
تبنا وراح من الظما كالتالف
ورأى البويرة غير خاف ماؤها
فرمى حشاشة نفسه لمخاوف
فهو الشهيد لكم بوافر فضلكم
هذى المكارم لا حمامة خاطف

---

(٥٢) فوات الوفيات ١٠٤/٣ فن الغزل بالمذكر فى مليح نائم ، ١١٦/٣ فى وصف حمام ٠

(٥٣) فوات الوفيات ٩١/٣ ٠

قوم يمـــوت حمـــارهم عطشا لقـد
أزروا بحاتم فى الزمان السالف (٥٤)

وأجاب الوراق بقصيدة على وزنها فى غاية الحسن أولها :

أدنت ثمـــار قطـــوفها لقـــاطف
وثنت بأنفـــاس النســـيم معاطفى

ومنهـا فى ذكر الحمـــار :

ولكم بكيت عليـــه عنـــد مـــرابع
ومراتع رشـــت بدمعى الـــذارف
يمشى على عسرى ويسرى صابرا
بمعـــازف تلهيـــه دون معـــالف
وقـد استمر على القناعة يقتـدى
بى وهى فى ذا الوقت جـل وظائفى
ودعـــاه للبئـــر الصدى فأجـــابه
واعتـــاقه صرف الحمـــام الآزف
وهو المـــدل بالفـــة طـالت وما
أنسى حقـــــوق مرابعى ومالفى
وموافقى فى كـــل ما حـــاولته
فى الدهر غيـــر مواقفى ومخـالفى
دوران ســـاقية لطـــاحون ونقـ
ـل المـــاء فى شـــات ويوم صائف
لـكن بمـــاء البئـــر راح بنقـــلة
قتلتـــه شامات بموت جارف (٥٥)

(٥٤ ، ٥٥) فوات الوفيات ٣/٢٥٧ ، ٢٥٨ .

وبعث الصاحب تاج الدين الى السراج الوراق وقد ولد له ولد صلة وثلثا حريريا وكتب مع ذلك أبياتا خمسة أولها :

بعثت بهـــــا وبالثلث الرفيـــع

فأجابه الوراق بأبيات أولها يشكره ويمتدح شعره :

سرت من جـانب العـــز الرفيـــع
الى بطيب أنفــــاس الربيـــع
مصرعة كـــأنى اليـــوم منهـــا
ولجت عـــلى حبيب والصـــــريع
دعـــونا الخمســـة الأبيات ســـتا
لســـبع علقت فـــوق الجميـــع
فدينـــا من هبـــاتك مذهبـــات
كأن بحـــوكها قطـــع الربيـــــع
تزيـــد بلمس كفـــك حسن وشى
كحسن الروض بالغيث المـــــريع
بهـــا أحييت للنفســـاء نفســـا
ولى معهـــا وللطفـــل الرضيع
وقـــد سمنت كيسى بعـــد ضعف
به التقت الضلوع مع الضـــلوع (٥٦)

ومن الأدب الاخوانى رثاء الأصدقاء · وقد كثر فى هذا العصر رثاء العلمـــاء قال شرف الدين الحصينى يرثى جمال الدين بن مالك الامـــام النحـــوى المعروف :

---

(٥٦) فوات الوفيات ٢٥٨/٣ - حبيب والصرايع يقصد أبا تمام ومسلم بن الوليد والمراد مدح شـــعره ·

يا شــــتات الأسماء والأفعــــال

بعــــد موت ابن مالك المفضــــال
وانحــراف الحروف من بعد ضــبط
منــه فى الانفصــــال والاتصــــال
مصــــدرا كان للعلوم باذن اللـــــ
ـــه من غيــــر شبهة ومحــــال
عـــــدم النعت والتعطف والتـو
كيــد مســتبدلا من الابـــــدال
ألـــم اعتــــراه أســكت منــــه
حــــركات كانت بغيــــر اعتــلال
يا لهـا من سكنة لهمز قضــــاء
أورثت طــــول مــــدة الانفصــــال
رفعـــوه فى نعشـــــه فانتصــبا
نصب تمييز كيف ســــير الجبــــال
صرفــوه يا عظــــم ما فعـــــلوه
وهــو عـــدل معـــرف بالجمــال
أرغمــوه فى التـــراب من غير مثل
ســـالما من تغيــــر الانتقــــال
وقفـــوا عنـــد قبره ساعة الدفـــ
ـــن وقــوفا ضرورة الامتثـــــال
ومـــددنا الأكف نطـــلب قصــــرا
مســــكنا للنـــزيل ذى الجــــلال
يا لســــان الأعـــراب يا جامع الا
عــراب يا مفهمـــا كل مقـــــال
يا فريد الزمان فى النظـــم والنثـــ
ـــر وفى نقـــل مســندات العوالى

كم علـــوم بثثتها فى انـــاس
علموا ما بثثت عنـــد الزوال (٥٧)

والأبيات فى التحسر على فقدان هذا العالم العظيم وتصف خسارة اللغة والعلم فيه وربما لا يدرك مقدار الحسرة والألم فيها من لا يعرف قدر العلم وقيمـــة العلمـــاء ٠

ومن ذلك أيضا رسالة لابن الوردى فى رثاء العالم الفقيه الامام هبة الله ابن عبد الرحيم البارزى الشافعى ت ٧٣٨ هـ وقد كتب بها الى ابنه القاضى نجم الدين بن عبد الرحيم (٥٨) ومنها قوله (وينهى أنه بلغ المملوك وفـــاة الحبر الراسخ ، بل انهداد الطود الشامخ وزوال الجبل الباذخ الذى بكته السماء والأرض ٠ وقابلت فيه المكروه بالندب وذلك فرض فشرقت أجفـــان المملوك بالدموع واحترق قلبه بين الضلوع وساواه فى الحزن الصادر والوارد٠ واجتمعت القلوب لما تم لمأتم واحد فالعلوم تبكيه والمحاسن تعزى فيـــه والحكم ينعاه والبر يتفداه والأقلام تمشى على الرؤوس لفقده ٠ والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده (٥٩) ٠

ويلاحظ فى الشعر والنثر الاخوانى التناسب بين الموضوع والألفاظ كما يلاحظ العناية بالبديع ٠

والعلاقة الشخصية بين الأفراد فى المجتمع ليست كلها مشرقة مضيئة يسودها السلام والوئام وان كان هذا هو الأمل المراد والنفوس ليست كلها على نفس النسق والأخلاق والطبائع ليست دائما تتسم بالبياض والصـــفاء

---

(٥٧) فوات الوفيات ٣/ ٠
(٥٨) تاريخ الوردى ٢/٤٥٥ ٠
(٥٩) ديوان ابن الوردى : ١٦٢ ٠

وكما أن الخير موجود والعواطف النقية الصادقة موجودة فان الشر موجود ومظاهره تنفر منها النفوس لأنها تهدف الى الهدم والتخريب ·

ويتمثل الجانب المظلم للعلاقات بين الأفراد فى الهجاء والوشايات وقد تفاوت الهجاء فى هذا العصر بين الصراحة والاقـذاع والسخرية المريرة والهجاء الموجع الذى يعتمد على التلاعب بالألفاظ واستخدام مصطلح العلوم أو حرفة المهجو أو اسمه · وكانت المنافسة بين الأدباء من أقوى أسـباب الهجاء · ويلاحظ على هجاء هذا العصر الشعبية وميله الى الأوزان القصيرة ونظمه فى مقطوعات ·

يقـول البهاء زهير فى جاهل ثقيـل :

وجـاهل طـال بـه عنـائى
لامنى وذاك من شـقائى
كأنه الأشـهر فى أسـمائى
أخـرق ذو بصـيرة عميـاء
لا يعـرف المـدح من الهجـاء
أفعـاله الـكل بلا اسـتواء
أقبـح من وعـد بلا وفـاء
ومن زوال النعمـة الحسـناء
أبغض لعيـن من الأقـذاء
أثقـل من شـماتة الأعـداء
فهـو اذا رآته عيـن الرائى
أبـو معـاذ أو أخو الخنساء (٦٠)

---

(٦٠) الديوان : ١٨ ، أبو معاذ ومعاذ بن جبل من كرام الصحابة وصخر هـو أخو الخنساء لابيها وفى البيت جناس معنوى والمراد أن المهجو فى ثقله كالجبل وكالصخر

ويقول فى ذم بعض الأشخاص :

تساويتم لا أكثر له منكم
فما فيكم والحمد لله محمود
رأيتكم لا ينجح القصد عندكم
ولا العرف معروف ولا الجود موجود
وددت بأنى ما رأيت وجوهكم
وان طريقا جئتكم منه مسدودا (٦١)

ويقول فى صديق غادر :

وصاحب جعلته أميرى
شارك منى موضع الضمير
أودعته الخفى من أمورى
فكان مثل النار فى البخور
صحبته ولم يكن نظيرى
قدمته وهو يرى تأخيرى
بغضب اذ جعلته تكثيرى
كما تزاد الياء فى التصغير (٦٢)

ويقول فى بعض من عاشرهم :

قصدتكم أرجو انتصارا على العدا
حسبتكم ناسا فما كنتم ناسا

---

(٦١) الديوان : ٧٨ .
(٦٢) الديوان

فلم تمنعوا جارا ولم تمنحوا أخا
ولم تدفعوا ضيما ولم ترفعوا راسا (٦٣)

ويشكو ندرة الصديق فيقول :

قل الثقات فلا تركن الى أحد
فأسعد الناس من لا يعرف الناسا
لم ألق لى صاحبا فى الله أصحبه
وقد رأيت وقد جربت أجناسا (٦٤)

وكانت المنافسة والتحاسد بين الأدباء أحد أسباب الهجاء . وكان الشاعر أبو الحسين الجزار هدفا لكثير من الأدباء فكثرت الأهاجى فيه يقول مجاهد الخياط ت ٦٧٢ هـ مشيرا الى سرقات الجزار من غيره من الشعراء :

أبا الحسين تأدب ما الفخر بالشعر فخر
وما تبللت منه بقطرة وهو بحر
وان أتيت ببيت وما لبيتك قدر
لم تأت بالبيت الا عليه للناس حكر (٦٥)

ويقول شمس الدين بن دانيال فى هجاء السراج الوراق متلاعبا بلفظه السراج :

رأيت سراج الدين للصفع صالحا
ولكن فى علمه فاسد الذهن

---

(٦٣) نفسه ١٤٢ .
(٦٤) الديوان : ١٤١ .
(٦٥) فوات الوفيات ٢٣٧/٣

أســــتره بالكف خوف انطفـــائه
وآمنـــة فى طفئة كثرة الوهن (٦٦)

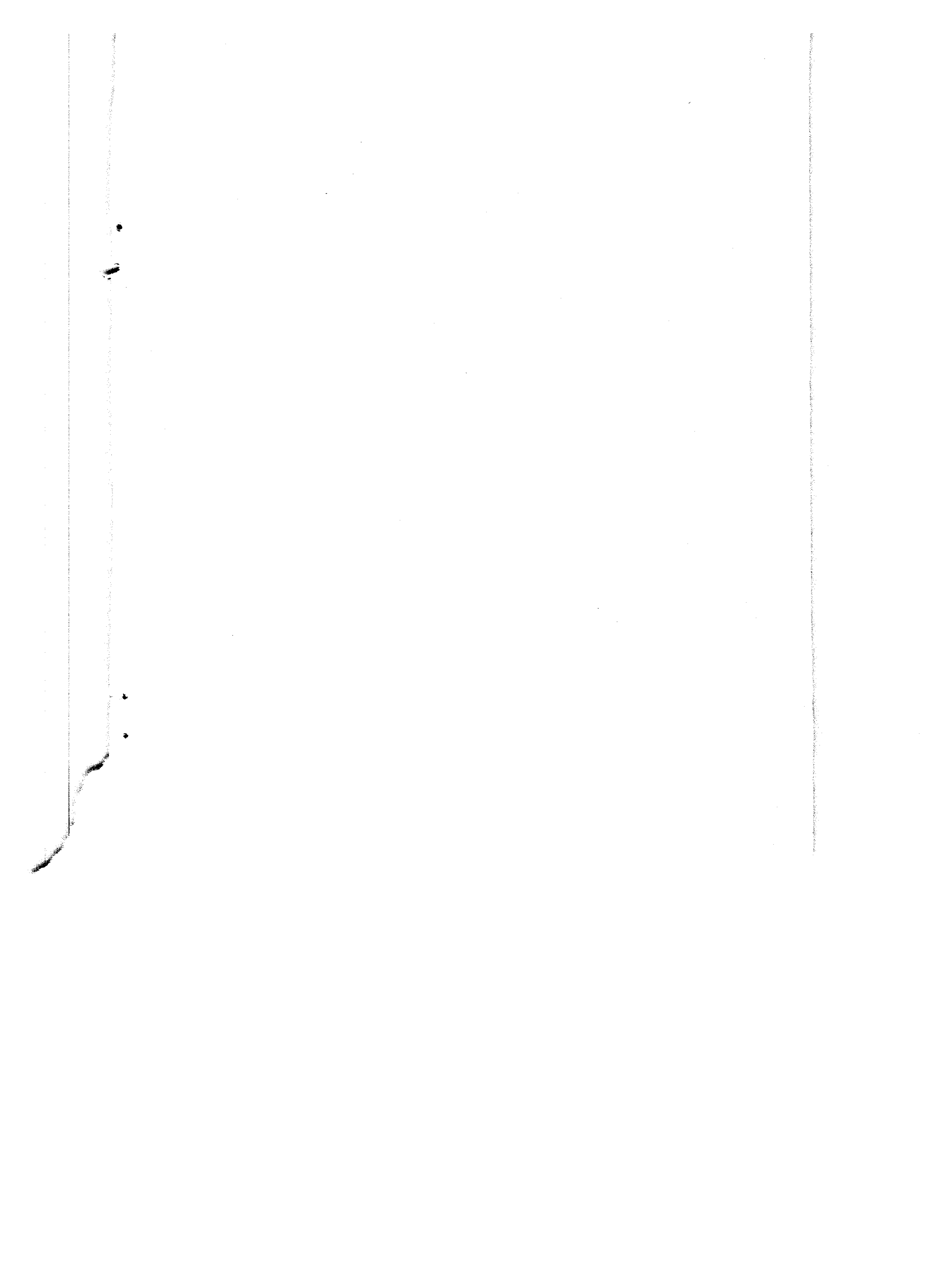
وكما حفل الشعر المملوكى بالعلاقات الشخصية حفل النثر الأدبى بتلك العلاقات فرأينا الرسائل الأدبية تتنوع موضوعاتها من شوق وشكر وشكوى ومدح ومداعبة وتسلية ورثاء وتهنئة ومجون والغاز الخ ٠٠ والمعــروف أن هذه الموضوعات والأغراض خاصة بالشعر ومنذ العصر العباسى بدأت تظهر فى النثر وفى هذا العصر نافس النثر الشعر فى هذا المجال وتفوق عليــــه فى كثير من الأحيان ٠

وهذه الرسائل التى يطلق عليها اسم الاخوانيات عنيت عناية كبيرة بالبديع كباقى آثار العصر ٠ وقد تأثرت بالرسائل الديوانية فى بدئها بخطبة فيها تحميدات وصلوات على النبى عليه السلام مع استهلالات بارعة تناسب ألفاظها ومعانيها موضوع الرسالة أو ظروف المرسل اليه مثل اظهار الولاء ومكنون الود ودفين الشوق ثم عرض الموضوع مع الختام مع الأدعية المناسبة والألقاب والأبيات الشعرية ٠٠٠ الخ (٦٧) ٠

وهكذا وجدنا أن العلاقات الشخصية قد احتلت جــزءا كبيرا من أدب العصر المملوكى شعره ونثره ومؤلفاته ، وكانت معــــرضا لأخلاق الأدباء ونفوسهم ووجهات نظرهم وثقافاتهم وأذواقهم وأنها تناولت جوانب الخير فى النفس البشرية والحياة كما عكست نزعات الشر هى فى كل ذلك أثرت آداب اللغـــة العـــربية ٠

---

(٦٦) السابق ٣٣٣/٣ ٠
(٦٧) صر سلاطين المماليك ١٥٨/٥ ٠



خاتمة المطاف

استغرق الحكم المملوكى قرابة الثلاثمائة عام (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) وكانت له آثار قيمة فى مجالى الفكر والأدب ومع ذلك فقد أهملت دراسته لفترات طويلة ، ولما فكر الباحثون فى ذلك وقفوا أمامه مترددين ثم وصفه أكثرهم بأنه عصر ظلام وانحدار وحكموا على أدبه ككل بالاسفاف والتخلف والأدب لا يحكم عليه جملة بل انه يحتاج الى التفصيل فهو أجزاء لموضوعات وأفكار وأحاسيس متعددة يمكن أن يحكم على جزء من أجزائه أو على بعضها بالضعف ولكن لا يمكن أن يكون هذا الحكم عاما على كل الأجزاء ٠

ولقد أطلعت على كثير من آثار العصر متمثلة فى مؤلفات تاريخية وأدبية وموسوعية شملت شتى مناحى العلم والفكر وشعرت بمدى ما لحق هذا العصر من ظلم وأنه لا يختلف عن غيره من العصور الأدبية ففيه جوانب مضيئة وفوائد لا يغفلها منصف كما أن به بعض وجوه الضعف نتيجة لظروفه الخاصة وملابساته التى نشأ فى اطارها وهو فى كل حالة يصور بيئته وأهل زمانه وذوق عصره أصدق تمثيل ٠ ولذا حاولت أن أرد اليه بعض حقه وأن أجعل الباحثين يقبلون على دراسته اقبالهم على غيره فيأخذ حظه وينشر فضله ويتعمق فهمه ويأخذ مكانه الصحيح بين صفوف الأدب العربى فى عصوره المختلفة ٠

وقد لاحظت أن مفهوم الأدب فى هذا العصر اتسع اتساعا كبيرا وأنه أصبح يراد به الأخذ من كل علم بطرف وغلب عليه الفكر الموسوعى ٠ ورأيت آثاره كثيرة وأدباءه وشعراءه ومؤلفيه مبثوثين فى كتب التراجم وسير الأعلام لا يمكن لدارس احصاؤهم ولا احصاء كل آثارهم ، ولذا قصرت بحثى على دراسة صور من أدب هذا العصر لتكون شاهدا منه عليه وتوخيت قوة قربها من نفوس منشئيها وتعبيرها عن عواطفهم وذاتيتهم ٠ ومزجت بين الشعر والنثر فيما كتب فى كل موضوع من تلك الموضوعات فكلها حشاشة نفوس أصحابها ٠ ووجهت جل عنايتى الى البيئة المصرية فمصر وطنى وآثار أدبائها

يمكن الوصول اليها والحصول عليها أكثر من غيرها ، ومصر فى هذا العصر كانت زعيمة العالم الاسلامى وتمتعت بالاستقلال كما نعمت بالاستقرار الى حد كبير اذا وازناها بغيرها من بلدان العالم الاسلامى فى هذه الفترة ٠

وبدأت بدراسة البيئة العـــامة التى نشأ فيها هذا الأدب وترعرع فوجدتها تربة خصبة لنمو الأدب وازدهاره وفيها توافرت بواعثه ودوافعـه ٠ فقد كان المناخ السياسى صالحا لنمو الأدب ذلك أنه فى بداية هذه الفترة كثرت الحروب الصليبية كما قامت الحروب والغارات التترية وانتهت بتصفية جيوب الصليبيين فى مصر والشام وردهم الى بلادهم مهزومين مدحورين وفيها انتصر المسلمون بقيادة القواد الأتراك على الغزو التترى ولم يمكنوه من الاقتراب من مصر أو المساس باستقلالها ٠ وكان لتلك الحروب ومآسيها ووقوع البلدان فى أيدى الصليبيين أو تخليصها منهم أثر فى ازدهار الأدب كمـــا وكيفا فقد كثر فيه شعر المدح والفخر والرثاء والوصف والرثاء والابتهالات والأدعية والزهد والحث على القتال ٠٠٠ الخ ٠

والى جانب ذلك كثرت المؤلفات التى تصف أحداث العصر وانتصاراته كما كثرت الرسائل السياسية المتعلقة بهذه الجوانب ٠

وكان المناخ الاجتماعى باعثا قويا على نمو الأدب فقد حث ذوى المواهب على القول والابداع ووضع بصماته على أدب هذه الفترة فطبعه بطوابعـــه المميزة الأصيلة فظهر فيه قوة النزعة الدينية وتمثل فى أدب الصوفية والزهاد وشيوع المدائح النبوية والأدعية كما ظهر فيه الاتجاه المضاد متمثلا فى اللهو واجون والشذوذ وشيوع الموبقات وزخر بوصف مظاهر الحضارة والعمران والأسواق الأعياد والاحتفالات والكوارث والمصائب والزلازل والأوبئـة مما أدى الى شيوع روح التشاؤم والحزن والشكوى بين جنباته كما عكس صورة العلاقات بين الطوائف المختلفة ومـلامح الشـــخصية المصرية فى خفـــة ظلها الأبدية وسخريتها المريرة من صعوبات الحياة ومشكلاتها ٠

كذلك كان المناخ الفكرى والثقافى ملائما لازدهار اللغـة العـربية وآدابها فقد اعتنى الحكام عناية كبيرة بالتعليم وانشاء المدارس والمسـاجد ودور الكتب · وكانت العناية باللغة العربية كبيرة فجعلوها اللغة الرسمية للدولة وشجعوا على تعلمها وتعلموها هم أيضا ·

وكثر التأليف فى هذا العصر كثرة لم تحدث من قبل واتسم بالاتجاه الموسوعى وشمل التأليف العلوم اللغوية والدينية والكونية ·

وقد وجهت عناية كبيرة الى الأدب فى هذا العصر تمثلت فى جمــع التراث الأدبى الشعرى والنثرى وشرحه ووضعه فى كتب للمختارات بأساليب ومناهج متعددة ولهذه الكتب فوائد جمة فهى أولا تحفظ التراث من الضياع وهى تعرض لأجوده ثم أنها تكشف عن الاتجاهات الفكرية التى سادت هــذه الفترة كما تكشف عن غزارة الانتاج وتوضــــح ذوق العصر فى اختيارات المؤلف · وكثر فى هذا العصر معارضة الشعر القديم وقد اتخذها الشـعراء تمرينا للقريحة ومحاولة للتجويد ومنافسة للشعر القديم فى موضوعاته وأساليبه ومعانيه · كذلك اعتنوا بمنشىء الأدب فكثرت تراجم الأدباء ومحاولة حصر آثارهم وشرحها ·

كما وجهت عناية كبيرة للنقد الأدبى ومال الأدباء الى أسلوب القاضى الفاضل وحاكوه فى أسلوبه وعنايته بالبديع وأصبح الولوع بالبديع هــو المثل الأعلى والذوق العام للعصر فى شعره ونثره وأكثر مؤلفاته وظهـــر فن البديعيات فى القصائد البديعية فى مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر انتشارا كبيرا وكثرت المؤلفات النقدية التى ترسم حدود جودة الأدب وتوضح مقاييسه ·

وبعد هذا العرض للبيئة العامة التى نشأ فيها الأدب المملوكى وهــو بمثابة دراسة المؤثرات والدوافع العامة فى أدب هذا العصر درست خمس صور من الأدب ·

وكانت الصورة الأولى الوصف فى أدب العصر المملوكى وفيها درست اتساع مدلول هذا الفن وكيف أنه يعد أكثر الفنون الأدبية انتشارا فى شعر ونثر هذا العصر وبحثت فى أهم العوامل التى أدت الى علو مكانة الوصف ثم ركزت جهدى على وصف البيئة وأوضحت المراد من وصف البيئة وهــو العناية بآثارها القديمة ومظاهرها الأصيلة ومظاهرها العمرانية والحضارية ووصف كل ما فيها ومن فيها من معنويات وحسيات وقد لاحظت تفوق النثر على الشعر فى الكثير من المعانى ولأساليب فى هذا الباب وان كبلته أغلال البديع وصنوف التكلف ٠

والصورة الثانية هى التشوق والحنين الى الأوطان وهو غريزة طبيعية فى النفوس وفطرة فطر الله النفوس عليها وهو موضوع قديم اتسع اتساعا كبيرا فى أدب هذا العصر ولحقه التجديد وقد أوضحت أهم العوامل التى أدت الى انتشاره وازدهاره وتحدثت عن الوطن ومعناه وأهميته بالنسبة لأبنائه وعناية الآداب جميعا بالحديث عن الأوطان وذكرت متى يشتد الشــوق الى الأوطان وقيمة الشوق فى الشعر ٠ وقسمته الى قسمين الأول التشوق الى الأوطان والثانى التشوق الى مهد الاسلام الأول ولاحظت فى النوعين صدق العاطفة وقوة الشعور وغلبة النزعة الروحية والعشق خصوصا فى تشــوق الصوفية الى الأماكن المقدسة ٠ وقد خص بعض الشعراء التشوق الى الأوطان بمقطوعات خاصة مثل البهاء زهير وابن نباتة وابن دقيق العيــد ولــكن الظاهرة الغالبة هى مجيئه مبثوثا خلال القصائد الغزلية والمدائح النبوية ورثاء المدن ٠ وقد لاحظنا أن بعض الشعراء استهلوا قصائدهم بالوقوف على آثار الأوطان والحديث عن معالمها وبث شوقهم وحرقة قلوبهم لفراقها ٠ والشاعر فى تشوقه الى وطنه يكثر من البكاء والدموع والتحسر والآهات ويعتنى بذكر أسماء الأماكن موطن الذكريات والشاعر فى هذا اللون من الشعر يعبر عن عواطفه كما يعكس صورة عصره بقلقه وحيرته وما حــل به من خراب مادى ومعنوى ٠

والصورة الثالثة كانت الشكوى فى شعر العصر المملوكى ٠ والشكوى

فن قديم وغريزة طبيعية فى نفوس البشر وقد وجدت عوامل ودوافع أدت الى استمرارها وازدهارها فى أدب العصر المملوكى . والشكوى واسعة منهـــا شكوى الحال والزمان والناس والدهر وقد تأتى مستقلة فى مقطوعات قصيرة أو فى خلال القصائد خاصة قصائد المديح والهجاء وتتنوع طرقها فقد تكون حزينة متشائمة أو ساخرة متهكمة أو متفائلة متغلبة على آلامها أو واصفة لحال النفس راضية بقدرها وقضاء الله فيها ، ولأن الشكوى ثمرة معاناة فقد نتج عنها كثير من الحكم وهى تشبه حكم السابقين فى المعنى مع ميــل شديد الى سهولة الألفاظ وشعبية اللغة . واستخدم بعض الشعراء أسلوب القصة والحكاية فى بث شكواهم مثــل البهـــاء زهير والبـــوصيرى وشمس الدين بن دانيال .

أما الصورة الرابعة فهى المقامات . والمقامة فن ازدهر فى العصر العباسى الثانى على يد بديع الزمان الهمذانى ثم الحريرى وقلدهما كثيرون ولم يصلوا الى جودة فنيهما والمقامة فن له أصول وقواعد تقوم عليها منها الراوى والبطل والحادثة أو القصة المحبوكة فى موضوع معين وكان هدفها الرئيسى هــو الشحاذة بالأدب أو الاحتيال به من أجل الكسب . هذا مع شدة العناية بأسلوبها ومزجها بين الشعر والنثر والولوع بالبديع وكثرة تكلفه وقد اختلفت المقامة المملوكية عن سابقتها فى وجوه عدة منها الاستغناء عن شخصيتى الراوى والبطل والاستغناء عن أساليب الحيلة والمكر والدهاء والتكدى ـ كما أنها كتبت فى كل الموضوعات وتعرضت لأكثر ثقافات العصر وعبرت عن ذوقه وشاركت فى أحداث العصر وأصبحت أكثر شبها بالمقالة أو الرسالة فى العصر الحديث مع العناية الشديدة بترصيع أساليبها بفنون البـــديع وتضمينها مصطلحات العلوم المختلفة ، وقد نبغ كثير من أدباء العصر فيها وكثرت كثرة عظيمة .

أما الصورة السادسة فهى العلاقات الشخصية فى الأدب المملوكى . وهذا الموضــوع لاتســـاعه وشـــدة العنـــاية بـــه بعـــد من

الموضـــوعات الجـــديدة فى أدب هـــذا العصــــر ، وقـــد عنى به الشـــعراء والكتاب والمؤلفون وهـــو يقـــوم على عـــلاقات المودة والأخوة والصداقة بين الأفراد فى المجتمع ويضع قواعد وأسسا لها كما يقوم عـــلى علاقات المنافسة والحسد والتباغض بين الأشخاص وهنا يعبر عنه أدب الذم الذى يعبر عنه **الهجـــاء** ·

والعلاقات الشخصية احتلت جزءا كبيرا من أدب العصر المملوكى شعره ونثره ويدخل تحتها مديح الاخوان من الأصدقاء الأوفياء والعلماء الأجلاء كما يدخل تحتها التشوق والاعتذار والعتاب والرثاء والهجاء والمداعبات والمجونيات وغير ذلك مما ينجم عن العلاقة بين الأفراد وهو أدب ذاتى يمس الوجدان ويغلب على أكثره صدق العاطفة ولكن يقل فيه الاختراع والابتكار فى المعانى ·

ومن دراستى للصور السابقة اتضح لى أهم ما يميز الأدب فى العصر المملوكى وهو :

- كثرة عدد الأدباء فى هذا العصر مع عدم التخصص فمنهم الفقيه والقاضى والنحوى والخياط والكحال والجزار ·

- تمثيل هذا الأدب لنفسية قائلية وارتباطه بمشاعرهم وما يعـــرض لهم فى حياتهم من معاناة ·

- ميله لجانب المعانى أكثر من عنايته بقوة الأسلوب ·

- شعبية اللغة وتتمثل فى سهولة الألفاظ واستخدام الألفاظ العـامية بكثرة وتضمين الأمثال الشعبية ·

- الولوع بالبديع والافتنان فيه وأهم الأنواع التى ولع بها المصريون الجناس والتورية والتضمين والاقتباس ومراعاة النظير ·

- استخدامه لمصطلحات العلوم المختلفة ·
- غلبة روح التشاؤم عليه ·
- ميله الى الدين ·
- ولوعه بالوصف ·
- ميله الى الفكاهة والسخرية ·
- خوض النثر فى موضوعات الشعر وتفوقه عليها فى أكثر الأحيان·

- كثرة المؤلفات فى شتى فروع العلم والمعرفة وغلبة الجمع والنقل عليهـــا ·

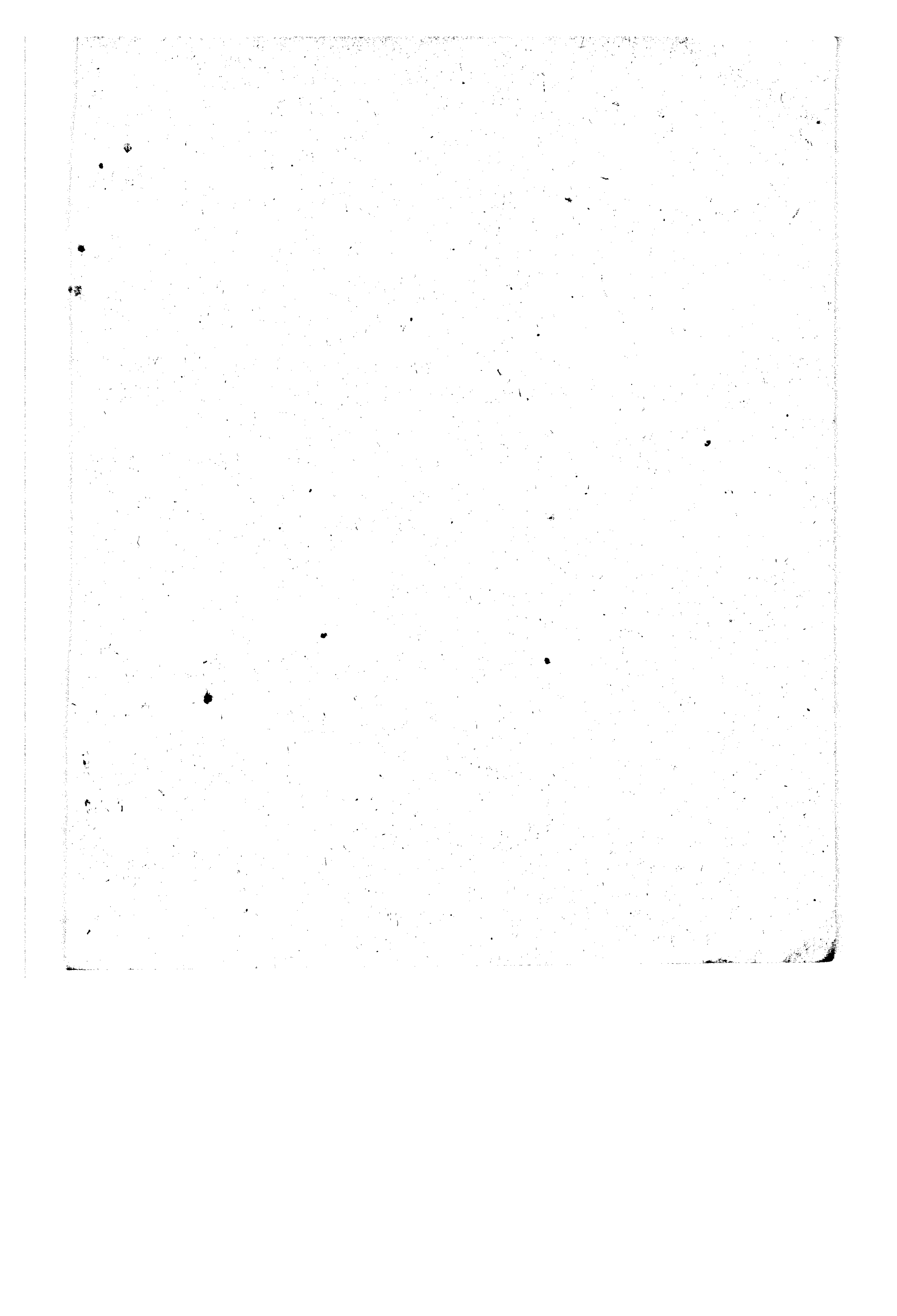
- حفظه لآثار السابقين ·
- وجود بعض التجديدات فيـــه ·

- التوسع فى بعض الموضوعات القديمة مثل المدائح النبوية التصوف الوصف - الشكوى - التشوق الى الأوطان - الاتساع فى باب الاخوانيات ·

وما زال الكثير من كنوز الأدب فى العصر المملوكى مدفونا فى رفوف المكتبات يحتاج الى من ينفض عنه غبار السنين ويستخرجه ليستفيد منـــه الدارسون والباحثون ·

وفق الله الجميع لخدمة العلم والدين ·

انتهى



اهـم المصـــادر والمراجـع

— القرآن الكريم
— ابن دقيق العيد حياته وأدبه ، د٠ على صافى حسين ، دار المعارف
— اتجاهات الشعر فى القرن الثانى الهجرى ، د٠ مصطفى هـــدارة ، دار المعـــارف
— الأدب الصوفي فى مصر فى القرن السابع الهجرى ، د٠ على صافى حسين ، دار لمعـــارف
— الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية الى مجىء الحملة الفرنسية ، د٠ عبد اللطيف حمزة ، النهضة المصرية
— الأدب فى العصر المملوكى ، د٠ محمد زغلول سلام ، دار المعارف
— الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، ط بيروت مصـــورة عن دار الكتب المصرية
— اغاثة الأمة بكشف الغمة ، تقى الدين المقريزى ، التأليف والنشر
— البيان والتبيين للجاحظ ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، الخانجى
— تاريخ آداب اللغة العربية ، جورجى زيدان ، ط الهلال
— تاريخ الأدب العربى ، كارل بروكلمان ، دار المعارف
— تاريخ الأدب العربى ، تأليف د٠ شوقى ضيف ، ط دار المعارف

العصر الجـاهلى	د٠ شوقى ضيف
العصر الاسلامى	د٠ شوقى ضيف
العصر العباسى الأول	د٠ شوقى ضيف
العصر العباسى الثانى	د٠ شوقى ضيف

عصر الدول والامارات مصر والشام د٠ شوقى ضيف
عصر الدول والامارات ، الجزيرة العربية ـ العراق ـ ايران
د٠ شوقى ضيف
— تاريخ الأدب العربى العصر العباسى الثانى الأستاذ أحمد الشعراوى المحمدية ٠
— التاج الجامع للاصول فى احاديث الرسول ، دار الفكر
— التذكرة الصفدية ، صلاح الدين الصفدى
— تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر ، تحقيق حفنى محمد شرف ، ط القاهرة ، لابن أبى الأصبع
— جواهر البلاغة للهاشمى ، دار احياء التراث
— جنان الجناس للصفدى ، تحقيق د٠ حمزة الدمرداش ط المحمدية ٠
— الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، أحمد د٠أحمد بدوى ، النهضة المصرية ٠
— الحياة الأدبية فى مصر فى العصر المملوكى والعثمانى ، د٠ محمد عبد المنعم خفاجى ، ط زهران
— الحركة الفكرية فى مصر فى العهدين الأيوبى والمملوكى الأول ، د٠ عبد اللطيف حمزة ، ط دار الفكر
— حسن المحاضرة ، السيوطى ، ط الكتبى ٠
— حسن التوسل الى صناعة الترسل محمود شهاب الدين الحلبى ، ط الوهبية
— الحنين الى الوطن فى الأدب العربى حتى نهاية عصر بنى أمية ، محمد ابراهيم خور ، دار النهضة
— خزانة الأدب وغاية الأرب ، ابن حجة الحموى ، ط بولاق
— الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر العسقلانى ، تحقيق محمد سيد جاد ، دار الكتب

- ديوان ابن نباتة ، بيـروت
- ديوان البوصيرى ، محمد شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى ، تحقيق محمد سيد كيـلانى
- ديوان البهاء زهير ، ط دار المعـارف.
- ديوان صفى الدين الحلى ، ط بيروت
- ديوان ابن الوردى ، ط الاستانة
- ديوان جـرير ، ط بيروت
- ديوان بشار بن برد ، ط بيروت
- ديوان أبى تمام ، بيروت
- ديوان المتنبى بشرح العكبرى ، ط بيروت
- الرحـلات ، د. شوقى ضيف ، دار المعـارف
- رسائل الجـاحظ ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ط الخانجى
- السخرية فى الأدب العـربى ، تأليف د. نعمان محمد أمين طه ، ط دار التوفيق ، الأزهر
- السـلوك ، المقريزى
- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ابن عماد الحنبلى
- الشعر والشـعراء ، ابن قتيبة ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف
- شرح لامية العرب ، العكبرى ، ط بيروت
- صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، أبو العباس محمد بن على القلقشندى ، التأليف والنشر
- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، كما الدين الأدفوى
- طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين السبكى ، ط الحسينية
- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ، محمود رزق سـليم ، ط الآداب الجماميز

— الغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، صـــــلاح الدين الصفدى ، ط دار الكتب

— فض الختام عن التورية والاستخدام ، الصفدى ، بيروت

— الفكاهة فى الأدب العربى ، د. أحمد محمد الحوفى ، ط النهضة

— الفكاهة فى مصر ، د. شوقى ضيف ، ط الهـــلال

— الفن ومذاهبه فى النثر العربى ، د. شوقى ضيف ، دار المعارف

— الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، د. شوقى ضيف ، دار المعارف

— الفن ومذهابه فى النثر العربى ، د. شوقى ضيف ، دار المعارف

— فى أدب العصور المتأخرة ، ناظم رشيد ، ط العراق

— لسان العرب لابن منظور ، ط دار المعارف

— فوات الوفيات ، ابن شاكر الكتبى ، دار الثقافة ، بيروت

— المغرب فى حلى المغرب ، لابن سعيد ، تحقيـــــق د. شوقى ضيف ، دار المعـــارف

— مقدمة ابن خـــلدون ، ط بيروت

— المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، سعيد عبد الفتاح ، النهضة

— المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى ، د. فوزى أمين ، دار المعارف

— المدائح النبوية فى الأدب العربى ، زكى مبارك ، النهضة المصرية

— المقـــامة ، د. شوقى ضيف ، دار المعارف

— مقامات الحريرى ، أبو محمد القاسم بن على الحريرى ، القاهرة

— المستطرف فى كل فن مستظرف ، الأبشيهى ، بيروت

— مطالعات فى الشعر المملوكى ، د. بكرى شيخ أمين ، دار الآفاق ، بيروت

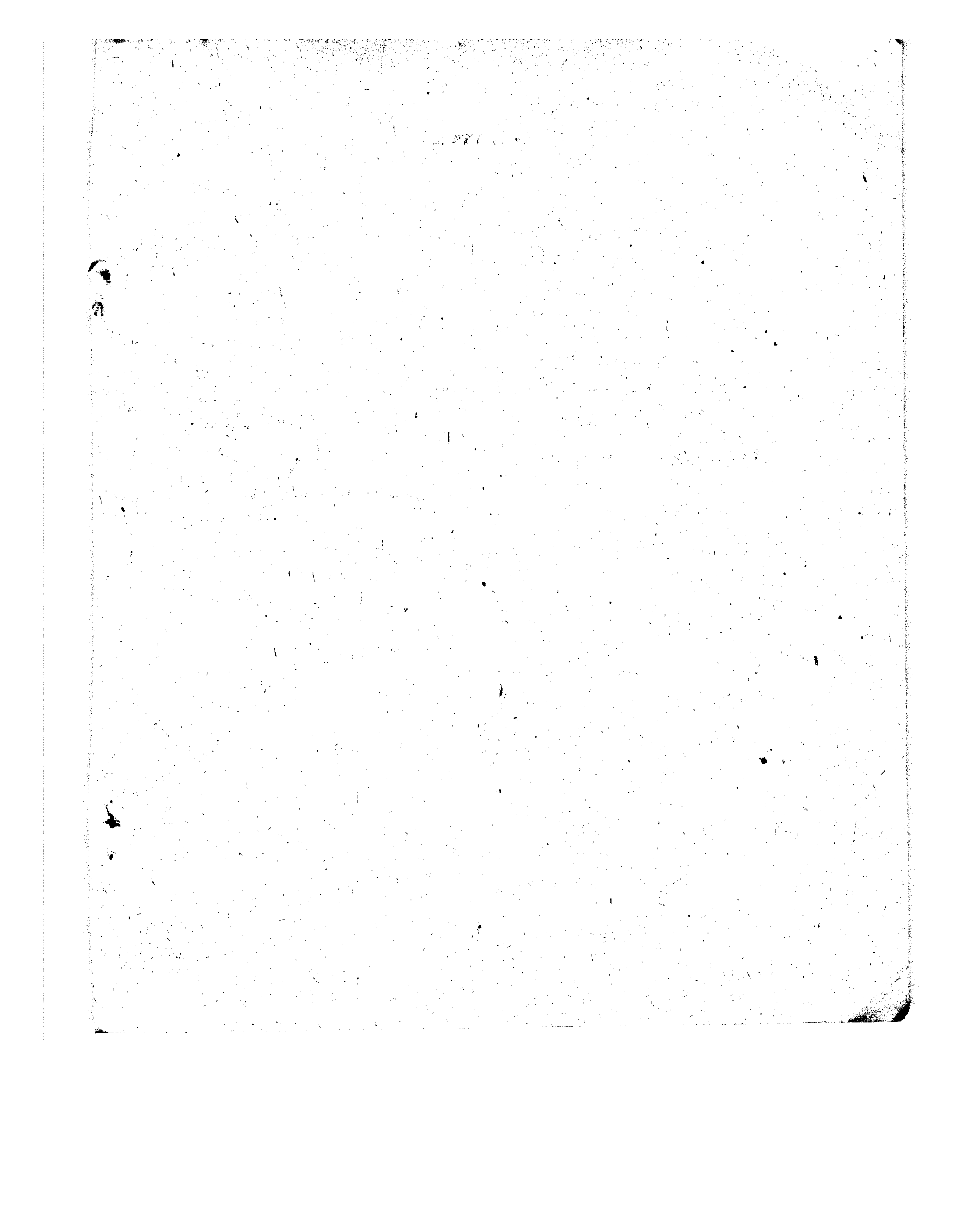
— المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المقريزى

— النجوم الزاهرة ، لابن تغرى برده ، دار الكتب

— النقد الأدبى فى العصر المملوكى ، د. عبده عبد العزيز قلقيلة ، ط الأنجلو

— الوافى بالوفيات ، صلاح الدين الصفدى ، ط بيروت

فهرس الموضوعات



رقم الايداع ٥٣٢١ / ١٩٨٧
الرقم الدولى ١ ـ ٠٥٩٥ ـ ٠٥ ـ ٩٧٧

